السهل المفيد
فى
تفسير القرآن المجيد

الجزء الرابع

عبدالحي حسين محمد الفرماوي

يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

{ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ }
[الآية ١]

هذه أول آية من سورة (يونس) عليه السلام ، والذى جاء ذكره فى هذه السورة ٠٠ فى قوله تعالى فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين [يونس : ٩٨].

وتبدأ هذه الآية بقوله تعالى: {الر} ، وقد تحدثنا عن معنى هذه الحروف المقطعة، التى أتت فى أوائل بعض السور : عند حديثنا عن مطلع سورة البقرة ٠٠ فليرجع إليها هناك من شاء .

ومعنى باقى الآية : تلك يعنى هذه آيات من الكتاب أى : القرآن ، الحكيم المحكم ، المشتمل على الحكم ، الممتنع عن الفساد ، ولا تغيره الحوادث والأيام.

* * *

{ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ }
[الآية ٢]

يقول سبحانه : أكان للناس أمراً عجباً يتعجب منه ، وغريباً إلى هذا الحد أن أوحينا إلى رجل منهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠ حتى يتعجبوا منه، وينكروا عليه ذلك ٠٠؟

لقد أوحينا إليه أن أنذر الناس الكفار ، وخوفهم من عذاب الله ، وبشر الذين آمنوا بالله ورسوله ، وعملوا الصالحات ٠٠ أن لهم قدم صدق منزلة رفيعة ، ومكانة عالية عند ربهم لإيمانهم وأعمالهم الحسنة .

وهذا أمر طيب ٠٠ لا يتعجب منه ، ولا يستحق الإنكار.

ولكن ٠٠

قال الكافرون جهلاً منهم وعناداً إن هذا لساحر مبين واضح سحره.

لاحظوا : أيها – القارئ الكريم – أن السورة بدأت بالحديث عن الوحى ، وستنتهى كذلك بالحديث عن الوحى ، فى قوله تعالى لحبيبه صلى الله عليه وسلم: { واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين } [يونس : ١٠٩].

* * *

{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ }

[الآية ٣]

فى هذه الآية الكريمة : يهدم ربنا عز وجل شبهة المنكرين للوحى المستبعدين له.

إن ربكم الله أى : مربيكم ومالككم هو الله ، الذى تستبعدون أن يوحى إلى رجل منكم ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

هو الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام كأيام هذه الدنيا ، أو كل يوم منها بألف سنة مما تعدون ، أو غير ذلك ·· علم ذلك عنده وحده سبحانه.

ثم استوى على العرش وهو أعظم المخلوقات جميعاً ، وهو مخلوق غيبى ، لا يعلم حقيقته إلا الله ·· واستوى عليه : استواءً يليق بذاته سبحانه ، من غير تحديد ولا تعيين.

ومن كانت السموات والأرض خلقه ، وهذا العرش سلطانه ·· كيف تستبعدون أن يوحى إلى رجل منكم بما فيه توجيهكم وأمركم ونهيكم ··؟

هو الله يدبر الأمر كله ·· أمر السموات والأرض ومن فيهن ، ويقضى ويقدر على مقتضى علمه وحكمته سبحانه .

ومن كان التدبير كله له ·· كيف تستبعدون أن يوحى إلى رجل منكم بما فيه صالحكم ونفعكم ··؟

هو الله ، الذى ما من شفيع يشفع لأحد عنده إلا من بعد إذنه وحده ، فى هذه الشفاعة .

ومن كانت الشفاعة عنده ليست إلا بإذنه على هذا النحو ·· كيف تستبعدون أن يوحى إلى رجل منكم ··؟

ذلكم الرب العظيم ، الموصوف بما سبق ذكره ·· هو الله ربكم فلا تستبعدوا أن يوحى إلى رجل منكم ··

وما دام الأمر كذلك ، وهو بالفعل كذلك فاعبدوه وحده ، ولا تشركوا معه غيره ، من إنسان ، أو ملك ، أو صنم ، أو غير ذلك.

وإذا كان هو المستحق وحده للعبادة ·· فكيف يكون ذلك معروفاً وثابتاً إلا بطريق الوحى إلى رجل منكم ··

وعليه : كيف تستبعدون الوحى إذاً ··؟

أفلا تذكرون فتعرفون ذلك، وتنتفعون به، فتؤمنون ··؟!!

* * *

هذا الإله ··

{ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ }

[الآية ٤]

يعنى : إليه وحده مرجعكم جميعاً يوم القيامة .

لاحظ ٠٠ أيها القارئ الكريم ٠٠

أن الله عز وجل : بعد أن أبطل شبهة المنكرين للوحى : دخل بهم إلى الحديث عن اليوم الآخر ، الذى يعود الخلائق كلهم فيه إلى الله تعالى كما بدأهم ؛ وذلك : ليجازيهم على ما قدموا فى دنياهم من خير أو شر.

وعد الله بهذه الإعادة للخلائق حقاً أى : وعداً جازماً لا يتخلف ، ولا يستبعد؛ حيث إنه سبحانه هو الذى يبدؤا الخلق ثم يعيده إليه.

وهذه الإعادة ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى يوم القيامة بالقسط بالعدل الذى يستحقون المعاملة به ، لأنهم ما كانوا يميلون عن هذا العدل ولا يحيدون فى الدنيا.

و أما الذين كفروا ولم يعدلوا فى دنياهم ، فــ لهم يوم القيامة شراب فى جهنم من حميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود [الحج : ٢٠] ، ولهم كذلك عذاب أليم متعدد الأنواع ، شديد الإيلام .

وكل هذا لهم بما كانوا يكفرون أى : بسبب كفرهم.

وإذا كان هذا فعله يوم القيامة بعباده ٠٠ فكيف تستبعدون الوحى إذن ٠٠؟

* * *

ثم يخبر ربنا تبارك وتعالى عما خلق من الآيات الكونية ، الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه ..!!

وذلك : ليزيل الشبهة فى الوحى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وينهى التعجب لدى المشركين من ذلك.

ثم : يحطم بالتالى عناد الكفار فى قبولهم لهذا القرآن ، الذى أوحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

حيث يقول :

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }

[الآية ٥]

أى : هو الله ، الذى يوحى إلى محمد ، هو الذى جعل الشمس ضياءً أى: ذات ضياء وشعاع ، و جعل القمر نوراً ذا نور .

لاحظ : الضياء أقوى من النور ، والضياء من الشمس ، والنور من الضياء ، أى أن : نور القمر من ضياء الشمس، أى : انعكاس لضياء الشمس ، وهذا ما توصل الإنسان إليه حديثاً ٠٠ وهى من الإعجاز العلمى للقرآن ، الذى أخبر بها قبل العصر الحديث بما يزيد على الألف عام .

وقدره منازل أى جعل للقمر منازل، يبدو صغيراً ، ثم يكبر ، ثم يعود صغيراً.

وذلك لتعلموا عدد السنين والحساب فتستفيدون بذلك فى أيامكم وأعمالكم وعباداتكم.

ما خلق الله ذلك الذى ذكره سبحانه إلا بالحق إلا لحكمة وغاية ومنفعة ، ولم يخلقها عبثاً ٠

وهو سبحانه يفصل الآيات الدالة على قدرته وعلى حكمته ، بهذا الشكل من التفصيل لقوم يعلمون فينتفعون .

* * *

ويقول سبحانه لإزالة شكهم فى الوحى ، وتحطيم عنادهم للقرآن كذلك :

{ إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ }
[الآية ٦]

يعنى : إن فى اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً باعتبار الأزمنة، أو بدءاً ونهاية باعتبار الأمكنة ، أو نوراً وظلمة باعتبار الإضاءة ، ·· إلخ .

إضافة إلى ما سبق ذكره من الآيات ··!!

كما أنه : فى ما خلق الله فى السموات من آيات ، خفية ، أو ظاهرة ، إضافة إلى ما سبق .

وثالثاً : فى ما خلق الله فى الأرض من الخلائق والعجائب ، وتذليلها للخلق ، إضافة إلى ما سبق .

إن فى كل ذلك لآيات دالة على قدرته ، وكمال ربوبيته ، ووحيه إلى رسله ، يسوقها لقوم يتقون الله ، فينتفعون بها ، وتزيدهم إيماناً على إيمانهم.

* * *

وبعد هذا ·· أيها الأخ الكريم ··

يبين الحكيم الخبير ·· سبب استبعاد الكفار للوحى ، ومن ثمَّ سبب كفرهم ، وعنادهم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعدم أخذهم للقرآن .

بقوله :

{ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ }
[الآية ٧]

يعنى : إن هؤلاء الذين يتصفون بهذه الصفات الثلاث :

الأولى : لا يرجون لقاءنا لا يؤمنون بالبعث ، لذا لا يتوقعون مجيئه.

الثانية : ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها أى : رضوا بمتاع الحياة الدنيا ، وجعلوا التمتع به منهى رضاهم ورجائهم .

الثالثة : والذين هم عن آياتنا الكثيرة ، الدالة على قدرتنا غافلون عن الاعتبار بها ، والإيمان بها ، والانتفاع بها.

هؤلاء : هم الذين يستبعدون الوحى ، ويعاندون النبى ، وينكرون أن القرآن من عند الله .

* * *

ولكن ..
ما جزاؤهم ..؟

{ أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ }
[الآية ٨]

وهذا هو العدل .. وما ربك بظلام للعبيد ، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

* * *

أيها القارئ .. توقف ..
هناك فريق آخر من الناس : لم يستبعد الوحى ، ولم يكفر بالله ، ولم يعاند محمداً، وعمل بالقرآن وما فيه.
يقول عنهم ربهم :

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ }
[الآية ٩]

أى : إن الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات التى يصلحون بها البلاد، ويسعدون بها العباد.
هؤلاء : يختلفون عن الفريق الأول اختلافاً كاملاً ..
حيث يهديهم ربهم يسدد طريقهم فى الدنيا للاستقامة ، ويوفقهم إلى سلوك الطريق المؤدى بهم إلى مرضاة ربهم.
ولكن ..
ما جزاؤهم ..؟
جزاؤهم .. أنهم تجرى من تحتهم أى : من تحت قصورهم ، الأنهار وهم فى جنات النعيم.

* * *

أيضاً ..

{ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآية ١٠]

دعواهم أى : دعاؤهم ، وتسبيحهم ، ونداؤهم ، فيها أى : فى الجنة .. هو سبحانك اللهم تلذذاً بذكره تعالى.

وكذلك تحيتهم لبعضهم البعض ، أو تحية الملائكة لهم ، أو تحية الله لهم فيها أى : فى الجنة .. هو قولهم سلام أى : سلامة من كل مكروه وأذى.

وثالثاً : آخر دعواهم يعنى : وخاتمة تسبيحهم ، ونهاية لقائهم ، فى كل مجلس .. هو قولهم الحمد لله رب العالمين.

الله ..!!

نعم الجزاء : جزاؤهم.

اللهم إنا نسألك أن تجعلنا من هؤلاء يا رب العالمين.

* * *

أيها الأخ الكريم.. انظر إلى حكمة البارى ولطفه بعباده .. حينما يقول :

{ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }
[الآية ١١]

والمعنى : أن الله تبارك وتعالى لا يستجيب للناس .. إذا دعوا على أنفسهم ، أو على أولادهم ، أو على أموالهم ، بالشر ؛ وذلك فى حالة غضبهم ؛ لأنه سبحانه يعلم أنهم لا يريدون ذلك ..

مثلما يستجيب لهم إذا دعوا بالخير.

ولو أنه عز وجل استجاب لهم ، وعجل لهم الشر الذى دعوا به ، كما يعجل لهم الخير إذا دعوا به لأهلكهم .

ولكنه تعالى يمهلهم رحمة بهم ولطفاً منه عليهم .

وفى الحديث الشريف لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم .. لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة ؛ فيستجيب لكم .

ومن هؤلاء الذين يمهلهم رب العزة ولا يهملهم : الكافرون.

حيث يقول فنذر أى : نترك الذين لا يرجون لقاءنا أى : الذين لا يؤمنون باليوم الآخر فى طغيانهم وتجاوزهم حدود الله ، يعمهون .. أليس قائلهم هو الذى يقول اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم [الأنفال : ٣٢] ..؟

* * *

وبعد أن بين المولى أنهم يستعجلون نزول العذاب ، وأنه لا يجيبهم لطفاً ورحمة بهم ٠٠!!
يبين بعد ذلك : أنهم كاذبون فيما يطلبونه ويدعون به ٠٠
حيث يقول :

{ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }
[الآية ١٢]

يعنى : إذا أصاب الإنسان أى ضرر ، أو وقع به أى مكروه : لجأ إلى الله تعالى، وصار يدعوه فى كل حالاته وأحواله، مضطجعاً ، أو قاعداً ، أو قائماً ٠٠ طالباً منه سبحانه إزالة الضرر ، ورفع المكروه .

يقول المولى : فلما كشفنا عنه ضره وأزلنا عنه المكروه : عاد إلى سابق عهده، كأن لم يمسسه ضر ، ولم يدعنا إلى رفع هذا الضر عنه .

هذا إنسان سيئ ٠٠ لم يعرف لله فضله ، ولم يشكره حق شكره ، زين له الشيطان فخدع ، ودعاه للطغيان فاستجاب .

وكذلك زين للمسرفين أى : زين الشيطان للمتجاوزين الحدود ، البعيدين عن طاعة الله ما كانوا يعملون من البعد عن الله ، والإعراض عن ذكره ، والاهتداء بهديه .

* * *

وهذه ليست طبيعة إنسان هذا العصر فقط .
بل هى طبيعة السابقين ٠٠ الذين أرسل الله الرسل لهدايتهم أيضاً.
يقول سبحانه :

{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ }[الآية ١٣]

أى : لقد أهلكنا القرون الأمم التى كانت من قبلكم .

وذلك لما ظلموا طغوا وبغوا وأشركوا بالله تعالى وجاءتهم رسلهم بالدلائل الواضحات، والآيات البينات للإيمان بالله والعدول عن ظلمهم وطغيانهم.

ومع ذلك ما كانوا ليؤمنوا أى : أصروا على الكفر والطغيان.

يعنى : لما ظلموا وأصروا على الكفر ، وصاروا بذلك مجرمين ٠٠ أهلكناهم .
ومثل هذا الإهلاك نجزى القوم المجرمين من أية أمة .

* * *

وأنتم يا أهل هذا العصر ٠٠ سائرون فى نفس الطريق فاحذروا ٠٠

{ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ }
[الآية ١٤]

يعنى : يا من بعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم جعلناكم خلائف فى الأرض أى : استخلفناكم فى هذه الأرض من بعد هذه القرون ، التى أهلكناها لتكذيبها .
وذلك لننظر وننتظر كيف تعملون فنجازيكم عليه ٠٠ إن كان خيراً فخير ، وإن كان شراً فشر .

* * *

ثم يخبرنا ربنا عز وجل عن كفار هذه الأمة ٠٠
فيقول :

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }
[الآية ١٥]

والمعنى : أن الكفار ٠٠ كانوا إذا قرأ النبى صلى الله عليه وسلم القرآن عليهم ؛ قال هؤلاء الذين لا يخافون البعث ؛ استهزاءً منه ، وسخرية به ائت بقرآن غير هذا ليس فيه عيب آلهتنا أو بدله وكأنه هو الذى ألفه من عند نفسه.
يقول تعالى لحبيبه : رُدَّ عليهم وقل ما يكون لى أن بدله من تلقاء نفسى لأنى لم أقم بتأليفه من عندى .
وأنا اتبع إلا ما يوحى إلي من غير تغيير ، أو تبديل لأن ما أتيت به ليس من صنعى .
إنى أخاف إن عصيت ربى بمحاولة فعل ما طلبتم ، وهو ليس بممكن عذاب يوم عظيم لا ينفع فيه مال ولا بنون .

* * *

أيضاً ٠٠ رد عليهم.

{ قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }
[الآية ١٦]

أى : قل لهؤلاء الذين يقولون لك ائت بقرآن غير هذا أو بدله لا أستطيع ؛ لأنه من عند الله وليس من عندى ، ولو شاء الله ما تلوته عليكم أصلاً ٠٠ ما تلوته ، لأنى أمى ، لم أتعلم من أحد ، ولم أشاهد العلماء ، كما أنى قد لبثت فيكم ومكثت بينكم عمراً تعرفوننى فيه جيداً من قبله أى : من قبل أن أتلوه عليكم ، وما جربتم علي كذباً قط .

إضافة إلى أن ما أتلوه عليكم من القرآن : قد حوى من المعجزات ما تعرفون، بل دعاكم ربى للإتيان بمثله، أو بمثل سورة منه فلم تستطيعوا.

أفلا تعقلون فتدركون أنه الحق من عند الله، فتؤمنون .

أفلا تعقلون فتدركون إذاً ٠٠ أننى لا أكذب على الله، فكيف تكذبون ٠٠؟

* * *

{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ }
[الآية ١٧]

يعنى : ليس هناك أظلم أشد ظلماً ، وأعتى إجراماً ممن افترى على الله الكذب أى : ادعى أن الله أرسله ، وهو ليس بذلك ، أو نسب إلى الله كلاماً ، وهو فيه كاذب أو كذب بآياته كذلك ٠٠ كمن كذب بالقرآن .

والمفترون على الله الكذب ، والمكذبون بآيات الله : مجرمون ، لا يفلحون ؛ حيث إنه لا يفلح المجرمون .

* * *

ومن جرائم الكافرين ، المكذبين بآيات الله ٠٠
ما يحكيه عنهم ربنا عز وجل بقوله :

{ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }
[الآية

أى : هؤلاء المكذبون يعبدون من دون الله يعنى غير الله مالا يضرهم لو لم يعبدوه ولا ينفعهم لو عبدوه ، وهى : الأصنام.

والعجيب أنهم يقولون هؤلاء الأصنام شفعاؤنا فى أمور الدنيا من طلب الغنى والصحة ، وغير ذلك عند الله وأما أمور الآخرة ٠٠ فهم لا يحتاجون شيئاً ؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث أصلاً .

يقول تعالى لحبيبه : رد عليهم قل لهم أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض وهو العليم بهما ، وما فيهما ، ومن فيهما ٠٠ كيف يكون هذا ؟

ثم نزه ربنا نفسه عما يدعون ٠٠ من الشركاء ، والشفعاء ، فقال سبحانه وتعالى عما يشركون .

* * *

وللعلم ٠٠

هذا الشرك لم يكن فى الناس قبلاً ، بل هو حادث فيهم ، جديد منهم ٠٠

إقرأ معى أيها المسلم الحبيب هذه الآية .

{ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }
[الآية ١٩]

والمعنى : أن الناس كلهم كانوا أمة واحدة على دين الإسلام ، ثم وقع بينهم الخلاف والاختلاف ، وصاروا بذلك مللاً ، فيهم أهل الحق ، وأهل الباطل ، فبعث الله الرسل بالآيات ٠٠ فآمن من آمن، وكذب من كذب .

ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير الحكم النهائى إلى يوم القيامة : لقضى بينهم فيما فيه يختلفون ووقع الهلاك العام بالمكذبين.

ولكن شاء الله بتأخير هذا الحكم : ليكون الثواب والعقاب وليعود الناس إلى ما كانوا عليه أمة واحدة .

ولذلك : لا ينبغى أن يغتر الكافر بعدم تعجيل العذاب .

كما لا ينبغى أيضاً أن يغتر العاصى بتأخير العقاب .

* * *

وإن شئت أن تعجب من هؤلاء المكذبين ، الذين يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم.

فاقرأ معى ما يقولون ٠٠

{ وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ }

أى : يقول هؤلاء تعنتاً لولا أنزل عليه أى : على محمد صلى الله عليه وسلم آية من ربه من الآيات التى اقترحوا نزولها كشرط للإيمان به ٠٠ والتى يحكيها عنهم ربنا فى قوله وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً [الإسراء : ٩٠-٩٣].

وهنا : يقول له ربه فقل لهم إنما الغيب لله أى : الأمر كله لله، ما غاب ولم يحدث، وكذلك ما حدث، فليس لى من الأمر شيء.

وإن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا هذه الآيات فانتظروا حكم الله إنى معكم من المنتظرين.

* * *

وبعد أن تخبر هؤلاء المعاندين ٠٠ بأن الغيب لله ٠٠

قل لهم أيضاً ٠٠ رداً على طلبهم الآيات :

{ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ }

[الآية ٢١]

يعنى : هؤلاء الكفار ٠٠ عادتهم العناد، والمكر، وعدم الإنصاف.

لقد سلطنا عليهم القحط ، ثم رحمناهم وأرسلنا المطر غيثاً لهم ؛ فنسبوا ذلك إلى الكواكب والأصنام ، ولم ينسبوها إلى الفاعل الحقيقى وهو الله .

ولو أنزلنا لهم من الآيات ما اقترحوا : لظلوا على كفرهم ، ولم يؤمنوا.

ولذلك قل لهم يا محمد الله أسرع مكراً أعجل بالعقوبة لكم من مكركم ، واستهزائكم بآيات الله .

وقل لهم أيضاً إن رسلنا أى: الحفظة يكتبون ما تمكرون لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة ٠٠ حتى ينتقم الله منكم.

* * *

هذا الإله الذى تطلبون منه أن ينزل الآيات ٠٠ وأنتم تمكرون ، وتعاندون٠٠

{ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ }
[الآية ٢٢]

أى : هو الله ، الذى يمكنكم من السير فى البر بأقدامكم، أو بداوبكم أو بمخترعاتكم، وفى البحر سباحة، أو بالسفن، والبوارج، وغير ذلك.

حتى إذا كنتم على سبيل المثال فى الفلك وهى السفن، وكانت تسير بكم فى أمان وسلام، وأنتم فرحون متمتعون.

وبينما هى وأنتم على هذا الحال جاءتها أى : هذه السفن ريح عاصف شديدة السرعة، عنيفة القوة، تدمر كل شيء فى طريقها وجاءهم الموج وعلا بهم موج البحر، بسبب هذه الريح العاصفة من كل مكان يعنى : من كل جهة فى البحر.

ووصل الحال أن من فيها ظنوا أى : تيقنوا وتأكدوا، أنهم أحيط بهم أى: هالكون لا محالة .

فى هذه الحالة ..

دعوا الله وحده ، ونسوا أصنامهم وآلهتهم ، التى كانوا يزعمونها مخلصين له الدين مخلصين فى الدعاء ، مجتهدين فيه ، قائلين لئن أنجيتنا يا رب من هذه المصيبة لنكونن لك من الشاكرين الموحدين ، العابدين ، لا نؤمن بغيرك، ولا نعبد سواك .

* * *

ثم ماذا ..؟

{ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }
[الآية ٢٣]

يعنى : فلما استجاب الله دعاءهم، وأنجاهم من الشدة التى كانوا فيها، والمصيبة التى حلت بهم ..

إذا هم بدلاً من أن يؤمنوا، وأن يشكروا يبغون فى الأرض أى يفسدون فيها، وينكرون نعمة الله عليهم بغير الحق ..!!

سبحان الله .. إن أمر الناس عجيب ..!!

يا أيها الناس الذين يحدث منكم ذلك : لا تبغوا فى الأرض ، وتفسدوا فيها، وتؤذوا أهلها إنما وبال بغيكم هذا وضرره على أنفسكم وحدكم لا غيركم.

يا أيها الناس إنما الذى يغركم ويفتنكم شيء تافه، وهو متاع الحياة الدنيا الزائل، الذى لا بقاء فيه .

نحن ننبهكم ثم إلينا مرجعكم بعد الموت فننبئكم بعد البعث بما كنتم تعملون ونجازيكم عليه .

* * *

يا أيها الناس ٠٠ لا تغتروا بالحياة الدنيا ٠٠

{ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }

[الآية ٢٤]

أى : مثل الحياة الدنيا ٠٠ فى تغيرها ، وتقلبها ، وسرعة زوالها ، وانخداع الناس بها ٠٠

كماء أنزلناه من السماء يعنى : السحاب فاختلط به أى : هذا الماء نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام فازدهرت الأرض وأينعت وأثمرت وأخذت زخرفها وازينت للناس بثمارها ومنتجاتها، وظن أهلها أنهم قادرون عليها باستغلالهم لها ، وإبداعهم فيها ، واختراعاتهم عليها ، وقدرتهم على التصرف فى أمورها ، واطمأنوا لذلك.

أتاها أمرنا إتلافا لثمارها ، وتخريبا لمنشآتها ، وتعذيبا لأهلها ليلاً أو نهاراً حسبما نشاء فجعلناها حصيداً ليس عليها شيء كأن لم تغن بالأمس يعنى : كأن لم تكن، ولم يكن فيها شيء ، ولم يكن عليها بشر ، منذ وقت قريب .

كذلك وهكذا نفصل الآيات القرآنية والدلائل الكونية على قدرة الله لقوم يتفكرون فيعتبرون ، وينتفعون بهذا المثل فى زوال الدنيا عن أهلها سريعاً، بعد تمكنهم منها، وثقتهم فيها .

ونسوا أن من طبيعتها : الهرب ممن طلب ، والطلب لمن هرب .

وعلى العاقل : أن يعرف الله ، وأن يعبد الله ، وأن يشكر لله .

* * *

خاصة ٠٠

{ وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }

[الآية ٢٥]

وهذا : ترغيب للناس فى الحياة الأخروية ، بعد ترهيبهم من الركون للحياة الدنيوية .

والمعنى : والله يدعو عباده إلى دار السلام وهى الجنة ، بطلب الإيمان منهم .

كما أنه سبحانه هو الذى يهدى من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم وهو الإسلام .

هدانا الله وإياكم جميعاً إلى دينه ، وسعادة العمل بتعاليمه ، وأنعم علينا بدخول جنته "دار السلام" .

* * *

{ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
[الآية ٢٦]

والمعنى : أن الذين أحسنوا فى الدنيا بالإيمان والعمل الصالح : لهم من ربهم الحسنى فى الدار الآخرة ، وهى التوبة الحسنة ؛ جزاء إحسانهم.

ولهم أيضاً زيادة على ذلك ؛ حيث يضاعف الله لهم ثواب أعمالهم ٠٠ بالحسنة : عشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى غير ذلك من صور الزيادة ٠٠ من القصور ، والحور العين ، وما أخفاه لهم من قرة أعين ، الذى هو أفضل من كل ذلك ٠٠ وهو النظر إلى وجهه الكريم .

وفى ذات الوقت لا يرهق وجوههم لا يغشاها قتر يعنى : سواد ولا ذلة كما يحدث لأهل النار من السواد والهوان والإهانة فى الباطن والظاهر.

أولئك الذين أحسنوا هم أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

* * *

هذا حال المؤمنين فى الآخرة ٠٠
وأما حال الكافرين فيها ٠٠ يقول عنهم ربنا عز وجل :

{ وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
[الآية ٢٧]

أى : أن الذين أساءوا فى الدنيا ، وكسبوا السيئات أى : اقترفوها ٠٠ لهم من ربهم عكس الذين أحسنوا فى الدنيا ؛ حيث يكون عقابهم جزاء سيئة بمثلها وهذا هو العدل الإلهى .

وفى ذات الوقت ترهقهم ذلة تعلو وجوههم ذلة ومهانة من معاصيهم التى ارتكبوها ، وخوفهم من العقاب عليها.

ما لهم ليس لهم من عقوبة الله هذه من عاصم يمنع عنهم ذلك، أو يحميهم منه .

ويصير سواد وجوههم فى الآخرة شديداً كأنما أغشيت غطيت وجوههم بهذا السواد الذى يكون قطعاً من الليل مظلماً أى : كقطع الليل الأسود المظلم.

أولئك الذين كسبوا السيئات، هم أصحاب النار هم فيها خالدون.

* * *

أيضاً ..

{ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ }
[الآية ٢٨]

يعنى : ويوم القيامة نحشرهم أى : المشركين وشركاءهم جميعاً الذين كانوا فى كل العصور ، وكل البيئات.
ثم نعقد مواجهة بين المشركين ومعبوداتهم من دون الله .
فـ نقول للذين أشركوا الزموا أنتم وشركاؤكم مكاناً قفوا فيه، ولا تغادرونه .
وبعد ..
فزيلنا فرقنا وميزنا بينهم المشركون على حدة ، وما كانوا يشركونهم على حدة .
وتنطق هذه المعبودات التى كانوا يشركونها مع الله ..
وقال شركاؤهم لهم تبرءوا منهم ما كنتم إيانا تعبدون بل كنتم للشياطين تطيعون، لأهوائكم تتبعون .

* * *

ثم تقول لهم كذلك :

{ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ }
[الآية ٢٩]

أى : نحن نستشهد على ما قلناه لكم ما كنتم إيانا تعبدون وكفى بالله شهيداً على ذلك بيننا وبينكم إذّ ما دعوناكم إلى عبادتكم لنا ، ولا أمرناكم بها.
كما أننا كنا عن عبادتكم لنا لغافلين لم نشعر بها ، ولم نعلم ، بل كنتم تعبدوننا دون أن ندرى .

* * *

{ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ }
[الآية ٣٠]

يعنى : هنالك أى : فى هذا اليوم ، وفى هذا المكان تبلو تذوق كل نفس أشركت بالله ، وعاندت رسله ٠٠ جزاء ما أسلفت وقدمت من كفر ومعصية .

و كذلك ردوا أى : أعيدوا إلى ربهم الحقيقى ، وهو الله سبحانه مولاهم الحق ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل .

و بذلك ضل عنهم وغاب نفع ما كانوا يفترون ويختلقونه من الآلهة، التى كانوا يعبدونها من دون الله .

* * *

يا محمد ٠٠

هؤلاء المشركون ، الذين ينكرون الوحى ، والذين قد حكينا لك عنهم بعض أحوالهم فيما سبق .

ناقشهم مباشرة ، وأبطل عللهم فى إنكار الوحى ، على النحو التالى :

{ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ }

[الآية ٣١]

يعنى : قل لهم من الذى يرزقكم من السماء بالمطر والأرض بالنبات ؟

بل من الذى يملك السمع والأبصار ويستطيع تسويتهما ، وحفظهما من الآفات مع كثرتها ، وسرعة تأثرهما من أدنى شيء ٠٠؟

وقل من الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى كالحيوان من التراب ، والتراب من الحيوان ، أو العالم من الجاهل والعكس ، أو المؤمن من الكافر والعكس ٠٠؟

و قل لهم بصفة عامة من الذى يدبر الأمر لهذه الخلائق كلها ، فيتولى أمورها، ويسير شئونها ٠٠؟

أتدرى بماذا يجيبون على أسئلتك هذه لهم ٠٠؟

فسيقولون الله هو الذى يرزقنا ، وهو الذى يملك أسماعنا وأبصارنا ، وهو الذى يخرج الحى من الميت والعكس ، وهو الذى يدبر أمر العالم كله ٠٠!!

وبهذا : يعترفون بوجود الله ، وقدرته .

فقل لهم إذاً : لم تنكرون الوحى ، وتستبعدون أن يرسل الله لكم رسولاً منكم ، يكون نذيراً وبشيراً .

أفلا تتقون الله وتخافون عقابه ، بسبب إنكاركم هذا ٠٠؟

* * *

قل لهم أيضاً :

{ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ }
[الآية ٣٢]

أى : فذلكم الإله ، الفعال لهذه الأشياء ، والذى اعترفتم ٠٠ بوجوده ، وقدرته عليها : هو الله الذى هو ربكم الحق الثابت ، وليست الأصنام التى تعبدونها ، وهو الذى يستحق وحده العبادة والطاعة ، التى لا تكون إلا بوحى ، وعن طريق رسول ٠٠ فكيف إذاً تنكرون ٠٠؟!!

وإلا فماذا بعد الحق والاعتراف به ، والإذعان له إلا الضلال ؟

فأنى تصرفون عن هذا الحق إلى هذا الضلال ، وعن الإيمان إلى الكفر ٠٠ مع قيام الأدلة والبراهين على هذا الحق ٠٠؟

* * *

أيها القارئ الكريم ٠٠
لاحظ : أنه بسب تعنت هؤلاء المشركين ٠٠ صرفهم الله عن الحق إلى الضلال .
لذلك يقول ربنا عز جل :

{ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ }
[الآية ٣٣]

يعنى : كما حقت على هؤلاء المشركين أنهم لا يؤمنون ، بسبب تعنتهم ٠٠ حقت هذه الكلمة أنهم لا يؤمنون على كل الذين فسقوا وخرجوا عن طاعة الله ، وأنكروا الوحى ، واستبعدوا إرسال الرسل .

* * *

وهذه حجة أخرى يا محمد ، ويا كل داعية إلى الله ٠٠
ناقشهم فيها ، وأفحمهم بها ، وأبطل عللهم .

{قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ }
[الآية ٣٤]

أى : قل لهم هل من شركائكم التى أشركتموها مع الله ، وعبدتموها من دون الله من يستطيع أن يبدأ الخلق كله ، من أول أمره ، وهو العدم ثم يعيده كما كان مرة أخرى ، أو يعيده يوم القيامة ٠٠؟
أتدرى ٠٠ بماذا يجيبوك ٠٠؟

لن يجيبوك .
إذاً ٠٠ قل لهم الله هو الذى يبدأ الخلق وحده ثم يعيده كما كان ، أو يعيده يوم القيامة .
ومن كان كذلك : ينبغى التسليم والإذعان له ، والإيمان به .
وإلا فأنى تؤفكون تصرفون عن الحق إلى الإفك ، وهو الكذب الواضح ، والضلال البين ٠٠؟

* * *

وهذه حجة – ثالثة – يا محمد ٠٠ ويا كل داعية إلى الله ٠٠
ناقشهم فيها ، وأفحمهم بها ، وأبطل عللهم معها .

{ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ }
[الآية ٣٥]

والمعنى : قل لهم هل من شركائكم من يهدى ويرشد إلى الحق وهو معرفة الصواب ، والهداية إليه ٠٠؟
الجواب : لا.
قل إذا الله هو الذى يهدى للحق .
وعلى هذا ٠٠
أفــ لا تعقلون أن من يهدى إلى الحق هو أحق أن يتبع ويطاع ، وليس العاجز الذى لا يَهْدِى إلا أن يهديه غيره ، أمن لا يَهدِّى إلا أن يهدى هو ٠٠؟
فما لكم كيف تحكمون هذه الأحكام الفاسدة ، وكيف تتبعون هذه الضلالات الواضحة ؟ وكيف تستبعدون الوحى ، وتنكرون إرسال الرسل ؟

* * *

إن عدم فهمهم ، وسوء حكمهم ، وفساد اعتقادهم : راجع إلى سوء ظنهم ٠٠
يقول تعالى :

{ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ }
[الآية ٣٦]

أى : أن الذى قادهم إلى ضلالهم : اتباعهم الظن والظن لا يغنى من الحق شيئاً حيث إنه أوهام وتخيلات تقود إلى فساد وضياع .

إن الله عليم بما يفعلون وسيجازيهم بالسوء عليه .

* * *

وإذا كان هؤلاء : يسيرون خلف ظنونهم ، ويتبعون أوهامهم ٠٠!!
فإن القرآن : ليس كذلك ؛ حيث إنه حقائق من رب العالمين ٠٠
كما أنه طريق خلاصهم من هذه الظنون والأوهام ٠٠
إقرأ معى أخى الحبيب ..

{ وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآية ٣٧]

يعنى : وما كان هذا القرآن ولا ينبغى ، ولا يعقل أن يفترى ويختلق ، حسب ظنونهم من دون الله تعالى أى : من غيره ، وينسب إليه زوراً ، كما يتهمون بذلك محمداً صلى الله عليه وسلم .
ولكن ليعلموا جيداً ..
أنه تصديق الذى بين يديه من الكتب المتقدمة عليه ؛ حيث يهيمن عليها ، ويبين ما وقع من التحريف والتبديل فيها .
كما أن فيه تفصيل الكتاب أى : بيان ما كتب وفرض من الشرائع والأحكام ، والحلال والحرام .
حقاً ٠٠ إنه كتاب لا ريب فيه أى : لا شك فيه ، وهو منزل من رب العالمين.
فكيف إذاً ينكرون الوحى ، ويستبعدون إرسال رسول يوحى إليه ٠٠؟!!
إنهم – بعد هذا كله – لا حجة لهم فى ذلك ، ولا دليل .

* * *

وإذا كان هؤلاء : ينكرون الوحى الإلهى كله ٠٠!!
فإن فريقاً آخر : ينكر ألوهية القرآن ، ويتهم محمداً صلى الله عليه وسلم ٠٠ أنه اختلقه من نفسه ، ونسبه افتراءً وكذباً إلى الله .
فلنقرأ سوياً قوله تعالى :

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية ٣٨]

أى : إن كنتم صادقين فى أن محمداً هو الذى ألف القرآن ‥ فأتوا أنتم – لتثبتوا صدقكم – بسورة مثله ، كما أتى هو به ‥؟

إنه منتهى التحدى ، بل منتهى إثبات عجزهم .

وللعلم :

فقد تحداهم الله أولاً ‥ أن يأتوا بمثل القرآن كله : فى قوله تعالى قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً [الإسراء : ٨٨] فعجزوا ‥!!

وتحداهم ثانياً ‥ أن يأتوا بمثل عشر سور منه : فى قوله تعالى قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات [هود : ١٣] فعجزوا ‥!!

وتحداهم ثالثاً ‥ أن يأتوا بمثل سورة واحدة فقط منه : كما فى هذه الآية ‥ فعجزوا ‥!!

وتحداهم أخيراً ‥ أن يأتوا بمجرد حديث مثله : فى قوله تعالى : فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين [الطور : ٣٤] فعجزوا ‥!!

* * *

ولكن ‥

هل موقفهم هذا من القرآن ‥ عن علم ودراسة له ولما فيه ‥؟

أبداً ‥ أبداً ‥

{ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٣٩]

أى : أن هؤلاء كذبوا بالقرآن دون معرفتهم لما فيه ، ولما يأتهم تأويله حتى قبل أن يدركوا روائعه وإعجازه ، بل إنهم – بعد ذلك – ظلوا مصرين على موقفهم من هذا التكذيب .

ومثل هذا التكذيب ‥ الذى لا يقوم على دليل كذب الذين من قبلهم رسلهم عناداً ، قبل معرفتهم للآيات التى معهم .

فانظر كيف كان عاقبة الظالمين المكذبين ؛ لتحذر من أن تكون نهايتك الهلاك والعذاب ، كما كانت نهايتهم .

* * *

هؤلاء المكذبون بالقرآن أصناف :

يقول تعالى :

{ وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ }
[الآية ٤٠]

يعنى : ومنهم أى : المعاندون ذلك ، المكذبون بالقرآن من يؤمن به فى المستقبل ويهديه الله بعد كفره .
ومنهم من لا يؤمن به أبداً ، ويظل على كفره ، وعناده وإفساده .
وربك أعلم بالمفسدين ينجيك منهم ، وينصرك عليهم ، ويجعل كيدهم فى نحورهم .

* * *

على كل حال ..

{ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ }
[الآية ٤١]

المعنى : وإن كذبوك واستمروا على ذلك : فقل لهم لى جزاء عملى ولكم جزاء عملكم .
كما أنكم أنتم بريئون مما أعمل لا علاقة لكم به وأنا برىء مما تعملون لا علاقة ولا صلة لى به .
وهذا – كما يقول العلماء – منسوخ بالأمر بقتال المشركين .

* * *

وهذا .. صنف آخر ..

{ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ }
[الآية ٤٢]

يعنى : ومنهم أى : المعاندون لك صنف آخر ، وهم من يستمعون إليك ولكنهم لا يؤمنون ، فهم : كالصم الذين لا يسمعون .
أفأنت قادر على أن تسمع الصم حتى ولو كانوا لا يعقلون أيضاً ..؟
ولذلك : لا تستبعد إذاً أن يعاندوا ويكفروا بالقرآن ..!!

* * *

وهذا ٠٠ صنف آخر منهم ٠٠
إقرأ معى :

{ وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ }
[الآية ٤٣]

أى : ومنهم أى المعاندون من ينظر إليك ويعاينون أدلة الصدق فى كلامك ، ويرون علامات النبوة فى بيانك ٠٠ ولكنهم لا يصدقون ٠!
كما ينظرون إلى سمتك الحسن ، ويبصرون خلقك العظيم ٠٠ ولكنهم لا يؤمنون ٠!
فهم إذاً كالعمى الذين لا يبصرون ٠٠!!
أفأنت قادر على أن تهدى العمى حتى ولو كانوا لا يبصرون أيضاً ٠٠؟
ولذلك : لا تستبعد إذاً أن يعاندوا ويكفروا بالقرآن ٠٠!!

* * *

على أية حال ٠٠
هؤلاء ظلموا أنفسهم ٠٠

{ إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }
[الآية ٤٤]

يعنى : إن الله لا يظلم الناس ويسلب منهم عقولهم ، وآليات استدلالهم على الحق ، ومعرفة الخير ، واتباعه.
ولكن الناس هى التى تعاند الحق ، وتتبع الهوى ، وتحرم أنفسها الخير ، والاهتداء والانتفاع به ، وبذلك ٠٠ فهم أنفسهم يظلمون .

* * *

هؤلاء استبعدوا الوحى ، وأنكروا الرسالة على محمد صلى الله عليه وسلم ، وكفروا بالقرآن ، وظلموا – بذلك – أنفسهم .
فماذا أعد الله لهم ٠٠؟
إقرأ معى بعض ما أعد الله لهم فى الآخرة .

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاءِ اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ }
[الآية ٤٥]

أى : يوم يحشر الله هؤلاء المكذبين ، فى يوم القيامة ، يكون الأمر كأن أى : كأنهم لم يلبثوا أى : يمكثوا ويقيموا فى الدنيا ، أو فى القبور إلا ساعة من النهار وذلك : لهول ما يرون يتعارفون بينهم لفترة وجيزة ، ثم ينقطع التعارف ، وتنقطع الروابط والأواصر .

يقول ربنا معلنا جزاءهم :

قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حيث إنهم كذبوا الوحى ، الذى كان يخبرهم عن يوم البعث هذا ، ويطالبهم بالاستعداد له ، وهذه هى الخسارة الحقيقة وما كانوا مهتدين فى سلوكهم وتصرفاتهم وعنادهم الذى ساقهم إلى هذه النهاية .

* * *

ثم يقول ربنا سبحانه لرسوله :

{ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ }
[الآية ٤٦]

والمعنى : هؤلاء سنعذبهم .. وإما نرينك فى الدنيا بعض هذا العذاب الذى نعدهم به ، أونتوفينك قبل أن ترى فى الدنيا عذابهم فإلينا مرجعهم ومنقلبهم فى الآخرة ، ونعذبهم .

ثم عليك أن تطمئن ، حيث إن الله شهيد على ما يفعلون فى حياتك وبعد مماتك ، وسيجازيهم عليه .

* * *

هكذا ..

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }
[الآية ٤٧]

أى : سنتنا .. أنه لكل أمة رسول يرسل إليها ؛ لينبههم إلى الحق ، ويدعوهم إلى توحيد الله ، وعبادته .

فإذا جاء رسولهم إليهم ، وبلغهم ، ودعاهم ، فكذبوه ، ولم يستجيبوا لدعوة الحق قضى بينه ، وبينهم فيما دعاهم إليه بالقسط وهو العدل ، فينجى الله الرسل والمؤمنين معهم ، ويعذب المكذبين وهم لا يظلمون بهذا التعذيب ؛ حيث إنهم أجرموا فى حق أنفسهم وغيرهم .

وهكذا ..

نفعل بمكذبى هذه الأمة أيضاً ..

* * *

العجيب ..

أن هؤلاء المكذبين .. بدلا من أن يسارعوا بالتصديق بالقرآن ، والإيمان بالله ، واتباع الرسول ، بعد معرفة العذاب الذى ينتظرهم .

بدلا من ذلك .. يسألون متشككين .

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }

[الآية ٤٨]

يعنى : يقولون للنبى والذين آمنوا معه .. استبعاداً ، أو استهزاءً : متى يكون هذا الوعد أى : العذاب إن كنتم صادقين فيما تقولون .؟!

* * *

ويأمر ربنا رسوله بهذا الأمر :

{ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ }

[الآية ٤٩]

أى : قل لهم ..

أولاً : أنا عبد لا أملك لنفسى شيئاً من أمرى إلا ما شاء الله أن يكون .

وثانياً : لكل أمة مكذبة أجل ووقت معلوم فى اللوح المحفوظ ، لعذابهم ، فإذا جاء أجلهم أى وقت عذابهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

ولذلك :

فلا تحاولوا معرفة وقته أو استعجال مجيئه ، بل استعدوا للنجاة منه ، بالإيمان والتصديق ، والعمل الصالح .

* * *

وأيضاً ٠٠

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ }
[الآية ٥٠]

يعنى : قل لهم أرأيتم يعنى : أخبرونى ٠٠ ماذا تريدون ٠٠؟ إن أتاكم من الله عذابه الذى تستعجلون بياتاً أو نهاراً ليلاً وأنتم نائمون ، أو نهاراً وأنتم تعملون .
ماذا يستعجل منه المجرمون إلا الندامة والحسرة على هذا الاستعجال ، والألم الشديد على ما يكون .

* * *

{ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ }
[الآية ٥١]

والمعنى : هل إذا ما وقع العذاب آمنتم به ٠٠؟
حتى ولو حدث ذلك : يقال لكم ٠٠ لا يقبل منكم الإيمان الآن خاصة وقد كنتم به أى العذاب تستعجلون استهزاءً وإنكاراً ٠٠!!

* * *

وعلى لسان ملائكة العذاب يوم القيامة ٠٠ يكون ما يحكيه الله تعالى ٠٠ بقوله :

{ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ }
[الآية ٥٢]

أى : ثم بعد هذا كله قيل للذين ظلموا بالكفر والتكذيب والاستهزاء ذوقوا عذاب الخلد أى : العذاب الدائم .
ويكون استفهام تقريرى ، يقال لهم فيه :
هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون أى : جزاء ما كنتم تفعلونه وتكتسبونه من شرك ، وكفر ، وعناد ، واستهزاء ٠٠؟

* * *

ثم – بعد ذلك – يكون منهم سؤال آخر ..
يحكيه المولى عز وجل بقوله :

{ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ }
[الآية ٥٣]

والمعنى : ويستنبئونك أى : يستخبرونك ويسألونك قائلين أحق هو أى : البعث والعذاب ٠٠؟
وإذا كانوا يسألون عبثاً واستهزاءً : فأجبهم أنت بكل جِدِّيَّةٍ .
قل ثلاثة أشياء ٠٠ هى :

أ- إى روبى نعم وربى ، وهو قسم لهم على وقوع البعث .
ب- إنه أى : البعث والعذاب ، الذى تسألون عنه لحق واقع بكم.
جـ- وما أنتم بمعجزين لله تعالى عن إعادتكم للبعث بعد موتكم .

يلاحظ : أن النبى صلى الله عليه وسلم ٠٠ لم يقسم – بأمر ربه – على وقوع البعث فى القرآن الكريم : إلا فى هذه الآية ، وآيتين أخريين ٠٠
هما:

{ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم } [سبأ : ٣].
و { زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن }[التغابن : ٧].

* * *

وبعد هذا القسَم : يبين الله لهؤلاء الكافرين ٠٠ هَوْل ما سيلاقونه فى يوم البعث الذى ينكرون ٠٠
فيقول :

{ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }
[الآية ٥٤]

يا سبحان الله ٠٠!!

لو أن لكل نفس ظالمة .. ما فى الدنيا كلها من الأموال والكنوز ، وكل شيء يوم القيامة : لافتدت به ، من سوء ما تجد من الأهوال ، وألوان العذاب .

وأسروا أى : الكفار الندامة والحسرة ، عجزاً منهم وخجلاً لما رأوا العذاب ونزل بهم .

و كذلك ٠٠ عندما قضى بينهم بالقسط وعوملوا بالعدل فى هذا اليوم ، ووجدوا أنهم لا يظلمون شيئاً .

ومن هنا ٠٠ فعلى كل عاقل أن يفتدى نفسه الآن : قبل أن لا ينفع الفداء .

* * *

وحقاً ٠٠

{ أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }
[الآيتان ٥٥ ، ٥٦]

هنا : يخبر سبحانه أنه مالك السموات والأرض ، وأن وعده حق واقع لا محالة ، وأنه يحيى ويميت ، وإليه مرجع الخلائق كلها ، وأنه وحده القادر على ذلك .

* * *

وبعد أن حذر الله عباده من عواقب الضلال ٠٠
يستميلهم إلى الخير والفلاح ٠٠ بما فى القرآن من موعظة وهداية ٠٠
فيقول :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ }
[الآية ٥٧]

يعنى : يا أيها الناس جميعاً قد جاءتكم موعظة من ربكم أى : القرآن ، فيه : ما لكم وما عليكم ، وفيه : بيان ما ينفع من الأعمال ، والترغيب فيها ، وبيان ما يضر من الأعمال ، والتحذير منها .

وهذا القرآن ، الذى يحتوى على الموعظة : فيه من الخصائص والمزايا الكثير .

فهو شفاء أى دواء وعلاج لما فى الصدور من الشكوك ، والوساوس ، والعقائد الفاسدة ، والشبه المهلكة .

وهو هدى لمن أراد الله له الهداية ، يهتدى بما فيه إلى الحق ، وإلى طريق الصواب ، ويبتعد بما فيه عن الغواية والضلال .

وهو رحمة للمؤمنين المصدقين به ، العاملين بتعاليمه وأحكامه ، رحمة لهم فى الدنيا وفى الآخرة .

* * *

وهذا هو فضل الله على عباده .

{ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }
[الآية ٥٨]

أى : قل لهم ..
الفرح الحقيقى .. الذى ينبغى أن يسعد به الإنسان .. هو :
فضل الله على عباده بالإسلام .
ورحمته لهم بالقرآن .
ومن هنا .. فبذلك الفضل ، وبهذه الرحمة : فليفرحوا بهذا الخير الذى منَّ الله عليهم به .
وهو أى : هذا الخير ، الذى منَّ الله به على عباده خير لهم وأفضل مما يجمعون من حطام الدنيا الزائل .

ويلاحظ : أن هذه الآية الكريمة : تصحح للناس فهمهم الخاطئ لمفهوم الفرح الحقيقى .

* * *

وهذا تصحيح لمفهوم آخر :

{ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ }
[الآية ٥٩]

وهذا : فى قضية التحليل والتحريم ، التى هى لله وحده.
يقول ربنا لحبيبه صلى الله عليه وسلم :
قل لهم مصححاً أرأيتم يعنى : أخبرونى ..

ما أنزل الله لكم وخلق من رزق وتدخلتم فيه بأهوائكم فجعلتم منه أشياء حراماً كالبحيرة والسائبة وقد أحلها الله ، وجعلتم منه أشياء حلالاً كالميتة ، وقد حرمها الله .

قل لهم : خبرونى بربكم آلله أذن لكم فيما فعلتموه من التحريم والتحليل ٠٠؟

أم أنكم على الله ودينه تفترون وتكذبون ٠٠؟

إنكم حقيقة تفترون على الله ودينه وشرعه وتكذبون ٠٠!!

* * *

قل لهم يا محمد ٠٠

{ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ }
[الآية ٦٠]

يعنى : هل يظن الذين يفترون على الله الكذب أن الله عز وجل لا يحاسبهم على ذلك يوم القيامة .

كلا ٠٠ وألف كلا ، بل سيحاسبهم ، وسينالون ما يستحقون على ذلك من عقاب .

ألا ٠٠ فليعلم الجميع ٠٠

أن الله تعالى لذو فضل على الناس حيث أحل لهم ما ينفعهم ، وحرم عليهم ما يضرهم .

ولكن أكثرهم لا يشكرون بالإقبال على الله ، والعمل بشرعه .

* * *

وبعد هذا التصحيح والتصويب لقضية التحليل والتحريم .

يبين ربنا عز وجل أنه الرقيب على كل أحوال عباده ٠٠

وهذا تنبيه منه سبحانه : بضرورة الالتزام .

حيث يقول :

{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ }
[الآية ٦١]

فى هذه الآية الكريمة : يخبر تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام ٠٠ أنه يعلم أحواله ، وأحوال أمته ، وأحوال الخلائق كلها ، فى كل لحظة ، وأنه لا يغيب عن علمه شيء صغر أو كبر .

ولذلك : فهو المستحق للإفراد بالعبودية ، والتقوى ، والخشية ، والتحليل والتحريم .

يقول : وما تكون فى أى عمل يا محمد ، أو أى : تلاوة ٠٠
كذلك : ما تعملون يا عباد الله من عمل ٠٠
إلا كنا عليكم شهودا لكم ومراقبين إذ تفيضون فيه حينما تعملونه .
كما أنه : ما يعزب لا يغيب عن ربك من شيء ولو مثقال ذرة مما خلق فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا وهو موجود ومثبت فى كتاب مبين وهو اللوح المحفوظ .

* * *

أيها الأخ الكريم ٠٠
الذى يدرك ذلك جيداً ، ويؤمن به : هم أولياء الله .

{ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }
[الآية ٦٢]

يعنى : هؤلاء الأولياء لا خوف عليهم فيما ينتظرونه من أمور الآخرة ولا هم يحزنون على شيء من أمور الدنيا .

* * *

ولكن ٠٠ من هم هؤلاء الأولياء ٠٠؟

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ }
[الآية ٦٣]

يعنى : هم الذين تحقق فيهم هذان الأمران .

الأول : أنهم آمنوا بكل ما يجب الإيمان والتصديق به .
الثانى : أنهم كانوا يتقون الله ، بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، وتطبيق شرعه .

ويفهم من هذا ٠٠ أنه لا ولاية لله إلا بهذا ، وليس ولي لله تعالى من كان على غير هذا .

* * *

ولكن أيضاً ‥ ما جزاء هؤلاء الأولياء ‥؟

{ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }
[الآية ٦٤]

أى : لهم عند الله ، ومن الله البشرى الحسنة.

وذلك :

فى الحياة الدنيا سواء أكانت هى الرؤيا الصالحة ، كما فى الحديث الشريف : هى الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو ترى له ‥ أم كانت بشرى الملائكة للمؤمن عند خروج روحه ، بالجنة والمغفرة ، كما فى قوله تعالى إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون [فصلت : ٣٠].

وفى الآخرة كذلك ‥ كما فى قوله تعالى لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون [الأنبياء : ١٠٣] .

هذه الوعود الطيبة : كلمات الله ، ولا تبديل لكلمات الله ولا تغيير.

كما أن ذلك المذكور هو الفوز العظيم .

* * *

هذا حال أولياء الله ، الذين تسر بهم يا محمد ، وتفرح لهم ‥

وأما حال أعداء الله ‥

{ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }
[الآية ٦٥]

يعنى : إذا كان الكفار ‥ يعتقدون فاسداً ، ويقولون باطلاً : فلا تأبه لهم ولا يحزنك قولهم.

ولكن ‥ استعن بالله ، وثق بنصره ، وتوكل عليه ، واعتز به ‥

حيث إن العزة والقوة ، والنصرة لله جميعاً أى كلها ، بجميع صورها ، وأنواعها ‥

وقد جعلها لرسوله وللمؤمنين: { ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ... } [المنافقون : ٨].

هو سبحانه السميع لأقوال عباده جميعاً العليم بأحوالهم كلها ؛ وسيجازيهم على الأقوال والأفعال بما يستحقون .

* * *

ولكن ..
ماذا يقول هؤلاء الكافرون ، ويحزن النبى صلى الله عليه وسلم ..؟
هذا ما يعالجه المولى من عقائدهم الفاسدة .. فيما يلى :

{ أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ }
[الآية ٦٦]

وهذه : عينة مما كان يحزن النبى صلى الله عليه السلام من أقوالهم .
وهى : قضية الشرك بالله ؛ حيث كانوا يدعون من دون الله شركاء لله.
والقرآن : يعالج هذه العقيدة الفاسدة بأمرين :

الأول : تقرير أن لله كل شيء ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض جميعاً ، فهو مالك الملك ، بما فى ذلك العابدون ، والمعبودون .
الثانى : بيان أن أصحاب هذه العقيدة .. يجرون خلف ظنونهم وأوهامهم الكاذبة إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون أى : يكذبون ، وتخدعهم ظنونهم .

* * *

ثم يبين ربنا دلائل قدرته وملكيته للكون وما فيه : بما يثبت عجز الذين يدعون أنهم من دون الله شركاء .
فيقول عز وجل :

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ }
[الآية ٦٧]

يعنى : هو الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ولا أحد غيره يفعل ذلك، أو يستطيعه .
إن فى ذلك الذى جعله لكم لآيات بينات واضحات لقوم يسمعون سماع تدبر وفهم ، فينتفعون به .

* * *

وهذا نموذج آخر ..
مما كان يقول الكافرون ، ويحزن النبى صلى الله عليه وسلم .

ويعالجه القرآن كذلك ..

{ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }
[الآية ٦٨]

أى : قالوا أى : هؤلاء الكافرون اتخذ الله ولداً حيث قال اليهود : عزير ابن الله، وقالت النصارى : المسيح بن الله ، وقالت العرب : الملائكة بنات الله .

يرد الله عليهم جميعاً ، ويبطل أقوالهم ، بقوله سبحانه منتهى الإيجاز ، والإعجاز .. أى : تنزه الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

والدليل على فساد قولهم :

أولاً : هو الغنى عن كل خلقه ، وعن اتخاذ الولد ، ودليل الغنى له وحده ما فى السموات وما فى الأرض .
ثانياً : ليس عندكم أيها الكفار من سلطان دليل بـــ صحة هذا الذى تدعون .
إذاً أنتم تقولون على الله ما لا تعلمون.

* * *

وعلى هذا ..

{ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ }
[الآية ٦٩]

أى : قل للذين يقولون اتخذ الله ولداً وأمثالهم : إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون لا يسعدون لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة .

* * *

عجيب ..!!
ولكنهم يسعدون بما نراهم فيه الآن ..
لا .. لا .. إن ما هم فيه : هو

{ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ }
[الآية ٧٠]

يعنى : ما هم فيه الآن متاع قليل فى الدنيا يتمتعون به مدة حياتهم القصيرة .
ثم إلينا مرجعهم بالموت .
ثم نذيقهم العذاب الشديد بعد الموت فى القبر ، وبعد البعث فى نار جهنم.
كل ذلك ٠٠ بسبب ما كانوا يكفرون به، وبما كانوا يفترونه من الكذب على الله .

* * *

أيها الأخ المسلم ٠٠
أيتها الأخت المسلمة ٠٠
ما زالت السورة وآياتها ٠٠ ترسخ قضية الوحى ، الذى أنكره المشركون ، وتعجبوا – كما ذكر فى أول السورة – أن يوحى إلى رجل منهم ، وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، لينذر ويبشر بالقرآن .
حيث تذكر نماذج من الرسل ، الذين أوحى إليهم قبل محمد .
ولذلك ٠٠
فلا داعى إذا لاستبعاد موضوع الوحى .
ومن ثم الإنكار على محمد أن يرسله الله إليهم .
حيث يقول تعالى :

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ }
[الآية ٧١]

واتل عليهم أى : عرفهم ، واقصص عليهم نبأ نوح عليه السلام ، حينما قال لقومه الذين دعاهم إلى توحيد الله ، وعبادته .
يا قوم إن كان كبر عليكم وشق ، وأصبح ثقيلاً مقامى بينكم ، وتذكيرى لكم بآيات الله الدالة على وجوده ، وتوحيده ، وضرورة عبادته ٠٠!!
فهذا واجبى ، وهذه رسالتى إليكم .
فاختاروا ما شئتم من الهدى ، أو الضلال .
وأما أنا فعلى الله توكلت وسأواصل إبلاغكم دون خوف منكم .
فأجمعوا أمركم أنتم وشركاءكم وافعلوا ما يحلو لكم .
ثم لا يكن أمركم عليكم غمة أى : مخفياً ، بل أظهروه لى ، وجاهرونى به ، كيف شئتم ، فأنا لا أخافكم .
ثم اقضوا إلى ونفذوه ولا تنظرون بإمهال ، أو تأخير .
وهذه : منتهى الثقة بالله ، والتوكل عليه .

* * *

ثم قال لهم أيضاً :

{ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ }
[الآية ٧٢]

يعنى : إن بقيتم على إعراضكم ، بعد الذى قلت لكم ، فلا خسارة على ؛ حيث إنى ما سألتكم من أجر تدفعونه لى ؛ ثمناً لهذا الإرشاد الذى أصنعه معكم.

ولكن : أجرى على الله ، وعنده وحده .

كما أنى أمرت أن أكون من المسلمين المنقادين لحكمه ، المستسلمين لأمره ، لا أخالف أمره ، ولا أخاف غيره .

* * *

ماذا حدث ٠٠ بعد أن قال لهم ذلك ٠٠؟

{ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ }
[الآية ٧٣]

لم يفكروا فيما قال لهم نوح عليه السلام ، وما دعاهم إليه ٠٠!!

بل كذبوه فوراً .

فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا [المؤمنون : ٢٧].

وصنع نوح عليه السلام السفينة ، وظل يدعوهم ٠٠

حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن [هود : ٤٠].

وركب نوح عليه السلام السفينة ، والذين آمنوا معه.

وجعلناهم خلائف .

ثم ماذا بعد ..

وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا .

فانظر أيها المخاطب فى كل عصر وكل مصر كيف كان عاقبة المنذرين المكذبين ، واعتبر بها ، ولا تعاند كما عاندوا ، ولا تخطئ كما أخطئوا ، ولا تكفر كما كفروا .

* * *

أيضاً ..

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ }
[الآية ٧٤]

يقول تعالى : ثم بعثنا من بعده نوح عليه السلام رسلاً آخرين إلى قومهم ، يدعونهم إلى التوحيد ، وإلى عبادة الله .

فجاءوهم بالبينات والدلائل على صدقهم فى دعوتهم.

فما كانوا ليؤمنوا بهؤلاء الرسل ، ولا بدعواتهم ؛ حيث كذبوا بما كذبوا به الرسل، الذين أرسلوا من قبل.

وكذلك الطبع والختم على القلوب التى تكذب نطبع على قلوب المعتدين المتجاوزين للحدود المعهودة فى الكفر والعناد ، المتجافين عن قبول الحق ، وسلوك طريق الرشاد .

* * *

أيضاً ..

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ }
[الآية ٧٥]

والمعنى : ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وملئه لدعوتهم إلى عبادة الله وحده .

فاستكبروا عن قبول الحق، وإجابة الدعوة .

وكانوا قوماً مجرمين فى موقفهم مع موسى ، ودعوته ، وآياته.

* * *

ولكن .. كيف كان ذلك ..؟

يقول تعالى :

{ فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَـذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ }
[الآية ٧٦]

يعنى : فلما جاءهم الحق من عندنا مع موسى وهارون ، وهى دعوتهم إلى عبادة الله ، المؤيَّدة بالدليل ، وهى الآيات التسع ‥ العصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم.

قالوا إن هذا الذى جاء به موسى لسحر مبين.

وهذه : هى عادة أهل الإجرام ‥ يحاربون الدعاة إلى الله ، ويسفهون عقولهم ، ويكذبون أقوالهم ، ويؤكدون ذلك .

* * *

فهل رد عليهم موسى عليه السلام ‥؟

نعم ‥

ماذا قال ؟

{ قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَـذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ }
[الآية ٧٧]

والمعنى : قال لهم موسى : ثلاث جمل ، فى منتهى الإيجاز ، والبلاغة.

الأولى : أتقولون للحق لما جاءكم فوراً ، وبدون تدبر فيه ، ولا دراسة وتعقل له ‥ ولذلك : فما تقولونه فاسد .

الثانية : أسحر هذا وما كان ينبغى لكم أن تقولوا ذلك على آيات الله.

الثالثة : ولا يفلح الساحرون وأنا لست بساحر ، بل أنا رسول رب العالمين ، فالفلاح من نصيبى ، والخسران نصيب المكذبين .

* * *

فهل فهموا كلامه عليه السلام ‥ وآمنوا ‥؟

أبداً والله ‥

بل استمروا فى عنادهم ‥ حيث

{ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ }
[الآية ٧٨]

سبحانه الله ٠٠!!

ردوا على موسى عليه السلام بجمل ثلاث ، هربوا بها من نقاشه الجاد ، وكلامه الواضح .

حيث قالوا :

أولاً : أجئتنا لتلفتنا أى : تصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا من دين كانوا عليه، واتبعناهم فيه ٠٠؟

ثانياً : وتريد يا موسى بدعوتك التى جئت بها ، أن تكون لكما أنت وأخوك الكبرياء والعز والسلطان فى الأرض وهى أرض مصر ، وتنزع منا الحكم فيها وفى أهلها .

ثالثاً : قرارنا النهائى وما نحن لك بمؤمنين بمصدقين لدعوتك ، ولا متبعين لرسالتك ؛ لأنك لا تريد من كل هذا ٠٠ إلا السلطان والملك الذى نحن فيه.

* * *

وأتبعوا هذا الرد القولى بالرد العملى الآتى ٠٠

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ }
[الآية ٧٩]

أى : قال فرعون لحاشيته اجمعوا السحرة من كل أنحاء البلاد، وائتونى منهم بكل ساحر ماهر بفنون السحر عليم بدقائقه ، ليهزم موسى ، ويبطل سحره .

* * *

وفعلاً ٠٠ قام أتباعه ، وجمعوا السحرة ٠٠

{ فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ }
[الآية ٨٠]

يعنى : جاء السحرة ، وعلموا الموضوع ، واتفقوا مع فرعون قائلين إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين [الأعراف : ١١٣].

ووعدهم فرعون بكل ما طلبوا ، بل قال وإنكم لمن المقربين [الأعراف : ١١٤] حينما تغلبون.
وبدأت المواجهة بين السحرة وموسى عليه السلام.
وقالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين
[الأعراف : ١١٥] .
وهنا ٠٠ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون من سحركم .

* * *

وبعد ٠٠

{ فَلَمَّا أَلْقَوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ }
[الآية ٨١]

لما قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون : فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون [الشعراء : ٤٤].
فلما ألقوا بهذا الشكل حبالهم وعصيهم ٠٠
قال موسى لهم ما جئتم به هو السحر ٠٠
إن الله سيبطله لأنه فساد إن الله لا يصلح عمل المفسدين.
فألقى موسى على الفور عصاه فإذا هى آية من عند الله تلقف ما يأفكون [الشعراء : ٤٥] وليست سحراً .
وهنا ٠٠ ألقى السحرة ساجدين* قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون [الشعراء : ٤٦-٤٨].

* * *

هكذا ٠٠

{ وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ }
[الآية ٨٢]

يعنى : ويظهر الله الحق بأوامره وأحكامه ، وفى مواعيده ، وعلى أيدى رسله .
حتى ولو كره المجرمون فى كل العصور ، وفى كل البيئات ٠٠ ذلك، كما كان يكرهه فرعون .

* * *

ولكن ٠٠ هنا سؤال هام ٠٠
هل آمن مع هؤلاء السحرة لموسى غيرهم ٠٠؟
اقرأ الجواب على ذلك من المولى ٠٠ حيث يقول :

{ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ }
[الآية ٨٣]

سبحان الله ٠٠

بالرغم من هذه الآيات البينات، التى جاء بها موسى ، والتى آمن بسببها السحرة الماهرون، فى يوم العيد ، وأمام الجموع الحاشدة .

فــ إنه ما آمن لموسى بالله تعالى ، مع هؤلاء السحرة ، الذين آمنوا إلا ذرية طائفة من شباب قومه المصريين ، المتحمسين.

وكانوا فى إيمانهم هذا على خوف من فرعون بسبب بطشه وجبروته وظلمه ، وخوف كذلك من ملئهم وأجهزة استخباراتهم ، أن يكتشفوا أمرهم ، فيؤدى بهم ذلك أن يفتنهم ويعذبهم ، فرعون وزبانيته.

خاصة ٠٠ وإن فرعون لعال فى الأرض ظالم لأهلها ، وإنه لمن المسرفين فى طغيانه ، حيث يقول لأهل البلاد أنا ربكم الأعلى [النازعات : ٢٤] .

* * *

ولهذا ٠٠ يقول رب العزة :

{ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ }
[الآية ٨٤]

يعنى : وقال موسى للخائفين من أتباعه الذين آمنوا معه يا قوم إن كنتم آمنتم بالله ووثقتم فى نصرته ٠٠
فعليه توكلوا إذّ بدون التوكل على الله ، والاعتماد عليه ، وتفويض الأمر إليه ٠٠ لا يستطيع فرد ، ولا جماعة ولا أمة : أن تحقق هدفاً يفرضه الله ، أو تتخلص من ظلم ظالم .
أى : عليه توكلوا إذاً : إن كنتم مسلمين وفوضوا أمركم إليه .

* * *

ماذا فعل الذين آمنوا مع موسى حينما أمرهم بذلك ٠٠؟
يقول تبارك وتعالى :

{ فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٨٥]

أى : استجابوا لموسى فوراً ، وفوضوا أمرهم إلى الله ، وتوكلوا عليه.
ثم توجهوا لله داعين قائلين :
أولاً : ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين أى : لا تنصرهم علينا ، فيكون فى ذلك فتنة لهم ؛ حيث يظنون بذلك أنهم على الحق ونحن على الباطل.

* * *

ثم دعوا دعوة أخرى ٠٠
حيث قالوا :

{ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }
[الآية ٨٦]

يعنى : وخلصنا واكتب لنا النجاة برحمتك لنا وإحسانك بنا ، من القوم الكافرين الذين كفروا بالحق ، وبغوا على أهله .
وهكذا : سألوا الله العافية والنجاة.

* * *

وبعد هذا التوجيه – فى هذه المحنة القاسية – من موسى لقومه ٠٠
يكون التوجيه الإلهى – للوصول للخلاص النهائى من هذه المحنة – لموسى وأخيه ٠٠ من الله تعالى .
حيث يقول تبارك وتعالى ٠٠

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآية ٨٧]

نعم ..

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه ، عليهما السلام ، وأرشدهما إلى الطريق العملى ، الذى ينبغى اتباعه فى هذه الظروف القهرية الاضطرارية .

وهى أن تبوءا اتخذا لقومكما المؤمنين بمصر بيوتاً تقيمون فيها ، حتى يألفكم الناس ، وتألفونهم ، ويعرفون عن قرب دعوتكم .

واجعلوا بيوتكم هذه قبلة للمؤمنين ، يجتمعون فيها ، ويتشاورون فى أمورهم ، ويدرسون دينهم ، ويعبدون فيها ربهم ، خاصة : وأن العيون ترصدكم ، والطاغوت يحول بين لقاءاتكم ، ويمنعكم من عبادة ربكم .

وأقيموا الصلاة على كل حال ، وفى أى مكان ، وأتموها ، ولا تتهاونوا فى أدائها ، واستعينوا بها على ما أنتم فيه .

وبشر المؤمنين الذين معك يا موسى بالنصر فى الدنيا ، والجنة فى يوم القيامة .

* * *

ويبدو أن موسى عليه السلام أدرك مما أوحى إليه : أنه والمؤمنون معه ..مقدمون على مرحلة من الجهاد طويلة ..

ولذلك استعان على عدوه بالدعاء:

{ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ }

[الآية ٨٨]

توجه موسى إلى ربه لما تأكد من عناد فرعون ، واستمراره فى طغيانه ، وقال : يا رب .. لقد آتيت فرعون وملأه من أهل الباطل زينة بهيجة وأموالاً كثيرة فى هذه الحياة الدنيا ..!!

ربنا لقد آتيتهم ذلك .. فكان وسيلتهم للطغيان ، والفساد ، وليضلوا عن سبيلك الحق ، ودينك القويم ، فلا يتبعوه .

وما دامت النعمة قد أضلتهم وأطغتهم ، ولم يؤمنوا ..!!

فاشدد يا رب وطأتك عليهم .

ربنا اطمس على أموالهم أهلكها واشدد على قلوبهم أغلقها برباط قوى متين فلا يؤمنوا حتى يروا بأنفسهم العذاب الأليم الذى تنزله عليهم فى الدنيا ، بسبب كفرهم وطغيانهم .

* * *

وأجاب الله موسى عليه السلام الذى كان يدعو ، وهارون عليه السلام ، الذى كان يؤمن على دعاء أخيه .

{ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ }
[الآية ٨٩]

يعنى : قد أجيبت دعوتكما كما طلبتما فاستقيما على الرسالة والدعوة إلى الله ولا تتبعان فى استعجال إجابة الدعوة سبيل الذين لا يعلمون حكمة الله فى تأخير تحقيق المطلوب.

وقد تحققت الدعوة كما طلبا.

فمسحت – كما قال الرواة – أموالهم، وهلكت .

وربط الله على قلب فرعون فمكث أربعين ٠٠ فلم يؤمن حتى أدركه الغرق ، ورأى العذاب فى الدنيا بعينى رأسه ، ومع ذلك لم ينفعه إيمانه .

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

هود

بسم الله الرحمن الرحيم

{ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ }
[الآية ١]

هذه أيها المسلمون الكرام سورة هود، التى قال عنها النبى صلى الله عليه وسلم شيبتنى هود ، وهى سورة مكية، نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة النبوية.

ومعنى الآية الأولى منها ٠٠ ما يلى :

الر سبق الحديث عن الحروف المقطعة فى صدر سورة البقرة .

كتاب وهو القرآن، قد أحكمت آياته بعجيب النظم، وبديع وبليغ المعانى.

ثم فصلت أحسن تفصيل، وتم بيان ما فيها من الأحكام والقصص والمواعظ من لدن حكيم خبير وهو الله سبحانه وتعالى.

* * *

وكان ذلك الإحكام، وهذا التفصيل لهذه الآيات ٠٠!!
لما فى قوله تعالى :

{ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ }
[الآية ٢]

يعنى : حتى لا تعبدوا إلا الله وحده، إننى مرسل لكم منه سبحانه نذير بالعذاب إن كفرتم وبشير بالثواب إن آمنتم.

* * *

وكان ذلك الإحكام، وهذا التفصيل لهذه الآيات أيضاً ٠٠
لما فى قوله تعالى :

{وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ

كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾
[الآية ٣]

يعنى : حتى تستغفروا ربكم من جميع ألوان الشرك بالله، ثم تتوبوا إليه، وتعودوا إلى الطاعة .

فإذا فعلتم ذلك ..

يمتعكم ربكم فى الدنيا متاعاً حسناً بطيب عيش، وسعة رزق، وسلامة عافية إلى أجل مسمى محدد الوقت وهى الموت.

ويؤت كذلك كل ذى فضل وحسن أداء فى العبادة فضله أى : جزاءه الحسن.

وإن تولوا وأعرضوا عن العبادة، والاستغفار، والتوبة ٠٠ بعد هذا الإحكام والتفصيل لآيات القرآن : قل لهم ٠٠

فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير وهو يوم القيامة.

* * *

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
[الآية ٤]

خاصة وأنه إلى الله مرجعكم فى هذا اليوم، الذى لا مفر لكم منه.

كذلك وهو على كل شيء قدير بما فى ذلك إعادتكم وإثابة المطيع بحسن الجزاء، وعقاب العاصى بسوء المصير.

وبهذا تبين أيها القارئ الكريم : أن الإحكام والتفصيل ٠٠ إنما كان لتحقيق مقاصد القرآن، وهى : العبادة، والاستغفار، والتبشير والإنذار.

* * *

ثم يبين ربنا عز وجل أنه يعلم ما فى صدور أعداء الدعوة، الذين يتولون ويعرضون عن عبادة الله وحده، وعن الاستغفار، وعن التوبة.

حيث يقول :

﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾
[الآية ٥]

والمعنى : ألا إنهم يثنون صدورهم يخفون ما فيها من العداوة ويتظاهرون بغير ذلك ليستخفوا منه سبحانه .. يخفون علينا ..!!

أبداً .. أبداً ..

ألا إنهم حين يستغشون ثيابهم يتغطون بها للاستخفاء يعلم عز وجل ما يسرون فى قلوبهم وما يعلنون بأفواههم.

وبذلك .. لا يغنيهم منا، ولا يخفيهم عنا استخفاؤهم.

إنه سبحانه عليم بذات الصدور أى : القلوب، وما فيها.

*** * * بدأ هذا الجزء من القرآن الكريم .. ببيان كون الله تعالى عالماً بكل شيء، قادراً على كل شيء : وذلك لتقرير وحدانيته سبحانه.**

{وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ }
[الآية ٦]

ومعنى الآية : وما من دابة تدب وتسير فى الأرض إلا على الله أى : من الله تفضلاً، لا وجوباً رزقها الذى تعيش به.

كما أنه عز وجل يعلم مستقرها مسكنها فى الدنيا، أو فى الأصلاب ومستودعها بعد الموت، أو فى الرحم.

كل ذلك، وغيره، مع جميع أحواله فى كتاب مبين واضح، وهو اللوح المحفوظ.

* * *

ثم يقول سبحانه وتعالى :

{هُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ }
[الآية ٧]

أى : وهو الله الذى خلق السموات والأرض وما فى الأرض فى ستة أيام كأيام هذه الدنيا .. أو كل يوم منها بألف سنة مما تعدون أو غير ذلك .. علم ذلك عنده وحده سبحانه.

وكان ذلك الخلق فى ستة أيام : لتعليم خلقه التأنى.

وكان عرشه قبل خلق ذلك على الماء .

وكان هذا الخلق للسموات والأرض، وما فيهما ليبلوكم ويختبركم أيكم أحسن عملاً أطوع لله، وأكثر شكراً لنعمه.

هذا ..

ولئن قلت للمشركين إنكم مبعوثون من بعد الموت ومحاسبون على ما قدمتم من خير أو شر .. .

ليقولن الذين كفروا لك إن هذا أى : ما هذا الذى تقول أو الذى جاء به القرآن إلا سحر مبين واضح، تمنع به الناس عن التمتع بلذات الدنيا، وتصرفهم به إلى البطلان والخداع.

* * *

وهذا : كلام الكافرين ..!!

الذين لا تزيدهم النعم، والإمهال إلا عتواً وعناداً.

يقول الحكيم الخبير :

{وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ }

[الآية ٨]

يعنى : هؤلاء الكفار .. لو أخرنا عنهم العذاب الذى يستحقونه إلى أمة طائفة من الزمن معدودة ومحسوبة ..

ليقولن استهزاءً واستنكاراً ما الذى يحبسه ويؤخره ويمنعه من النزول بنا .. إلا لأنه ليس حقيقة، ولا يوجد بعث، ولا حساب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار؟!!

ألا إنه يوم يأتيهم هذا العذاب : فإنه أبداً ليس مصروفاً عنهم ولا ممنوعاً.

وساعتها : يكون قد حاق بهم ونزل ما كانوا به يستهزئون من العذاب، لا ندم يفيدهم، ولا مغيث ينقذهم.

* * *

ثم يخبر ربنا سبحانه عن الطبيعة البشرية لهذا الكافر المعاند فى موقفها من الشدة والرخاء.

فيقول :

{وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ }

[الآية ٩]

أى : إذا أنعمنا على هذا الكافر، وأذقناه منا رحمة من : صحة، أو غنى، أو جاه ثم نزعنا منه وسلبناها عنه.

إنه يكون بسبب ذلك ليئوس قنوط مقطوع الرجاء من أن تعود إليه هذه النعمة بل كفور بنعم الله كلها.

* * *

هكذا ٠٠

{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ }
[الآية ١٠]

أى : إذا أنعمنا عليه، وأذقناه نعماء من صحة، أو غنى، أو جاه، أو غير ذلك بعد هذه المصيبة، والضراء، التى نزلت به :

ليقولن غروراً، ونسيانا لرحمة الله به ذهب السيئات عنى بجهدى، وعقلى، ولن ينالنى بعدها سوء.

إنه بسبب ذلك النسيان لفضل الله، وبسبب طبيعته الجاحدة لشكر الله لفرح بهذه النعماء فخور على الناس.

* * *

وهذه هى طبيعة الجاحد.

وأما المؤمن ٠٠ المتصف بالصبر والعمل الصالح ٠٠

فيقول عنه ربه :

{إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَـئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ }
[الآية ١١]

يعنى : وليس هكذا ٠٠ المؤمنون الذين صبروا فى الشدة والمحنة، وكل ابتلاء وعملوا الصالحات فى جميع أحوالهم ٠٠ فى السراء، وفى الضراء.

حيث إنهم فى المحن، ليسوا يئوسين من رحمة الله، وليسوا كفورين بنعمه تعالى.

كما أنهم بعد زوال المحن : ليسوا فرحين بطراً، ولا فخورين غروراً.

ولهذا ٠٠ فقد منَّ الله عليهم عظيم العطاء.

حين يقول :

أولئك لهم مغفرة لذنوبهم مهما عظمت، وأجر كبير من النعيم المقيم، والأمن من عذاب الله، والنظر فى الجنة إلى وجهه الكريم.

* * *

ثم يثبت الله تعالى رسوله ويؤازره فى دعوته ٠٠ أمام هذه الطبيعة العنيدة للمشركين، والتى كشف لنا بعضاً من صفاتها، فى الآيات السابقة.
يقول سبحانه :

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾
[الآية ١٢]

أى : فلعلك يا محمد، بسبب طبيعتهم هذه تارك تبليغ بعض ما يوحى إليك إليهم، مخافة ردهم لك، واستهزائهم بك ٠٠
ولعلك ضائق به أى : بتلاوته عليهم صدرك.
وذلك الترك، والضيق : مخافة أن يقولوا متعنتين لولا أنزل عليه كنز لتكون غنياً، وننفقه معك أو جاء معه ملك من الملائكة؛ لنصدقه.
يا محمد ٠٠ لا تهتم بكلامهم هذا، وبلغ كل ما أوحى إليك، ولا يضيق به صدرك ٠٠
فلست عليهم بوكيل، ولا عن مواقفهم بمحاسب إنما أنت نذير فأنذرهم، ولا تخش شيئاً، ولا تُخْفِ شيئاً، ولا عليك الإتيان بما طلبوا واقترحوا.
والله على كل شيء وكيل حفيظ ٠٠ يجازيهم بما يستحقون، فتوكل عليه، ووكل أمرك كله إليه.

* * *

يا محمد ٠٠ ماذا يقولون لك ٠٠؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾
[الآية ١٣]

يعنى : هل يقولون : افترى محمد القرآن، واختلفه من عند نفسه ٠٠؟
قل لهم إن كنت قد افتريته أنا ٠٠ فأنتم أرباب الفصاحة، فأتوا إذن بعشر سور مثله من عندكم مفتريات من صنعكم، وادعوا معكم لتحقيق هذا الغرض من استطعتم من دون الله وافعلوا إن كنتم صادقين فى أننى افتريته من عندى.
قل لهؤلاء الكافرين : سأمهلكم ما شئتم.
يا محمد ٠٠ وأمهلهم ما شاءوا لتحقيق هذا الغرض ٠٠

* * *

{فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ}
[الآية ١٤]

أى : فإن لم تستطيعوا أنتم ولا من تدعونهم من دون الله أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فاعلموا إذن أنما أنزل هذا القرآن بعلم الله ومن عند الله.

وبالتالى ٠٠ فاعلموا أن لا إله إلا هو سبحانه ٠٠

فهل أنتم بعد هذا كله مسلمون ، ومنقادون لله تعالى، ومتبعون لشرعه ٠٠؟

لعل وعسى أن يكون ٠٠!!

* * *

أيها القارئ الكريم ..

انتبه جيداً معى ولاحظ : أنه إذا كان المانع للناس من اتباع القرآن، ومن عبادة الله، والاستعداد للآخرة ٠٠ هى الدنيا.

فإنه تبارك وتعالى يقول :

{مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ }
[الآية ١٥]

معنى الآية : من كان يريد امتلاك الحياة الدنيا والتمتع بزينتها ويعمل لذلك ويجتهد فيه ٠٠!!

نوف إليهم أعمالهم أى : نحقق لهم ما يريدون فيها أى فى الدنيا وهم فيها أى : فى أعمالهم لا يبخسون لا ينقصون؛ لأننا لا نضيع أجر من أحسن عملاً.

وهذا : قد عمل للدنيا فقط، واجتهد فيها، وأخلص لها.

وليس له غير ذلك.

* * *

وأما فى الآخرة ..

فيقول عنهم ربهم :

{أُولَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }
[الآية ١٦]

يا ألله ٠٠!!
ليس لهم فى الآخرة إلا النار ٠٠ نعم : لأنهم ما عملوا فى الدنيا لمرضاة الله، وإصلاح البلاد، وإسعاد العباد ٠٠
ولكنهم أرادوا ٠٠ فقط : التمتع بزينة الحياة الدنيا، واللهو فيها، والعبث بها.
ولذلك :
حبط ضاع ما صنعوا فيها لأنه بلا ثواب، ولا نتيجة.
ومن هنا : فـــ باطل ما كانوا يعملون.
ألا ٠٠ فلينتبه الغافلون ٠٠!!

* * *

هذا حال من أراد بعمله الحياة الدنيا وزينتها ٠٠!!
فما حال من أراد بعمله ٠٠ وجه الله، والدار الآخرة ٠٠؟
وهل يستويان ٠٠؟
يقول تعالى :

{أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ١٧]

يقول تعالى : لا يستوى أبداً من عمل للدنيا فقط؛ لأنه بغير هدى من الله، ومن عمل للآخرة؛ لأنه على بينة وبرهان بأن دين الإسلام هو الحق والهدى من ربه.
كما أن هذا البرهان والدليل على أن الإسلام حق ٠٠ يتلوه، ويعززه شاهد منه أى : جاءه بذلك شاهد من الله، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعه القرآن الكريم.
ومن قبله أى القرآن – كذلك – كان كتاب موسى عليه السلام إماماً قدوة للناس ورحمة.
أولئك الذين يعملون للآخرة يؤمنون به أى : بالقرآن.
ولذلك : فلهم الجنة.
وأما من يكفر به من الأحزاب أتباع الملل كلها فالنار موعده ومصيره.
فلا تك أيها العاقل فى مرية شك منه من القرآن، أنه الحق من ربك أرسله مع محمد صلى الله عليه وسلم، هداية ونوراً.
ولكن أكثر الناس لا يؤمنون به، مع وضوح الأدلة على الوحى به.

* * *

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله، ويكذبون على الله، ويعملون للدنيا فقط: يصفهم رب العزة فيما يلى بأربعة عشر وصفاً :

فلنستمع إليها سوياً.

يقول تعالى :

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَـئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَـؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ }

[الآية ١٨]

يعنى : ليس هنا ظالم أظلم ممن افترى على الله كذباً فى نسبة الشريك والولد إليه، وجعل له شريكاً، أو ولداً، تعالى الله عن ذلك.

أولئك أوصافهم هى هذه :

الوصف الأول : يفضحهم ربهم يوم القيامة يعرضون على ربهم عرضاً تظهر معه فضائحهم.

الثانى : يفضحهم أهل الحشر ويقول الأشهاد تشهيراً بهم هؤلاء الذين كذبوا فى الدنيا على ربهم.

الثالث : يلعنهم الله يوم القيامة ألا لعنة الله على الظالمين هؤلاء.

وهذه الثلاثة فى الآخرة.

* * *

وفى الدنيا ٠٠ يقول عنهم :

{الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}

[الآية ١٩]

الرابع : يصدون عن سبيل الله أى يمنعون أنفسهم وغيرهم عن دين الله، واتباعه، والعمل به.

الخامس : ويبغونها عوجاً أى : يريدون الحياة الدنيا معوجة إلى غير ما أراد الله لها، ولخلقه فيها.

السادس : وهم بالآخرة كافرون فلا يعملون لها.

* * *

ثم يقول تعالى :

{أولـــئِكَ لمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أوْلِيَاء يُضَاعَفُ لهُمُ العَذابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ }
[الآية ٢٠]

الوصف السابع : أنهم ضعفاء أمام قدرة الله أولئك لم يكونوا ولن يكونوا أبداً معجزين لله يستطيعون الهرب منه، ومن عذابه لهم.

الثامن : ليس لهم أنصار ما كان لهم من دون الله من غيره أولياء ينصرونهم، أو يمنعون عنهم عذاب الله.

التاسع : عذابهم مضاعف يضاعف لهم العذاب.

العاشر : صم عن سماع الحق ما كانوا يستطيعون السمع للحق، سماع انتفاع به.

الحادى عشر : عمى عن آيات الله وما كانوا يبصرون ما يدلهم على الإيمان والهدى.

* * *

ثم يقول تعالى :

{أوْلــئِكَ الذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ }
[الآية ٢١]

الوصف الثانى عشر : أنهم خسروا أنفسهم أولئك هم الذين خسروا أنفسهم لمصيرهم إلى النار، المؤيدة عليهم.

الثالث عشر : خذلهم ما كانوا يعبدونه من دون اللله وضل عنهم ما كانوا يفترون من الآلهة، التى كانوا يزعمونها.

* * *

أخيراً .. يقول ربنا عز وجل :

{لا جَرَمَ أنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأخْسَرُونَ }

وفى هذه الآية الكريمة : الوصف الرابع عشر ٠٠ لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالله، ويكذبون على الله، ويعملون للدنيا فقط .

حيث يقول ربنا :

حقاً ٠٠ هؤلاء فى الآخرة هم الأخسرون؛ لأنهم استبدلوا دركات جهنم عن درجات النعيم، واعتاضوا عن شرب الرحيق المختوم ٠٠ بسموم وحميم، وعن الحور العين ٠٠ بطعام من غسلين، وعن القصور العالية ٠٠ بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته ٠٠ بغضب الديان وعقوبته.

* * *

وبعد بيان حال الكافرين المعذبين : يكون بيان حال المؤمنين المنعمين ٠٠

فى قوله تعالى :

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
[الآية ٢٣]

ومعنى الآية : إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعقولهم وعملوا الصالحات بجميع جوارحهم وأخبتوا إلى ربهم وخضعوا وخشعوا لجناب ربهم، وجاءوا بأعمالهم وجلين، خائفين راجين ٠٠ أن تقبل منهم.

أولئك هم أصحاب الجنة.

هم فيها خالدون لا يموتون، ولا يمرضون، ولا يهرمون، ولا ينامون، ولا يتغوطون ٠٠ إلخ.

* * *

وبعد أن ذكر الله أحوال الكفار وصفاتهم، وما كانوا عليه من العمى عن الحق، والصمم عن سماعه ٠٠ وذكر المؤمنين، وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة .

ذكر فيهما مثالاً مطابقاً ٠٠ فقال :

{مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ }
[الآية ٢٤]

ضرب الله لنا هذا المثل حيث شبه ربنا عز وجل فريق الكافرين بالأعمى عن معرفة وجه الحق فى الدنيا والآخرة، لا يهتدى إلى خير ولا يعرفه، والأصم عن سماع الحق، فلا يسمع ما ينتفع به، كما شبه سبحانه فريق المؤمنين بالبصير الذى يعرف وجه الحق فى الدنيا والآخرة، والسميع للحق الذى يعمل به، ويبلغه.

هل يستويات مثلاً وصفة ٠٠؟

لا ٠٠ أبداً أبداً ٠٠

أفلا تذكرون فتعتبرون، فتنتفعون، فتكونون من أهل الإيمان ٠٠؟

* * *

أيها القارئ ٠٠

بعد أن تحدثت الآيات السابقة ٠٠ عن موضوع : العبادة، والاستغفار، والتوبة، وبينت أن الناس بالنسبة لهذا الموضوع فريقان ٠٠ فريق المؤمنين، وفريق الكافرين، وضربت لكل فريق مثله ٠٠

تقدم الآيات فيما يلى نماذج حية واقعية ٠٠ من قصص بعض الأنبياء عليهم السلام، وأقوامهم، ومواقفهم من موضوع العبادة هذا.

فتقدم قصة نوح عليه السلام مع قومه.

حيث يقول ربنا :

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ }

[الآيتان ٢٥ ، ٢٦]

والمعنى : ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه يدعهم إلى توحيد الله، وعبادته.

فقال لهم : يا قوم إنى لكم نذير مبين أى : أنذركم وأخوفكم لتنقذوا أنفسكم من عذاب الله، وكلامى واضح، وحجتى واضحة.

ودعوتى لكم أن لا تعبدوا إلا الله وحده؛ حيث إنه مالكم، فما من إله غيره.

يا قوم إنى أخاف عليكم إن خالفتم، ولم توحدوا الله وتعبدوه عذاب يوم أليم يوم القيامة ٠٠ فآمنوا، واعبدوا الله وحده، واستغفروه، وتوبوا إليه.

* * *

ماذا كان جوابهم ٠٠؟

{ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ }

[الآية ٢٧]

أى : فقال الملأ الذين كفروا من قومه وهم الرؤساء ·· الذين يملئون العيون أبهة، والصدور هيبة، فى الجواب عليه ثلاثة أشياء :

ما نراك اتبعك إلا بشرا مثلنا لست بملِك، ولا ملك، ولا فضل له علينا . و كذلك ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا أى : ضعفاؤنا وفقراؤنا، وأسافلنا بادى الرأى الذين يؤمنون بالشىء سريعا، دونما تكفير وإعمال عقل منهم.

ومن جهة ثالثة ما نرى لكم علينا من فضل فى مال، أو خلق، أو جاه بل نحن نظنكم كافرين فيما تدعونه.

وهذا : هو قول المعاندين للحق، فى كل العصور، وكل البيئات.

* * *

وهنا ·· رد عليهم نوح عليه السلام، بهذه الردود، بغاية التلطف والأدب، شأن الأنبياء، والدعاة إلى الله :

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[الآية ٢٨]

وهذا هو الرد الأول ··

ومعناه : قال لهم يا قوم أرأيتم أخبرونى ·· ما رأيكم ··

إن كنت أنا على بينة ويقين من وحدانية ربى كما أنه سبحانه آتانى رحمة وهى النبوة من عنده لأبلغكم رسالة الله ··

فعميت وخفيت عليكم هذه الأشياء، ولم تفهموها، ولم تؤمنوا بها ··!!

أنلزمكموها ونرغمكم على الإيمان بهذه الوحدانية، وهذه النبوة وأنتم لها كارهون ··؟

إن هذا لا يصح ولا يكون، حيث إنه لا إكراه فى الدين.

* * *

ثم يقول عليه السلام :

﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾

[الآية ٢٩]

الرد الثانى : قال ويا قوم لا أسألكم وأطلب منكم عليه وهو تبليغ الرسالة، والدعوة إلى التوحيد مالا من عندكم، وإلا كان لكم الحق فى موقفكم هذا.

ولكنى ٠٠ أبتغى وجه الله فقط إن أجرى وثوابى على الله وحده.

الرد الثالث : قال لهم ما أنا بطارد الذين آمنوا من عندى، ولا من متابعتى، كما تريدون، وتطلبون؛ حيث إنهم ملاقوا ربهم ويشكوننى إليه إن نفذت رغبتكم الخاطئة وطردتهم، كما أنه هو الذى يجازيهم ويكافئهم لا أنتم، فلم تبخلون عليهم بالهدى ؟!!

والله ٠٠ ليس لهذا من سبب فيما أرى ولكنى أراكم قوماً تجهلون قدرهم عند الله، كما أنكم تجهلون قيمة ما أدعوكم إليه.

* * *

ثم قال عليه السلام :

﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾
[الآية ٣٠]

وهل فيكم يا قوم من ينصرنى وينقذنى من عذاب الله إن طردتهم من ساحة الإيمان بناءً على رغبتكم ٠٠؟

طبعاً ٠٠ لا يوجد.

أفلا تذكرون وتتعظون، وتعدلون عن مواقفكم إذن ٠٠؟

* * *

ثم قال عليه السلام :

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾
[الآية ٣١]

وهذا هو الرد الرابع ٠٠

ومعناه : يا قوم أنا لا أكذب، ولا أدعى العلم بما ليس لى به علم.

ولذلك :

لا أقول لكم عندى خزائن الله وادعى فضلاً عليكم، حتى تتبعونى.

ولا أقول لكم إنى أعلم الغيب فأخبركم عن آبائكم الأولين، وأعرف ما فى ضمائركم وضمائر أتباعى.

ولا أقول لكم إنى ملك حتى تقولوا ما أنت إلا بشرا مثلنا.

ولا أقول للذين تزدرى وتحتقر أعينكم من أتباعى المؤمنين :

لن يؤتيهم الله خيراً فى الدنيا أو فى الآخرة، تحقيقاً لرغبتكم، فـــ الله وحده أعلم بما فى أنفسهم ولست أنا، وسيجازيهم عليه، ولست أنا ولا أنتم.

يا قوم ·· إنى لو كذبت عليكم، وادعيت العلم بما ليس لى به علم، وقلت شيئاً من ذلك : لكنت إذاً من الظالمين.

وبهذا : رد عليهم، بمنتهى الحزم، ومنتهى الأدب، دون آية مساومة، أو تفريط فى حق الذين آمنوا معه واتبعوه.

* * *

فماذا كان موقفهم بعد هذا الوضوح، وبعد أن قامت الحجة عليهم.
رفضوا الحق، وأعرضوا عن أهله.
حيث ··

{قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}
[الآية ٣٢]

أى : قالوا يا نوح دعوتنا للتوحيد وعبادة ربك ·· فرفضنا، وأبينا، وقد جادلتنا وأقمت علينا الحجج والأدلة ·· فرفضنا دعوتك، وأبينا اتباعك فأكثرت جدالنا وأتعبتنا ·· ولن نتبعك، ولن نؤمن معك.
وقد هددتنا بالعذاب.
فأتنا بما تعدنا من هذا العذاب إن كنت من الصادقين فيما تهددنا به.

* * *

وهنا ··

{قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ }
[الآية ٣٣]

أى : قال لهم نوح عليه السلام : أنا لا أملك أن آتيكم بشىء من هذا العذاب إنما يأتيكم به الله عاجلاً أو آجلاً إن شاء هو لا أنا ، فهو الذى يملك أمرى وأمركم وأمر كل شىء.
وما أنتم بمعجزين له سبحانه، أو هاربون منه.

* * *

ثم قال لهم ٠٠

{وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}
[الآية ٣٤]

يعنى : كما أنى لا آتيكم بما أعدكم به من العذاب، بل يأتيكم به الله إن شاء: فإنه لا ينفعكم نصحى لكم ووعظى إياكم إن أردت أن أنصح لكم وأحببت أن ينصلح حالكم ٠٠ إن كان الله لا يريد ذلك لكم، بل يريد أن يغويكم ويضلكم، بسبب ظلمك وطغيانكم وعنادكم.

هو سبحانه ربكم المتصرف فى أموركم وإليه ترجعون فيجازيكم بما تستحقون.

* * *

وهنا يقول رب العزة :

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ }
[الآية ٣٥]

يعنى : بل يقولولن أى : قوم نوح ٠٠ على نوح عليه السلام، أنه افتراه أى : هذا الذى بلغنا به، من الدعوة إلى التوحيد والعبادة.

قل لهم يا نوح إن كنت قد افتريته واختلقته من عند نفسى : فــ هذا إجرام، وعلىَّ وزر إجرامى.

ولكننى ٠٠ لم أختلقه من عند نفسى ٠٠ حتى أكون كذلك.

بل أنتم المجرمون برفضكم دعوة التوحيد، ورفضكم عبادة الله سبحانه.

وأنا برىء مما تجرمون فى رفضكم هذه الدعوة، ومجرمون فى نسبتكم الافتراء والاختلاق إلىَّ.

* * *

وبعد هذا التأكيد ٠٠ لصدق نوح عليه السلام : تواصل الآيات عرض باقى تفاصيل هذه القصة.

حيث يقول ربنا :

{وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ}
[الآية ٣٦]

أى : أوحينا إلى نوح بقرب النهاية، وأخبرناه بـــ أنه لن يؤمن من قومك بعد هذه المدة التى قضيتها بينهم، وهى ألف سنة إلا خمسين عاماً، تبلغهم فيها دعوة الله، ولم يؤمن معك إلا من قد آمن.

ولذلك فلا تبتئس ولا تحزن، بـــ سبب ما كانوا يفعلون معك، من الإيذاء، والتكذيب، والاستهزاء.

* * *

ثم قال عز وجل له :

{وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ}
[الآية ٣٧]

واصنع يا نوح الفلك السفينة بأعيننا إن كنت لا تعرف فسنعلمك، ونحميك من الخطأ فى صنعها، وستكون هذه السفينة آلة النجاة لك ولمن آمن معك من عذابنا.

و إذا جاء العذاب لا تخاطبنى فى ترك إهلاك الذين ظلموا بشفاعتك لهم؛ حيث إنهم مغرقون لا محالة.

* * *

وبدأ نوح ٠٠

{وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ }
[الآية ٣٨]

وصار نوح عليه السلام يصنع السفينة؛ تنفيذاً لأمر الله تعالى.

و كان كلما مر عليه ملأ من قومه وهو يصنعها سخروا منه واستهزءوا به.

فما كان يأبه لسخريتهم، ولا يتأثر باستهزائهم ٠٠!!

بل كان يقول لهم إن تسخروا منا اليوم فإنا نسخر منكم غداً بإذن الله، عند رؤية إهلاككم كما تسخرون منا عند رؤيتكم صناعة السفينة.

* * *

ثم قال لهم مهدداً ..

{فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ}
[الآية ٣٩]

أى : إذا جاءت ساعة النهاية فسوف تعملون ونعلم أيضاً من يأتيه منا عذاب من عند الله يخزيه فى الدنيا ويحل عليه عذاب مقيم فى الآخرة.
وبالطبع .. فأنتم أهل هذا الخزى، وذاك العذاب المقيم.

* * *

ثم يحكى لنا ربنا عز وجل تفاصيل ساعة النهاية هذه.
فيقول :

{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ}
[الآية ٤٠]

يعنى : حتى إذا جاء أمرنا بالعذاب، وحانت ساعة النهاية، وصارت الأرض تفور بالماء، كما يفور تنور الجناز بالنار ..
قلنا لنوح احمل فيها أى : فى السفينة من كل صنف زوجين اثنين.
واحمل كذلك أهلك إلا من سبق عليه القول منهم، أنه من أهل النار، فلا تحمله ولا تحزن عليه.
و احمل أيضاً من آمن معك، واتبعك.
وما كان قد آمن معه إلا قليل مع أنه مكث فيهم كثيراً.

* * *

وحمل نوح عليه السلام فى سفينة من كل زوجين اثنين.
وحمل فيها – كذلك – أهله .. إلا من سبق عليه القول منهم ..
وحمل فيها – ثالثاً – من آمن وما آمن معه إلا قليل ..

{وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٤١]

أى : وقال نوح عليه السلام لأهله والمؤمنين معه اركبوا فيها وقولوا باسم الله وحده نركب، وعليه وحده نتوكل، فباسمه وحده، يكون جريها على وجه الماء، وباسمه وحده ٠٠ يكون رسوها على اليابسة؛ حيث إنه وحده سبحانه : مجريها ومرسيها.

إن ربى لغفور لمن آمن رحيم بهم، حيث خلصهم ونجاهم.

* * *

فركبوا فيها ٠٠

وأخذوا يقولون باسم الله مجريها ومرساها ٠٠!!

{وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ}

[الآية ٤٢]

وصارت السفينة تجرى بهم، وهم فيها، على وجه الماء، والموج كأنه الجبال، فى الارتفاع والعظم.

يقول تعالى ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر [القمر : ١١ ، ١٢].

وهنا ٠٠ وفى هذه الأمواج العاتية ٠٠ والظروف القاسية :

نادى نوح ابنه النداء الأخير، بعد أن دعاه كثيرا قبل ذلك للإيمان معه فلم يستجب وكان فى معزل عن الماء وأمواجه فى البداية .

قال له يا بنى اركب معنا وآمن لتنجو مع المؤمنين ولا تكن مع الكافرين فتغرق.

ولم يستجب الولد لنداء أبيه ..

* * *

حيث ..

{قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ }

[الآية ٤٣]

أى : لم يستجب، ولم يؤمن، ولم يركب، بل قال لأبيه سآوى أى : سألجأ وأصعد إلى جبل عال يعصمنى وينجينى من الغرق فى الماء.

قال له والده : يا بنى ٠٠ آمن، واركب معنا، فإنه لا عاصم اليوم ولا منجى من أمر الله وعذابه إلا من آمن، ورحم .

ولم يستجب ٠٠

وصارت السماء تنهمر بالماء، والأرض تفجر بالماء، والماء يعلو، والأمواج تتلاطم، حتى حال وفرق بينهما الموج ولم يركب مع أبيه، وغرق فكان من المغرقين الكافرين الظالمين.

* * *

أخيراً ٠٠

{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٤٤]

يعنى : وقال الله تعالى يا أرض ابلغى ماءك الذى تفجر منك ويا سماء أقلعى وكفى عن المطر؛ وبهذا غيض الماء ونقص، وظهر وجه الأرض مرة أخرى، جافاً يابساً وقضى الأمر وانتهى، وهلك الظالمون واستوت السفينة بالمؤمنين سالمة، آمنة على المكان المسمى، بـــ الجودى.

وقيل بعداً وهلاكاً للقوم الظالمين.

* * *

وبعد أن تمت النجاة، واستقرت الأمور : تذكر نوح عليه السلام ولده، وأخذته شفقة الأب، وتطلع إلى رحمة ربه.

{وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}
[الآية ٤٥]

قال نوح عليه السلام لربه مستعلماً : إن ابنى من أهلى وقد وعدتنى بنجاة أهلى وإن وعدك الحق الذى لا يتخلف، وقد غرق ابنى وهلك من الهالكين، وكلى ثقة وإيمان بأنك أنت أحكم الحاكمين ولكن رجائى فى نجاة ابنى من النار ٠٠باق، وأملى فى ذلك كبير.

* * *

وأجابه المولى سبحانه ..

{قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}
[الآية ٤٦]

أى : قال له ربه يا نوح إنه لم يؤمن، ولذلك ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم، حيث كان وعدى بإنجاء أهلك إلا من سبق عليه القول منهم بعدم الإيمان، وهذا ممن سبق عليه القول بعدم الإيمان، وعدم النجاة، وأما هذا الولد، فـــ إنه عمل غير صالح وأنا أعلم به منك.

ولذلك فلا تسألن ما ليس لك بـــ جواز سؤال به علم وهذا السؤال لا يجوز لك أن تسأله.

يا نوح أنى أعظك بمواعظى، كراهة أن تكون من الجاهلين فتسأل ما يسألون.

* * *

وعلى الفور ..

{قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ}
[الآية ٤٧]

يعنى : قال نوح عليه السلام مستغفراً ونادماً على سؤاله رب إنى أعوذ بك وألجأ إليك تائباً ، من أن أسألك بعد ذلك ما ليس لى به علم صحيح.

فاغفر لى يا رب، وارحمنى وإلا تغفر لى غفرانك على ما فرط منى وترحمنى برحمتك وعصمتك عن العود لمثله أكن من الخاسرين فى الدنيا والآخرة.

* * *

وفى النهاية :

{قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية ٤٨]

أى : قال تعالى لنوح عليه السلام اهبط انزل من السفينة، بسلام منا بتحية وأمن من الفرق وبركات عليك فى ذريتك وعلى أمم من معك أيضاً.

ولكن معك كذلك من سينشأ من ذريتهم أمم سنمتعهم فى الدنيا بسعة الرزق، وطيب العيش ثم يمسهم منا عذاب أليم لكفرهم.

* * *

ويعقب ربنا عز وجل ٠٠ على قصة نوح هذه قائلاً لمحمد عليه الصلاة والسلام :

{ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ }
[الآية ٤٩]

يعنى : هذه القصة، وما حدث فيها ٠٠ نبأ من أنباء الغيب الذى لا يعرفه أحد نوحيها إليك ونقصها عليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل أن نوحيها إليك، حتى يقول بعضهم، إنك تعلمتها منه.

ومع هذا ٠٠ سيكذبونك، وسيعاندونك.

فاصبر ولا تحزن عليهم؛ حيث إن العاقبة الحسنى فى النهاية للمتقين.

وهذا ما كان مع من سبقك – كما عرفناك – من المرسلين.

* * *

أخى فى الله ٠٠ وأختى فى الله ٠٠

انتهت قصة نوح عليه السلام كما عرضتها هذه السورة.

وتبدأ الآيات الكريمة فى عرض قصة أخرى لنبى آخر، وأمة أخرى ٠٠ وهى قصة هود عليه السلام، مع قومه "عاد".

حيث يقول المولى :

{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ}
[الآية ٥٠]

والمعنى : و أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً يدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله.

قال لهم يا قوم اعبدوا الله وحده ما لكم من إله غيره يستحق أن يعبد.

ثم قال لهم إن لم تعبدوا الله، وعبدتم غيره ٠٠ ما أنتم إلا مفترون أى كاذبون فى نسبة الألوهية إلى غير مستحقها.

* * *

ثم قال :

{يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ }
[الآية ٥١]

يا قوم ٠٠ منتهى التطلف معهم والرفق بهم لا أسألكم وأطلب منكم عليه وهو تبليغ الرسالة والدعوة إلى التوحيد أجراً من عندكم، إلا كان لكم الحق فى موقفكم هذا.
ولكننى ٠٠ أبتغى وجه الله فقط إن أجرى وثوابى على الذى فطرنى خلقنى وحده.
أفلا تعقلون ذلك ٠٠ فتؤمنون ٠٠؟!!.

* * *

ثم واصل معهم قائلاً :

{وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ }
[الآية ٥٢]

والمعنى : ويا قوم أقول لكم ناصحاً استغفروا ربكم عما سبق من كفركم وعنادكم ٠٠ بالإيمان ثم توبوا إليه سبحانه، عما سبق من ذنوبكم، وعما يأتى من تقصيركم.
فإذا سمعتم نصحى، واستغفرتم، وتبتم ٠٠
يرسل السماء عليكم بالمطر مدراراً كثيراً، فتزرعون، وتحصدون، ويأتيكم الرخاء والغنى.
ويزدكم قوة فى المال، والولد، وكل شىء إلى قوتكم الحالية.
يا قوم ٠٠ استمعوا إلى نصحى، واعملوا به ٠٠
ولا تتولوا وتعرضوا عنى وعن دعوتى ٠٠ فتظلوا مجرمين.

* * *

أتدرون – أيها الأحبة – بماذا أجابوه ٠٠؟

{قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}
[الآية ٥٣]

أى : قالوا له تكبراً وعناداً واستهزاءً يا هود إنك ما جئتنا ببينة بمعجزة دالة على صدقك ٠٠!!
وما نحن بتاركى أى بالذين نترك آلهتنا وعبادتها عن قولك أى بسبب قولك لنا ٠٠ اتركوها، واعبدوا الله.
وعلى كل حال ٠٠ حتى ولو جئت ببينة ما نحن لك بمؤمنين فلا تحاول معنا ما تحاوله لنؤمن بك.

* * *

ثم قالوا له :

{إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ }
[الآية ٥٤]

أى : ما نقول يا هود إلا أنه، قد اعتراك أصابك بعض آلهتنا التى نعبدها بسوء بسبب حربك لها.
ولذلك : فأنت تهذى، وتقول ما تقول.

* * *

وعلى الفور ٠٠

{قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ }
[الآيتان ٥٤ ، ٥٥]

يعنى : قال لهم هود إنى أشهد الله على أنى برىء مما تقولون إذّ لا تستطيع آلهتكم فعل شىء واشهدوا أنتم بدوركم على أنى برىء مما تشركون أنتم مع ربى، آلهة تزعمونها من دونه أى : غيره.
وعلى كل حال ٠٠ هذا موقفى منكم ومن آلهتكم ٠٠
فكيدونى جميعاً أنتم وآلهتكم، وافعلوا ما شئتم ما تستطيعون من إيذائى، والكيد لى ثم لا تنظرون أى : لا تتأخرون فى هذا الإيذاء الذى تريدون.
وفى هذا : غاية التحدى، ومنتهى الثقة بنصر الله، وعلامة التوكل عليه.

* * *

ولذلك قال مباشرة :

{إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }
[الآية ٥٦]

أى : اعتمادى على الله سبحانه وتعالى هو ربى الذى أومن به وأعبده، وهو ربكم الذى لا تؤمنون به ولا تعبدونه.

ما من دابة تتحرك، وتدب على وجه الأرض، ومنها أنتم إلا هو عز وجل آخذ بناصيتها مالك أمرها، وهى تحت سلطانه.

ولذلك : كان توكلى عليه، وتوجهى إليه، وعبادتى له.

إن ربى على صراط مستقيم على الحق الواضح، يدل عليه، ويريد إليه.

فآمنوا به، واعبدوه، وتوكلوا عليه.

* * *

ثم قال لهم أخيراً ..

{فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ }
[الآية ٥٧]

يعنى : قال لهم هود فإن تولوا أى : تتولوا وتعرضوا عن دعوتى، وترفضوا الإيمان بالله، وتصروا على الكفر.

فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم من دعوتكم للإيمان، وعبادة الله وحده، وليس لى عليكم إكراه ولا إجبار.

وسيهلككم الله ..

ويستخلف ربى فى الأرض، وفى الأموال، والديار .. قوماً غيركم يؤمنون به، ويوحدونه، ويعبدونه.

وأما أنتم فـ لا تضرونه شيئاً إنما سيعود الضرر عليكم وحدكم.

إن ربى على كل شىء حفيظ لا تخفى عليه أعمالكم، ولا تفوته مؤاخذتكم وعقابكم.

* * *

وفى النهاية :

{وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}
[الآية ٥٨]

أى : ولما جاء أمرنا بالعذاب أهلكنا عاداً، عن طريق الريح العقيم حيث أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا [فصلت : ١٦].

وهذه الريح سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية [الحاقة : ٧].

ونجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا وفضل من لدنا ونجيناهم من عذاب غليظ أصاب الكافرين من قوم هود.

* * *

ويعقب ربنا عز وجل ٠٠ على قصة هود هذه ٠٠ قائلاً للدنيا كلها، ليعتبر أهلها ٠٠

{وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ }
[الآية ٥٩]

هذه عاد : جحدوا بآيات ربهم وكفروا بها وعصوا رسل ربهم حينما دعوهم إلى الخير والفلاح، ومن عصى رسولاً واحداً فقد عصى الجميع واتبعوا بدلاً من ذلك أمر ودعوة كل جبار من رؤسائهم عنيد للحق، بعيد عنه.

* * *

وكان جزاؤهم كما عرفنا، وفوق ذلك يقول الحق :

{وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ }
[الآية ٦٠]

أى : أن اللعنة ، والطرد من رحمة الله تبعتهم فى الدارين، الدنيا والآخرة، وما ذاك إلا لأنهم كفروا بربهم وازدادوا طغياناً.

ألا بعداً وهلاكاً لعاد قوم هود يستحقونه، وما ربك بظلام للعبيد.

* * *

أيها الأحبة الكرام ..

انتهت بذلك قصة هود عليه السلام، كما عرضتها هذه السورة.

وتبدأ الآيات الكريمة فى عرض قصة أخرى، لنبى آخر، وأمة أخرى ٠٠ وهى قصة صالح عليه السلام مع "ثمود" .

حيث يقول تبارك وتعالى:

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ }
[الآية ٦١]

يعنى : و أرسلنا إلى ثمود وهم سكان "الحجر" منطقة بين الشام والمدينة المنورة أخاهم صالحاً يدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده.

حيث قال لهم يا قوم اعبدوا الله وحده ما لكم من إله غيره يستحق أن يعبد.

ويلاحظ : أنها نفس دعوة الرسل أجمعين، من أولهم إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم قال لهم : هذا الإله الذى أدعوكم إلى عبادته وحده هو الذى أنشأكم من الأرض أنشأ أباكم آدم منها، وأجسادكم منها، فلا تتكبروا على عبادته وأنتم خلقه.

وكذلك : هو الذى استعمركم فيها أى طلب منهم عمارتها وإصلاحها، وحسن الخلافة فيها ٠٠ فأطيعوه.

فاستغفروه أى : آمنوا به، واطلبوا مغفرته.

ثم كلما أذنبتم بحكم بشريتكم توبوا وارجعوا إليه يغفر لكم.

حيث إن ربى الذى هو ربكم أيضاً : قريب برحمته مجيب لمن آمن به، وتاب إليه، ودعاه.

* * *

أيها الإخوة الكرام : استمعوا إلى إجابتهم له، وردهم عليه.

{قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ }
[الآية ٦٢]

أى : قالوا له يا صالح ما هذا الذى تقوله ؟

يا صالح ٠٠ لقد كنا نأمل فيك خيراً قبل هذا الكلام ٠٠!!

أمرك عجيب يا صالح ٠٠ أتنهانا بما تقول أن نعبد ما يعبد آباؤنا من الأصنام ٠٠؟!

على كل حال : نحن لا نصدقك فيما تقول وإننا لفى شك مما تدعونا إليه من التوحيد وعبادة الله من دون أصنامنا.

ولا نطمئن لكلامك، ولا نثق فيه.

* * *

ولم يغضب صالح عليه السلام ٠٠ بل واصل الدعوة بالحسنى .

حيث ٠٠

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾

[الآية ٦٣]

قال لهم صالح يا قوم أخبرونى ٠٠

ما رأيكم ٠٠ إن كنت أسير الآن على طريق مستقيم، وبيان واضح من ربى، وآتانى منه رحمة أى : نبوة، هل أترك هذا الطريق المستقيم، وأخالف هذا البيان الواضح، وأسير معكم فيما أنتم عليه، وأعصى الله تعالى؟

أخبرونى إذن من ينصرنى من الله وينجينى من عذابه إن عصيته واتبعتكم، ولم أبلغكم رسالت ربى ٠٠؟

فما تزيدوننى بموقفكم هذا، ورغبتكم هذه – إن وافقتكم – غير تخسير لى وتضييع لحالى، وسوء لمآلى.

* * *

ويخبر القرآن الكريم – كما فى سورة الشعراء الآيتان ١٥٣ ، ١٥٤ أنهم قالوا له إنما أنت من المسحرين * وما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين.

وهنا قال لهم :

﴿وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾

[الآية ٦٤]

أى : يا قوم هذه هى المعجزة والآية التى طلبتموها دليلاً على نبوتى وصدق كلامى : واقفة أمامكم، ماثلة بين أيديكم، نفعها لكم، ورزقها ليس عليكم ٠٠

فذروها اتركوها إذن فى أرض الله تتحرك بحريتها ولا تمسوها بسوء من ذبح لها، أو إيذاء.

ولو فعلتم شيئاً مؤذياً لها فيأخذكم من ربى عذاب قريب عاجل فورى سريع.

وفى هذا : منتهى النصح لهم، والشفقة عليهم.

* * *

فهل أطاعوه ٠٠؟
كلا ٠٠ شأنهم شأن جميع الطغاة !!.
ماذا فعلوا ٠٠؟

قال تعالى :

{فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ }
[الآية ٦٥]

يا سبحان الله ٠٠!!
ذبحوها، ولم ينتفعوا بها معنوياً ولا مادياً، يعنى: لم يؤمنوا بسببها، ولم يتركوها لينتفعوا فى حياتهم بلبنها.
حقاً إنه عناد الباطل وأهله.
فقال لهم صالح عليه السلام : لقد حقت عليكم كلمة العذاب.
تمتعوا فى داركم أى عيشوا فى دياركم كما تحبون، وعلى النحو الذى تريدون ثلاثة أيام فقط، ثم يأتيكم عذاب الله.
ذلك العذاب وعد منه سبحانه لكم ولكل من عاند الحق، وهو وعد صادق غير مكذوب.

* * *

وكان الأمر كما قال صالح عليه السلام .
عاشوا ثلاثة أيام فقط.
ثم جاء العذاب .
يقول تعالى :

{فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ }
[الآية ٦٦]

يعنى : فلما جاء أمرنا بالعذاب، ونزل عذابنا بثمود ٠٠ نجينا من هذا العذاب صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا لهم، كما نجيناهم كذلك من الخزى والفضيحة التى لحقت بأقوامهم فى هذا اليوم، والتى تلحقهم أيضاً فى يوم القيامة.

إن ربك هو القوى القادر، الذى ينجى أولياءه، العزيز الغالب، الذى يهلك ويعذب أعداءه.

* * *

هذا عن صالح والذين آمنوا معه ..
وأما الذين كفروا ..
فيقول عنهم رب العزة :

{وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ }
[الآية ٦٧]

يعنى : أهلك الله الكافرين، الذين ظلموا .. بالصيحة، وهى الرجفة الشديدة، مع الصوت المدمر لكل شىء، والذى تقطعت له قلوبهم فى صدورهم، فماتوا جميعاً.
فأصبحوا فى ديارهم ومنازلهم جاثمين ميتين، باركين على ركبهم.

* * *

وصاروا ..

{كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ }
[الآية ٦٨]

أى : انتهوا تماماً، وكأن لم يكونوا فيها، ولم يقيموا بها.
وما ذلك العذاب .. إلا لأن ثمود كفروا ربهم وكل كافر يعذب كذلك لكفره.
ألا بعداً لثمود من رحمة الله، ولكل كافر أيضاً.

* * *

وهكذا ..
كانت نهاية قوم صالح .. بالصيحة.
وكانت نهاية قوم هود .. بالريح.
وكانت نهاية قوم نوح .. بالطوفان.

وكانت العاقبة الحسنى ٠٠ هى : نجاة نوح، وهود، وصالح، عليهم السلام، ومن آمن معهم.
وهو درس للدعاة إلى طاعة الله، واستغفاره؛ يقوى عزمهم، ويشد من أزرهم.

* * *

أيها الأحبة الكرام ٠٠
انتهت بذلك قصة صالح عليه السلام مع قومه كما ذكرتها سورة هود.
وتبدأ الآيات فى عرض قصة نبى آخر، وهو لوط عليه السلام.
ولكنها تبدأ بالمرور على "إبراهيم عليه السلام" لتبين لنا رعاية الله له، وإنعامه به.
حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى :

{وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ }
[الآية ٦٩]

أى : جاءت الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام ، وهى فى طريقها إلى لوط عليه السلام وقومه جاءت له بالبشرى وهى أن الله سيرزقه بإسحق ومن بعده يعقوب.
فلما دخلوا عليه ٠٠ قالوا سلمنا سلاماً.
أجابهم قال عليكم سلام دائم، ثابت من الله تعالى.
وذهب سريعاً ٠٠ وأتاهم بواجب الضيافة، حيث جاء بعجل حنيذ أى مشوى.
وقدمه إليهم، وقربه منهم، وعزم عليه ٠٠
فلم يمدوا إلى الأكل أيديهم.

* * *

{فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ }
[الآية ٧٠]

أى : فلما رأى أيديهم لا تمد إلى الأكل، ولا تصل إليه : نكرهم أى : استنكر حالهم ٠٠ من عدم الأكل، ومن غرابة التصرفات؛ حيث سلموا عليه، على غير عادة أهل هذه البلاد وهذا الزمان، ودخلوا بلا استئذان.
وهنا أوجس فى نفسه وأضمر منهم خيفة.
فلما أحسوا منه الخوف :
قالوا لا تخف منا إنا رسل الله أرسلنا منه سبحانه إلى قوم لوط.

* * *

كان هذا الحوار بين إبراهيم عليه السلام والملائكة ..

{وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ }
[الآية ٧١]

يعنى : وكانت السيدة سارة، امرأة إبراهيم عليه السلام، قائمة على خدمتهم، وسمعت قول الملائكة إنا أرسلنا إلى قوم لوط فعرفت أن الهلاك نازل بقوم لوط، ففرحت لذلك، فضحكت استبشاراً بهلاك الظالمين.

فجوزيت على موقفها هذا خيراً ..

يقول تعالى : فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب أى من بعده يعقوب أى : بشرت بولد يعيش ويكون له نسل.

* * *

وهنا ..

{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ }
[الآية ٧٢]

أى : قالت تعجباً يا ويلتى أيكون لنا ولد بعد هذا السن؟!!
إن هذا لشىء عجيب بالنسبة لحالنا وسننا.

* * *

وردت عليها الملائكة ..

{قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ }
[الآية ٧٣]

أى : قالت الملائكة لها أتعجبين من أمر الله وهو الذى يقول للشىء كن فيكون؟

هذه رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت أى : يا أهل بيت النبوة.
إنه سبحانه حميد محمود فى جميع أفعاله مجيد ممجد فى ذاته وكل صفاته.

* * *

كان هذا حال سارة ٠٠
وأما إبراهيم عليه السلام فيقول عنه رب العزة :

{فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ }
[الآية ٧٤]

أى : لما عرف إبراهيم أنهم ملائكة، وأنس بهم، وفرح لبشارتهم ٠٠ صار يجادلهم ويناقشهم فى شأن قوم لوط عليه السلام.

* * *

يقول المفسرون : كانت هذه المجادلة ٠٠ فى صورة خمسة أسئلة وجهها للملائكة ٠٠
قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ٠٠؟ قالوا : لا .
قال : أتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن ٠٠؟ قالوا : لا.
قال : أتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً ٠٠؟ قالوا : لا.
قال : أفتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمناً ٠٠؟ قالوا : لا.
قال : أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ٠٠؟
قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين [العنكبوت : ٣٢].

* * *

ولكن ٠٠ لماذا يجادل ويناقش هكذا ٠٠؟
الجواب ٠٠ فى قوله تعالى :

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ }
[الآية ٧٥]

أى : أن فيه ثلاث صفات، وهى : أنه حليم غير عجول بالعقاب لمن أساء إليه، أواه كثير التأوه، والخوف من الله منيب رجاع إلى الله تعالى بالتوبة.

وهذه الصفات: أثرت فى رقة قلبه، وفرط رحمته، وجعلته يجادل، ويطلب تأخير العذاب عنهم ٠٠ لعلهم يؤمنون، ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصى.

* * *

ولكن ٠٠ ماذا قالت له الملائكة ٠٠؟

قالوا له :

{يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ }
[الآية ٧٦]

يعنى : يا إبراهيم ٠٠ لا تناقش فى هذا الموضوع؛ حيث إنه قد جاء أمر ربك بهلاكهم، ولا راد لأمره وقضائه.

وإنهم أيضاً آتيهم عذاب غير مردود بدعاء، أو بجدال ونقاش وغير ذلك.

وسكت إبراهيم عليه السلام.

* * *

وتركت الملائكة إبراهيم عليه السلام، وخرجت من عنده ٠٠ متوجهة إلى قوم لوط.

ووصلوا إلى لوط عليه السلام.

{ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ }
[الآية ٧٧]

أى : لما وصلت الملائكة، رسل الله إلى لوط عليه السلام سىء بهم أى: استاء لوجودهم خوفاً عليهم من قومه وضاق بهم ذرعاً أى : ضاق صدره لعدم قدرته على حمايتهم وقال معبراً عن ذلك كله هذا يوم عصيب شديد الصعوبة، كثير المشاكل، عظيم البلاء.

* * *

وحدث ما توقعه لوط عليه السلام.

{وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ }
[الآية ٧٨]

أى : لما جاء قومه على هذا الحال الفاحش ٠٠ قال لهم : يا قوم هؤلاء بناتى فتزوجوهن ، فــهن أطهر لكم وكان زواج المؤمنات من الكفار جائزاً.
ثم قال لهم فاتقوا الله بترك الفاحشة، وفعل المباح ولا تخزون وتفضحونى فى ضيفى.
يا قوم أليس منكم رجل رشيد عاقل، يستمع لكلامى، ويستجيب لدعوتى، وينقذ سمعتى، ولا يهين ضيوفى ٠٠؟!

* * *

فماذا قالوا ٠٠؟

{قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ }
[الآية ٧٩]

منتهى التبجح ٠٠ حقاً ليس فيهم رجل رشيد ٠٠!!
حيث قالوا له لقد علمت سابقاً، أنه ما لنا فى بناتك وكل النساء من حق أى : لا رغبة لنا فى النساء.
وإنك لتعلم ما نريد من إتيان الذكور، دون الإناث.

* * *

إلى هنا ٠٠ حزن لوط حزناً شديداً، وخاف على ضيوفه من قومه، وأحس بالعجز أمام فحشهم، وسوء قولهم، وما قد يفعلونه ٠٠
ولذلك :

{قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ }
[الآية ٨٠]

أى : لو أننى أملك قوة فى مواجهتكم، أو كانت لى عشيرة وقبيلة تنصرنى ضدكم ·· لبطشت بكم، ومنعتكم مما تريدون.

* * *

فلما رأت الملائكة ذلك :

{قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ }

[الآية ٨١]

أى : قالوا له يا لوط لا تحزن، ولا تخف، فإن لك بهم قوة، وأنت تأوى إلى ركن قوى شديد.
حيث إنا رسل ربك إليك.
ولذلك : لن يصلوا إليك بأى أذى، ولا لضيوفك.
ثم قالوا له :
فأسر بأهلك بقطع من الليل أى : سر ليلاً بأهلك خروجاً من هذا البلد، ولا يتخلف منكم أحد.
إلا امرأتك فإنها ستتخلف؛ حيث إنه مصيبها من الكفر والعصيان ما أصابهم.
وهنا ·· كأن لوطاً قال : بعد خروجهم ·· متى يكون هلاكهم ··؟.
قالوا إن موعدهم الصبح ··
وكأنه أراد هلاكاً أسرع من ذلك ··
إذ قالوا له أليس الصبح بقريب ··؟!!

* * *

وجاء الصبح ··
وجاء أمر الله بالهلاك ··
يقول تعالى :

{فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ }

[الآيتان ٨٢ ، ٨٣]

أى : لما جاء أمرنا بهلاكهم جعلنا عالى بلادهم سافلها حيث رفعها جبريل عليه السلام إلى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض.

وكذلك أمطرنا عليهم إهلاكاً لهم حجارة من سجيل من طين مطبوخ بالنار منضود أى: متتابع، حجارة بعد حجارة.

وهذه الحجارة مسومة معلمة عند ربك كل حجر مكتوب عليه اسم صاحبه، الذى سيسقط فوقه.

وهكذا عذاب الظالمين من قوم لوط.

ولكن ..

ما هى هذه الحجارة من الظالمين فى أى عصر، أو فى مصر ، ببعيد عنهم سقوطها عليهم، وتعذيبهم بها. ألا فلينتبه الغافلون ..

وهكذا .. كانت نهاية قوم لوط عليه السلام.

وفيها التهديد الشديد والوعيد الأكيد .. لكل طاغية فاحش.

* * *

ثم تنتقل آيات السورة إلى قصة أخرى، مع نبى آخر، وقوم آخر.

فإلى هناك ..بارك الله فيكم، ونفعني وإياكم إنه ولي ذلك والقادر عليه. يقول ربنا ، الحميد المجيد ، سبحانه وتعالى :

{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ }

[الآية ٨٤]

والمعنى : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته.

قال لهم يا قوم اعبدوا الله وحده ما لكم من إله غيره يستحق أن يعبد.

ثم قال لهم بأسلوب رقيق شفيق ولا تنقصوا المكيال والميزان بل أدوهما كاملين، أخذاً من الغير، وعطاءً للغير.

حيث إنى أراكم بخير وفى نعمة من الله تعالى، تستحق الشكر، والوفاء فى الكيل والميزان.

ثم إنى أحبكم وأحب إيمانكم، وأخاف عليكم عذاب يوم محيط بكم، فى الدنيا، وفى الآخرة.

* * *

ثم قال لهم :

{ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ }

[الآية ٨٥]

أى : بعد أن نهاهم عن نقص الكيل والميزان ٠٠ يأمرهم هنا بالوفاء فيهما على وجه العدل والتسوية.

ثم ينهاهم كذلك عن بخس الناس فى حقوقهم بصفة عامة ولا تبخسوا الناس أشياءهم المادية، أو المعنوية، بخساً مادياً – كذلك – أو معنوياً.

وهذا النقص ٠٠ وإن كان فساداً وإفساداً ٠٠!!

وهذا البخس ٠٠ وإن كان فساداً وإفساداً ٠٠!!

إلا أنه لا يكتفى بالنهى عنهما كصور من الفساد : بل ينهى عن الفساد عامة، حيث يقول لهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بل كونوا فيها مصلحين لها، مسعدين لأهلها.

* * *

ثم ذكرهم بقيمة الحلال قائلاً :

{ بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ }
[الآية ٨٦]

يعنى : رزق الله الحلال خير لكم مما تفعلون؛ حيث يبارك لكم فيه، بشرط إيمانكم إن كنتم مؤمنين.

وما أنا إلا مجرد ناصح لكم فقط، وداع لكم إلى النجاة فقط، ولست عليكم بحفيظ من غضب الله وعذابه فى حال استمراركم على كفركم وعصيانكم.

* * *

أتدرون – أيها الأحبة الكرام – بماذا أجابوه بعد هذا الكلام الطيب، والتوجيه الجميل ؟

{ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}
[الآية ٨٧]

أى : قالوا مستهزئين به، متهكمين عليه، يا شعيب ما هذا الكلام الذى تقول ٠٠؟

يا شعيب نحن أحرار فيما نفعل، سواء فى عباداتنا، أو فى حياتنا، واقتصادنا، ولا دخل لصلاتك فى هذا ولا فى ذاك.

هل أنت العاقل الراشد فقط من بيننا، حتى تكون وصياً علينا ناصحاً لنا٠٠؟

ابتعد عنا يا شعيب، واتركنا فيما نحن فيه.

* * *

ولم يسكت شعيب، ولم يبتعد عنهم ٠٠

بل :

{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }

[الآية ٨٨]

يعنى : قال لهم يا قوم أخبرونى ٠٠ إن كنت على بينة أى بصيرة وهداية من ربى فيما أدعوكم إليه، وآمركم به، وأنهاكم عنه ٠٠

وأخبرونى كذلك ٠٠ إن كان الله تعالى ٠٠ قد رزقنى منه رزقاً حسناً وهو النبوة، وإرسالى إليكم لينقذكم من الكفر والمعصية ٠٠

هل يصح لى : أن لا أدعوكم إلى ما أرسلنى به إليكم ٠٠؟

يا قوم ٠٠ لا تظنوا أنى أنهاكم عن هذه المعاصى لأفعلها أنا، وأقع فيها٠٠

بل ما أريد لما آمركم به وأنهاكم عنه إلا الإصلاح ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، حباً فيكم، وخوفاً عليكم.

وما توفيقى ونجاحى فى تحقيق هذا الغرض إلا بالله وعونه وتأييده.

عليه توكلت فى كل أمورى وإليه أنيب أرجع فى كل أحوالى.

* * *

ثم قال لهم :

{ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم }بِبَعِيدٍ [الآية ٨٩]

أى : يا قوم لا تحملنكم عداوتكم لى، وبغضكم لدعوتى ٠٠ على مخالفتى، والكفر بالله، وعصيانكم له.

حتى لا يصيبكم من الهلاك والعذاب ما أصاب الأمم من قبلكم، التى فعلت فعلكم، وعاندت عنادكم، وكفرت كفركم.

* * *

وأضاف قائلاً لهم أيضاً :

{ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ }
[الآية ٩٠]

يعنى : اتركوا عداوتى، واستغفروا ربكم عما كان منكم، وعودوا إليه، واعبدوه؛ يغفر لكم؛ حيث إن ربى رحيم بمن استغفره ودود لمن تاب إليه، وعاد إلى حماه.

* * *

وبعد ..
وبعد هذا الكلام الطيب الرقيق النصوح من شعيب لقومه .. ماذا كان موقفهم ..؟
لا جديد عند الطغاة ..
حيث :

{ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ }
[الآية ٩١]

أى : قالوا له، مستهزئين به يا شعيب ما هذا الذى تقول ..؟ نحن ما نفقه ونفهم كثيراً مما تقول !!
ولذلك : لن نؤمن بك، ولن نتبع دعوتك .
وليس هذا فقط ..
بل إنا لنراك فينا ضعيفاً لا عز لك عندنا، ولا مكانة لك بيننا، ولا قدرة لك علينا.
ولولا رهطك عشيرتك وأهلك، الذين نراعى خاطرهم لرجمناك بالحجارة حتى الموت.
حيث إنه ما أنت علينا بعزيز الجانب، ولا كريم المنزلة.

* * *

قالوا ذلك ..
وشعيب – عليه السلام – يسمع، دون أن يغضب أو ينفعل، أو يتركهم.
بل :

{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ }
[الآية ٩٢]

يا ألله ٠٠!!
لم يغضبه استهانتهم به، وازدراؤهم له، ولكن آلمه خوفهم من أهله وعشيرته، وعدم خوفهم من الله.
أرهطى أعز عليكم من الله ٠٠؟!!
واتخذتموه سبحانه وراءكم ظهرياً فلم تخافوه، ولن تؤمنوا به ٠٠؟!!
لا تظنوا أنه عز وجل غافل عنكم، ولا عن أعمالكم، ولا عن معاصيكم، ولا عن عقابكم.
حيث إن ربى بما تعملون محيط عالم به، وسيجازيكم عليه.

* * *

ثم قال لهم الكلمة الأخيرة ٠٠

{ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ }
[الآية ٩٣]

أى : يا قوم ما دمتم مصرين على مواقفكم ٠٠ فكونوا كما تريدون؛ حيث لا إكراه فى الدين ٠٠ اعملوا على مكانتكم أى على ما أنتم عليه إنى عامل على ما أنا عليه.
ولن يضيع الأمر سدى ٠٠
بل سوف تعلمون من يأتيه منا، أنتم أو أنا عذاب يخزيه فى الدنيا والآخرة.
وسوف تعلمون ساعتها من هو كاذب فينا.
وحتى يكون ذلك ٠٠
ارتقبوا وانتظروا إنى معكم رقيب.

* * *

وبهذا ٠٠ بلغ ما كلف به، وفوض الأمر لله.
وكانت نهاية قوم شعيب .
كما يصورها الله تعالى فى قوله :

{ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ }
[الآيتان ٩٤ ، ٩٥]

أى : لما جاء أمرنا بالإهلاك والتدمير لأهل مدين نجينا من ذلك شعيباً عليه السلام والذين آمنوا معه برحمة منا.

وبعد ذلك أخذت الذين ظلموا وكفروا وعاندوا الصيحة كما أهلكنا بها ثمود، قوم صالح.

حيث أخذتهم الرجفة، وتزلزلت بهم الأرض، وصاح بهم جبريل صيحة ‥ ماتوا منها جميعاً.

فأصبحوا فى ديارهم جاثمين باركين على ركبهم ميتين، لا حراك فيهم.

كأن لم يغنوا فيها ويعيشوا فى رحابها قبلاً ألا بعداً لمدين وهلاكاً وطرداً من رحمة الله كما بعدت ثمود الذين كانوا يشبهونهم فى الطغيان وفحش السلوك والعادات.

وهكذا ‥ هلكت أمة طاغية ‥

* * *

وتبدأ الآيات الكريمة فى عرض قصة أخرى لنبى آخر ‥

حيث يقول ربنا عز وجل :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ }
[الآيات ٩٦ – ٩٩]

وهذه قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملائه ‥

يقول تعالى :

ولقد أرسلنا أى بعد الذين سبق ذكرهم من الأنبياء موسى عليه السلام إلى فرعون وملائه يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك بنى إسرائيل لحريتهم.

وكان مع موسى الآيات الدالة على نبوته، والحجة الواضحة على رسالته.

فعاند فرعون، واتبعته حاشيته على ضلاله وعناده.

ولذلك :

يقدم فرعون قومه يوم القيامة إلى النار، فيوردهم فيها، ويدخلهم إليها، وهو معهم بئس الورد المورود.

وليس هذا فقط ‥

بل إنهم أتبعوا فى هذه الدنيا لعنة تصاحبهم فيها ويوم القيامة كذلك.

بئس الرفد أى العطاء المرفود أى : بئس العون والعطية والنتيجة التى قادهم إليها فرعون عليه لعنة الله.

وبهذا الشكل السريع والإشارة الخاطفة : انتهت قصة موسى عليه السلام.

* * *

ثم يقول الله تبارك وتعالى لحبيبه، فى نهاية هذا القصص الذى عشنا معه هذه الفترة السابقة :

{ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ }
[الآيتان ١٠٠ ، ١٠١]

أى : ذلك الذى قصصناه عليك يا محمد، وأخبرناك به من أنباء القرى السابقة، وما حدث فيها بين الأنبياء وأقوامهم ·· هو من أنباء الغيب، التى لا يعلمها إلا الله نقصه عليك إعلاماً لك، وتثبيتاً لموقفك، وتعليماً لأمتك.

هذه القرى منها قائم أى : عامر باق، ومنها حصيد هالك قد اندثر.

وأما أهل هذه القرى : فما ظلمناهم بما فعلناه فيهم ولكن ظلموا أنفسهم بكفرهم وعنادهم، وعبادتهم لغير الله.

وساعة هلاكهم ما أغنت عنهم آلهتهم التى كانوا يدعون بها من دون الله من شىء من هذا العذاب لما جاء أمر ربك به لهم.

وما زادوهم غير تبيب أى : خسارة على خسارة، وضياعاً فوق الضياع، وهلاكاً بعد هلاك.

* * *

{ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ }
[الآية ١٠٢]

يعنى : ومثل ما حدث فى هذه الأمم الكاذبة الظالمة ·· سنة الله تعالى وطريقته إذا أخذ القرى وهى ظالمة أهلها.

حقاً ·· إن أخذه أليم شديد.

فلينتبه الطغاة الظالمون.

* * *

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ }
[الآية ١٠٣]

أى : إن فى ذلك القصص، الذى ذكرناه لآية وعبرة لمن خاف عذاب الآخرة يستفيد منه، ويتعظ به، ويهتدى بسببه.

ذلك اليوم، الذى يكون فيه العذاب يوم رهيب مجموع له الناس كلهم، من أولهم إلى آخرهم، للحساب والثواب والعقاب.

حقاً ٠٠ ذلك يوم مشهود حيث تحضره الخلائق كلها، من إنس، وجن، وملائكة، وكل المخلوقات.

نسأل الله تعالى ٠٠ النجاة فيه، والبعد عن أهواله.

* * *

هذا اليوم لم يأت بعد ٠٠ بل يؤخره الله تعالى ٠٠
حيث يقول :

{ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ }
[الآية ١٠٤]

فلا يظن أحد ٠٠ أنه لن يكون ، كلا ٠٠ إنه سيكون فى الموعد الذى حدده الله له، واختص وحده بعلمه.
فليستعد له كل عاقل.

* * *

أيها القارئ الكريم ٠٠ هل تريد أن تعرف شيئاً يسيراً عن هذا اليوم ٠٠؟
اقرأ معى أعزك الله قوله تعالى عنه :

{ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ }
[الآية ١٠٥]

نعم ٠٠ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا * ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا [النبأ ٣٨ ، ٣٩] .

والناس ساعتها قسمان :
منهم شقى وسعيد منهم معذب، ومنهم منعم.
جعلنا الله تعالى من السعداء المنعمين.

* * *

{ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ }
[الآيتان ١٠٦ ، ١٠٧]

يعنى : فأما الصنف الأول، وهم الذين شقوا ففى علمه تعالى أنهم يدخلون النار، ويكون لهم فيها زفير وشهيق.

كما أنهم : يكونون خالدين فيها أبداً ما دامت السموات والأرض فى الدنيا، إلا ما شاء ربك أى غير ما شاء ربك من أزمنة أخرى تحقق هذا الخلود.

وهذا يشمل عذابهم بالنار، فى القبر، وفى جهنم، والعياذ بالله تعالى.

ولا مانع من هذا الخلود، وهذا العذاب لهم أبداً؛ حيث إن ربك فعال لما يريد.

* * *

وبعد أن بيَّن ربنا عذاب الأشقياء ٠٠!!
يبيِّن نعيم السعداء ٠٠ فيقول :

{ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ }
[الآية ١٠٨]

يعنى : وأما الصنف الثانى، وهم الذين سعدوا ففى علمه تعالى أنهم يدخلون الجنة ويكونون خالدين فيها أبداً ما دامت السموات والأرض فى الدنيا إلا ما شاء ربك أى : غير ما شاء ربك من أزمنة أخرى، تحقق هذا الخلود.

وهذا : يشمل نعيمهم ٠٠ فى القبر، وفى الجنة.

كل هذا يكون عطاءً من الله تعالى لهم، وتفضلاً عليهم غير مجذوذ أى: غير مقطوع، أو منته.

* * *

ثم يخاطب ربنا محمداً صلى الله عليه وسلم، وكل عاقل يعتبر بقصص الأولين ٠٠
قائلاً :

{ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ }
[الآية ١٠٩]

أى : لا يكن عندك شك يا محمد – بعد معرفة بطلان عبادة الهالكين من الأمم التى قصصناها عليك – فى بطلان ما يعبد قومك هؤلاء، الذين ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل من الأصنام.

وإنا لموفوهم نصيبهم من العذاب، كاملاً غير منقوص كما وفينا من قبلهم من الطغاة الكافرين المعاندين.

وفى هذا تهديد للكفار، ووعيد ٠٠ وتثبيت للنبى صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين معه، وتأييد .

* * *

ثم يقول كذلك :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ }
[الآية ١١٠]

يعنى : ولقد آتينا موسى الكتاب وهو التوراة فاختلف فيه من قومه فمنهم من آمن به ومنهم من كفر ٠٠ كما آتيناك القرآن، فاختلف فيه من قومك، فمنهم – كذلك – من آمن به ومنهم من كفر.

فلا تحزن، ولا يضيق صدرك بهذا.

ولولا كلمة سبقت من ربك بعدم استئصال المكذبين من هذه الأمة لقضى بينهم بالهلاك، كما حدث مع السالفين.

ومع هذا الإمهال ٠٠ فـ إنهم لفى شك منه أى من القرآن مريب بالغ فى عدم الطمأنينة.

* * *

على كل حال ٠٠

{ وَإِنَّ كُـلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }
[الآية ١١١]

أى : وإن كلا من هؤلاء وهؤلاء، أى : المكذبين السابقين والمكذبين من قومك، إلا ليوفينهم ربك جزاء أعمالهم.

حيث إنه بما يعلمون خبير وسيحاسبهم عليه.

* * *

وما دام الأمر كذلك ٠٠

{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }
[الآية ١١٢]

فى هذه الآية، والآيتين بعدها : يرسم الله منهجاً للحياة الإسلامية، يخاطب فيه، ويكلف به النبى صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه.

يأمر فيه أولاً ٠٠ قائلاً فاستقم على منهج الله كما أمرت به فى القرآن الكريم، وبينته السنة النبوية.

ومن تاب معك أى : ومن آمن معك كذلك.

وينهى فيه ثانياً ٠٠ بقوله :

ولا تطغوا على غيركم، فى حال غناكم، أو قوتكم، أو نجاحكم.

حيث إنه سبحانه بما تعملون وتستقيمون على مناهج الله، أو تطغوا على غيركم بصير عالم به؛ فيجازيكم عليه بما تستحقون.

* * *

ثم ينهى فيه – كذلك – ثالثاً – فيقول :

{ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ }
[الآية ١١٣]

يعنى : ولا تركنوا بميل، أو رضا، أو تعاون على إثم إلى الذين ظلموا فى حال ضعفكم بالاستعانة بهم، أو فى حال قوتكم بالتودد إليهم.

فإنكم لو فعلتم هذا، أو قريباً منه فتمسكم النار بسبب ركونك إليهم.

و ساعتها ما لكم من دون الله من أولياء يمنعون عنكم عذاب الله الناتج عن مخالفتكم أوامره.

ثم لا تنصرون أبداً.

* * *

ثم يأمر ربنا – فى هذا المنهج – رابعاً :

فيقول :

{ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ }
[الآية ١١٤]

أى : أقم الصلاة وأدها فى كل أوقاتها، كاملة غير منقوصة.
حيث إن الحسنات كهذه الصلوات الخمس يذهبن السيئات فيصير المرء خالياً من العوائق والذنوب الحائلة بينه وبين تطبيق هذا المنهج الربانى للحياة.
ذلك الذى تقدم من الأوامر والنواهى فى هذا المنهج ذكرى موعظة نافعة للذاكرين .

* * *

ولأن تطبيق هذا المنهج يحتاج إلى عزيمة ومثابرة ..
فإن الله تعالى ٠٠ يقول لمن يريد النجاح فيه :

{ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ١١٥]

أى : اصبر على التحلى بما أمرت به، وعلى التحلى عما نهيت عنه ٠٠ حتى تنجح نجاحاً كاملاً، وتحسن إحساناً تاماً؛ فتكون من المحسنين.
فإن الله يجازيك خيرا؛ حيث إنه سبحانه لا يضيع أجر المحسنين.

* * *

ثم يقول سبحانه ٠٠ منبهاً على ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠٠

{ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ }
[الآية ١١٦]

والمعنى : لو كان من القرون والأمم السابقة أولو بقية من فضل ودين وعلم، يقومون بواجب الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وينهون عن الفساد فى الأرض ٠٠ لانصلح حال هذه الأمم، وما حل بهم العذاب على نحو ما ذكرناه عنهم.

إلا قليلاً منهم نهوا عنه، وابتعدوا منه ٠٠ فنجوا من هذا العذاب.

ولكن الأكثرية : لم تنه عنه، ولم تستجب لمن نهى، وكانوا ظالمين ٠٠ واتبع هؤلاء الذين ظلموا شهواتهم، وما أترفوا فيه من النعيم والملذات وكانوا مجرمين.

وفى هذا تنبيه لهذه الأمة : حتى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتطيع من يفعل هذا، ولا تظلم، ولا تتبع شهواتها ٠٠ حتى لا تكون من المجرمين.

* * *

ثم يبين ربنا ٠٠ أن الفساد سبب الهلاك.
فيقول :

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ }
[الآية ١١٧]

أى : ليس من سنة الله تعالى أن يهلك بلداً وأهلها بعيدون عن الفساد مصلحون لأحوالها، وأهلها بشرع الله تعالى، حيث إنه سبحانه لو فعل ذلك ٠٠ لكان ظلماً، والله منزه عن الظلم.

* * *

ثم يبين عز وجل سبب اختلاف الناس والأمم فيما بينها، والحكمة فى هذا الاختلاف.
فيقول :

{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }
[الآيتان ١١٨ ، ١١٩]

يعنى : طبائع الناس مختلفة، ولذلك يختلفون، ومن الأمور التى اختلف حولها الناس طاعة الله تعالى.

ولو شاء ربك الذى خلق الجميع لجعل هؤلاء الناس المختلفين أمة واحدة وطريقاً واحداً فى الطاعة، لا تختلف حولها بكفر وإيمان، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك؛ فصاروا مختلفين ٠٠ منهم المؤمن ومنهم الكافر.

ولا يزالون مختلفين حول الكفر والإيمان إلا من رحم ربك منهم، فهؤلاء لم يختلفوا على طاعة الله والإيمان به.

ولذلك خلقهم على هذا الوضع المختلف ليميز الخبيث الذى يختار الكفر من الطيب الذى يختار الإيمان.
وتمت كلمة ربك الأزلية، وهى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ولله الحكمة العليا والمشيئة الكبرى.

* * *

ثم يخاطب ربنا عز وجل حبيبه فى نهاية السورة مبيناً له حكمة قصه هذا القصص الذى سبق ذكره ·· فيقول :

{ وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }
[الآية ١٢٠]

أى : وكل هذا القصص وما فيه ·· نقصه عليك نثبت به فؤادك ونقويه، حتى لا يتأثر بعناد قومك.
وجاءك فى هذه السورة الحق الذى لا خيال فيه، ولا كذب حوله وموعظة لمن ينتفع به ويعتبر وذكرى للمؤمنين الذين يتبعوك.

* * *

وأما المعاندون ·· فهددهم ··

{ وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ }
[الآيتان ١٢١ ، ١٢٢]

يعنى : قل للمعاندين، الكافرين الذين لا يؤمنون بما جئت به، ودعوت إليه، ولا ينتفعون به، ويتعظون بما جاء فيه اعملوا على مكانتكم وسيروا على طريقتكم الخاطئة كما تريدو، فــ إنا عاملون وسائرون على طريق الحق، كما هدانا الله.
وانتظروا بنا ما تريدون لنا من الهلاك إنا منتظرون كذلك ما ينزل بكم من الهلاك، وما ينعم الله علينا به من الفوز والفلاح.
وقد تحقق ما وعد الله به الفريقين.
حيث جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا [التوبة : ٤٠].

* * *

ثم ختمت السورة بهذا التوجيه الربانى.

{ وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }
[الآية ١٢٣]

أى : لا تخفى على الله خافية، حيث لله غيب السموات والأرض وسيجازى الجميع بما يستحقون، فى يوم إليه يرجع فيه الأمر كله.

لذلك :

فاعبده وحده وتوكل عليه وحده ، يجزيك خيراً، ويقيك شراً.

وما ربك بغافل عما تعملون جميعاً، المؤمنون والكافرون، وسيجازى المؤمنين بعفوه ورحمته، والكافرين بعذابه ونقمته.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأحبة الكرام ..

لما ختمت سورة هود بقوله تعالى وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ٠٠.

جاءت هذه السورة بعدها، وفيها قصة رسول من هؤلاء الرسل الكرام، وهو يوسف عليه السلام.

فإلى سورة يوسف.

يقول تعالى :

{ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }
[الآيتان ١ ، ٢]

{الر} سبق الكلام عليها .

تلك هذه آيات الكتاب المبين بين يديك واضحة، بينة، سهلة، لا خفاء فيها ولا إبهام ٠٠ فيها الهدى والنور، فيها الهداية والفلاح ٠٠ فاتبع ما فيها، واعمل به.

إنا أنزلناه أى هذا الكتاب، على محمد صلى الله عليه وسلم قرآنا عربياً بأفصح اللغات، وأكثرها بياناً، وأوسعها انتشاراً، لعلكم تعقلون وتفهمون ما فيه، وتعملون به، فتسعدون فى الدنيا والآخرة.

* * *

يا حبيبى ٠٠ يا محمد ٠٠

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ }
[الآية ٣]

أى : نحن نقص عليك فى هذا الكتاب، وهو القرآن أحسن القصص الذى يتضمن العبر والحكم والعجائب، والذى ليس فيه إلا الحقائق بما أوحينا إليك أى : فيما نوحيه إليك.

وإن كنت من قبله أى : من قبل هذا القرآن، أو من قبل هذا القصص من الغافلين عنه، وعن معرفة ما فيه.

ولذلك : فهو ليس من عندك، بل من عند الله الذى أوحاه إليك قرآناً عربياً، وقصصاً واقعياً.

* * *

ومن هذا القصص : قصة يوسف عليه السلام .

{ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ }
[الآية ٤]

أى : اذكر يا محمد وقت أن قال يوسف لأبيه ذات يوم بعد أن استيقظ من نومه بكل أدب يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً ورأيت الشمس والقمر كذلك رأيتهم جميعاً لى ساجدين.

* * *

وفهم أبوه تأويل الرؤيا، وعرف أن يوسف سيكون ذا شأن، وأن إخوته سيخضعون له .
فخاف عليه من حسد إخوته له .
لذلك :

{ قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ }
[الآية ٥]

يعنى : يا يوسف لا تحدث إخوتك بهذه الرؤيا، حتى لا يوقع الشيطان بينهم وبينك، فيكيدوا لك كيداً يؤذونك به، حيث إن الشيطان للإنسان عدو مبين.
فاحذر عداوة الشيطان، ولا تقصص رؤياك هذه على إخوتك.
وهكذا حذره أولاً.

* * *

ثم أشار إلى تفسير الرؤيا ثانياً ..
فقال له :

{ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }
[الآية ٦]

أى : وهكذا ٠٠ تدل رؤياك يا بنى على :
أن يجتبيك ربك ويختارك ويصطفيك لنبوته .
و كذلك يعلمك من تأويل الأحاديث أى : تعبير الرؤى وتفسيرها.
و ثالثاً يتم نعمته عليك بالإيحاء إليك، وإرسالك برسالته وعلى آل يعقوب بعفوه عنهم وإدخالهم الجنة كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق.
إن ربك يا يوسف عليم بمن يستحق النبوة حكيم فيمن يختاره لها، ويشرفه بها.

* * *

يقول تعالى :

{ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ }
[الآية ٧]

أى : فى هذه القصة ٠٠ آيات ودلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وفيها عبر ومواعظ ودروس للسائلين، يستفيدون بها، وينتفعون منها، فى دنياهم، وآخرتهم .

* * *

ثم يدعو ربنا عز وجل إلى تذكر هذه القصة وما فيها من دروس وعبر ٠٠
فيقول :

{ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }
[الآية ٨]

يعنى : قال بعض إخوة يوسف لبعضهم الآخر : نحن عشرة رجال نخدم آباءنا ونقوم على رعايته، ومع ذلك فهو يحب يوسف وأخاه، وهما الصغيران عنا، أكثر مما يحبنا نحن.
إن أبانا بهذا التصرف لفى ضلال عن الصواب مبين واضح.

* * *

وكأن أحدهم قائلاً : ماذا تقترحون أمام هذا الفعل من أبينا ؟
فكان الجواب من أحدهم :

{ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ }
[الآية ٩]

أى : ابعدوا يوسف عن وجه أبيكم ·· بأن تنفوه من الحياة بالقتل، أو من الأرض التى فيها أبوكم بنفيه إلى أرض بعيدة عنه .

وفى هذه الحالة : يكون حب أبيكم لكم وحدكم، ويعاملكم بعده معاملة حسنة، تكونون بها صالحين معه، أو صالحين فى نظره، أو صالحين بتوبتكم وندمكم على ما تفعلونه بيوسف.

* * *

ويبدو ·· أن الجميع وافق على اقتراح القتل ··
ولكن ..

{ قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ }
[الآية ١٠]

يعنى : رفض واحد منهم اقتراح القتل، وبدأ يشرح لهم كيفية إبعاد يوسف عن وجه أبيهم ·· ألقوه فى غيابة الجب أى : فى قاع البئر، فهو أهون من القتل، وأحرى أن يلتقطه بعض السيارة الذى يسيرون فى الطريق، فيأخذونه معهم، ويبعدونه عن أبيكم، وهذا أسلم له ولكن إن كنتم فاعلين شيئاً مما تقترحون.

* * *

واقتنعوا بالاقتراح.
وتوجهوا إلى أخيهم؛ ليتسنى لهم تنفيذ ما يريدون.
وطلبوا منه أن يخرج معهم ··
وذهب يوسف ليستأذن أباه ··
فرفض أبوه أن يذهب يوسف معهم ··
وهنا ·· توجهوا إلى أبيهم ··

{ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ }
[الآية ١١]

أى : لم لا ترسله معنا، وتأمننا عليه، فنحن حريصون على مصالحه، حريصون على صيانته من كل أذى.

* * *

ثم قالوا يا أبانا ٠٠

{ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }
[الآية ١٢]

أى : اتركه يأتى معنا غداً إلى الصحراء يرتع فى أكل الفواكه، وما يحب ويلعب كما يلعب من فى سنه، وينطلق كما يحب وإنا له لحافظون من كل مكروه وأذى.

* * *

وهنا ٠٠

{ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ }
[الآية ١٣]

يعنى : قال لهم أولاً ٠٠ إنى ليحزننى ويؤلم قلبى أن تذهبوا به بعيداً عنى؛ فأصاب بالقلق عليه.
وثانياً أخاف عليه أن يأكله الذئب منكم، وأنتم عنه غافلون مشغولون بأموركم .

* * *

وسكتوا عن السبب الأول ٠٠ وهو حزن أبيهم على يوسف، ولكنهم أجابوا عن السبب الثانى ٠٠ وهو خوف أبيهم عليه من الذئب .

{ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ }
[الآية ١٤]

أى : قالوا لأبيهم كيف يأكله الذئب ونحن عصبة أى جماعة نستطيع الدفاع عنه ٠٠ لا يمكن أن يأكله الذئب، فأرسِله معنا.

* * *

فأرسله معهم ٠٠
وذهبوا به بعيداً عن أبيهم.

{ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ }
[الآية ١٥]

أى : فلما ذهبوا به بعيداً عن أبيهم، وعن العمران، واستقر رأيهم على نفيه بعيداً عنهم وأجمعوا كذلك على أن يجعلوه فى غيابة الجب أى فى قاع البئر، كما اقترح واحد منهم سابقاً ٠٠ نفذوا ما أجمعوا عليه، وألقوه فى قاع البئر، وتركوه، وانصرفوا.

وهنا يقول رب العزة :

وأوحينا إليه وهو فى الجب ؛ اطمئنانا لقلبه، وتثبيتاً لفؤاده لتنبئنهم بعد ذلك بأمرهم هذا الذى فعلوه معك وهم لا يشعرون الآن أنه يوحى إليك، ولا يشعرون أنك ستنبئهم بما يفعلون.

* * *

وانصرف إخوة يوسف من عنده، وتركوه.

{ وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ }
[الآية ١٦]

أى : عادوا إلى أبيهم فى المساء، وهم يبكون ويتباكون ٠٠
وكأن أباهم سألهم ٠٠ لماذا تبكون ٠٠؟
فاعتذروا لأبيهم عما وقع ليوسف فيما زعموا ٠٠

{ قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ }
[الآية ١٧]

يعنى : قالوا وهم يكذبون على أبيهم يا أبانا إنا ذهبنا نستبق أى : نتسابق مع بعضنا البعض وتركنا يوسف وحده عند متاعنا من ثياب وغيرها فأكله الذئب ونحن بعيدون عنه.

وما أنت بمؤمن لنا أى : ما أنت بمصدق لنا فيما نقول، حتى ولو كنا صادقين أى : لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق، فضلاً عن أنك لا تثق فينا أصلاً لحبك ليوسف، بل تسىء الظن بنا.

* * *

{ وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ }
[الآية ١٨]

والمعنى : وجاءوا على قميصه لأبيهم بدم كذب لأنه ليس بدمه عليه السلام، وذلك ليقنعوا أباهم أن الذئب أكله كما يزعمون.

ولكن ذلك لم يقنع نبى الله يعقوب، الذى سكت ولم يناقش حيث قال لهم فقط بل سولت لكم أنفسكم أمراً الله أعلم به.

وأما أنا فصبر جميل أتحلى به على تحمل هذه المصيبة التى تزعمونها والله المستعان يقوينى على تحمل ما تصفون أنه حدث ليوسف.

* * *

ثم ينتقل السياق من حوار يعقوب وأولاده، إلى يوسف القابع فى أسفل الجب.
حيث يقول سبحانه :

{ وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَـذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ }
[الآية ١٩]

أى : وجاءت مجموعة من الناس سيارة من مدين إلى مصر، لبعض أغراضها ومصالحها، فنزلوا قريبا من هذا البئر الذى فيه يوسف ليستريحون.

فجلسوا، وأكلوا، وعطشوا فأرسلوا واردهم أى : أحدهم يريد الماء ليأتى لهم به، فذهب إلى البئر فأدلى دلوه الذى ينزع به الماء، فى البئر، فتعلق به يوسف، فأخرجه الساقى.

فلما رآه بعير وأبصر حسنه قال على الفور يا بشرى طيبة هذا غلام رزقنا الله به.

ورجع به إلى الرفقة السيارة، وتشاوروا فى أمره، واتفقوا على بيعه، وأسروه بضاعة أى : أخفوا أمره ليبيعوه.

والله عليم بما يعملون وما يفكرون فيه، قادر على صنعه، ولكن له حكمة فى ذلك سبحانه وتعالى.

* * *

وتحركت القافلة تسير، ومعها يوسف، من مدين إلى مصر.
ووصلت القافلة مصر.

{ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ }
[الآية ٢٠]

يعنى : وشروه أى : باعوه بثمن بخس أى : زهيد قليل، عبارة عن دراهم معدودة قليلة.
وما ذلك إلا لأنهم كانوا فيه من الزاهدين الذين يرتضون أى ثمن له، لأنهم لم يدفعوا فيه شيئاً.

* * *

واشتراه أحد رجالات مصر.
وذهب به إلى بيته.

{ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }
[الآية ٢١]

أى : لما وصل هذا الرجل الذى اشتراه إلى بيته، وهو فرح به، قال لامرأته أكرمى مثواه أى : أحسنى إقامته عندنا، واعتنى به، وأحسنى إليه عسى أن ينفعنا مالاً إن بعناه، أو معاونًا لنا إن أبقيناه أو نتخذه ولداً لنا.

واستقر يوسف فى هذا البيت.

ومن تدبير الله أن هذا البيت .. كان بيت عزيز مصر، الذى يقوم على خزائنها، يعنى : وزير المالية، أو وزير الخزانة بلغة العصر.

و كما نجينا يوسف من مكر إخوته، وأنقذناه من الجب، وعطّفنا عليه قلب العزيز.

كذلك أخذنا فى سلسلة الإنعام عليه.

حيث مكنا ليوسف فى الأرض أى : بدأنا به رحلة التمكين فى أرض مصر.

و أيضاً لنعلمه من لدنا تأويل الأحاديث فهم الأمور، وتعبير الرؤى.

يا سبحان الله .. إخوته كانوا يفكرون ويحتالون لإيذائه، والسيارة يبيعونه عبداً رقيقاً.

والله غالب على أمره يفعل ما يشاء، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما يخبئه القدر، ولا ماذا يريد الله.

* * *

وأقام يوسف فى بيت العزيز ٠٠

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ٢٢]

يعنى : لما تم خلقه، واكتمل عقله آتيناه حسن فهم، وصلاح عمل، وبعداً عن الرذائل.
وكذلك عادتنا وسنتنا نجزى المحسنين جزاءً حسناً.

* * *

ولكمال عقل يوسف، وحسن منظره، وجميل صفاته، وطيب خلقه، وحلو حديثه، وأدبه الجم ٠٠أحبه كل من حوله.
وأحبته امرأة العزيز، حباً شديداً.
وصارت تتجمل له، وتتعرض إليه.
حتى وصل الحال ٠٠ إلى ما يقول القرآن :

{ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ }
[الآية ٢٣]

أى : راودته امرأة العزيز التى تملك أمره، حيث هو يقيم فى بيتها وحدثته عن نفسه وطلبت منه أن يواقعها، و كانت ساعة إذ قد غلقت الأبواب عليهما.
وقالت له صراحة : تعال إلى ٠٠ افعل ما أريده منك، فقد تهيأت لك، وتجملت من أجلك، وطال شوقى إليك.
ولكنه قال لها على الفور معاذ الله أعوذ بالله وألجأ إليه أن يحمينى، وينجينى مما طلبت وتريدينه منى.
ثم قال : كيف أفعل ما تريدين، وزوجك إنه ربى الذى أكرمنى فى هذا البيت، وأحسن مثواى إقامتى فيه؟ كيف أخونه؟ إنى لو فعلت ذلك، وهذا محال ٠٠ أكون من الظالمين، حيث إنه لا يفلح الظالمون يعنى : فكيف تخونينه أنت ٠٠؟

* * *

هذا هو التصرف الحسى الظاهرى، الذى حدث بين امرأة العزيز، ويوسف عليه السلام.
ويصور القرآن التصرف النفسى الخفى الذى كان منهما فى قوله تعالى :

{ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ }
[الآية ٢٤]

أى : همت به مع قصد وتصميم وعزم ليوافقها، وهم بها عليه السلام هم خاطر بحكم الطبيعة البشرية، دون قصد أو تصميم أو عزم على الفعل لقوة إيمانه، وشدة يقينه، وتركه لله؛ فأثابه الله عليه .

نعم ·· وهم بها لولا أن رأى برهان ربه لكان ما كان، ولذا لم يكن منه شىء، وهذا فهم أقرب إلى الطبيعة البشرية منه إلى العصمة النبوية .

أى : لم يتجاوز همه – عليه السلام – الميل النفسى فى لحظة من لحظات الضعف البشرى، ثم تداركته العناية الإلهية، جزاء إحسانه وصبره الطويل ومثابرته فى جهاد النفس والشيطان، بالبرهان المثبت على الحق، والمعين على الصمود، والصارف عن الخطيئة .

وأما هذا البرهان الذى رآه ·· فلم يبينه القرآن، ونحن لهذا الموقف نستريح .

كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء أى : على هذا النحو من رعايتنا له، وإنعامنا عليه، أريناه برهاننا؛ لنصرف عنه السوء والفحشاء، ونقيه أخطارهما.

إنه من عبادنا المخلصين الذين صححوا عقيدتهم، وصدقوا فى عباداتهم، وطهروا أخلاقهم، وأحسنوا فى معاملاتهم؛ إخلاصاً لله تعالى.

* * *

ولكن ··
هل انتهت العاصفة فى بيت العزيز ··؟
وهل سكت الانفجار الداخلى من امرأة العزيز ·· بامتناع يوسف، وإبائه الشديد ··؟
كلا ·· كلا ··
لقد ..
جرى منها ·· جهة الباب، ليخرج منه.
وجرت خلفه نحو الباب، لئلا يخرج منه.

{ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية ٢٥]

أى : أنها لحقت به، وأمسكته من الخلف، وهو يحاول الهروب منها، والخروج من أبوابها التى غلقتها.

وقدت قميصه من دبر وهذا أمر طبيعى ٠٠ أن يكون التمزق من موضع هذا الشد والجذب، وهو الخلف.

وعقب هذا الشد والجذب والقد للقميص : تقع المفاجأة ٠٠

ألفيا سيدها لدى الباب.

فماذا حدث ٠٠؟

سكت يوسف عليه السلام، سترا عليها، وإيثارًا للسلامة.

وأما هى ٠٠ فكان جوابها حاضراً، واتهامها للبرىء جاهزاً، ودفاعها الزور عن نفسها واضحاً، واستغفالها لزوجها بادياً.

حيث قالت لزوجها ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا.

ولم يكن هذا سؤال استفهام، بل سؤال اتهام.

إذّ جعلت من نفسها الخصم والحكم، أو القاضى والجلاد؛ لأنها قالت إلا أن يسجن أو عذاب أليم.

وهكذا ٠٠ حكمت عليه بالإبقاء تحت سلطانها، ليكون تحت عينها، ورهن محاولات أخرى منها.

كما حكمت بسرعة لتقطع الطريق على زوجها ٠٠ أن يسأل، أو يستفسر، أو يعرف، ولتغلق الباب على يوسف أن ينطق، فيكشف ما حدث.

* * *

وأما يوسف ٠٠ فلم يصبر أن يطعن فى شرفه، وأن يتهم بالخيانة لسيده، والمعصية لخالقه؛ خاصة وأن الدعاة قدوة، وإذا تحطمت القدوة ٠٠ تهدمت الدعوة.

حيث :

{ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ }

[الآية ٢٦]

أى : قال يوسف ٠٠ فى عبارة موجزة عفيفة هى راودتنى عن نفسى فقط، ولم يقل غير هذا.

* * *

الأمر إذن يحتاج إلى دليل يؤيد أحد الطرفين ٠٠

وليكن الدليل على يد واحد من أهل امرأة العزيز، ودون ضجة، ودون صخب، ودون دوى إعلامى.

نعم وشهد شاهد من أهلها.

ولكن بماذا ٠٠؟

إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين.

هذا ما يتمنونه ٠٠ أن تكون صادقة فى دعواها.

* * *

ولكن من باب استكمال الشهادة ٠٠ حتى لا يتهم بالتحيز، وهو بالفعل متحيز ٠٠ قال :

{ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ }
[الآية ٢٧]

وهذا ما لا نتمناه، ولا نرجو أن يكون.

* * *

على كل حال ٠٠ لابد من المعاينة ٠٠ فلننتقل الآن إلى المعاينة التى تبين حقيقة هذا الاتهام، وبراءة هذا أو تلك .

ونظر إلى القميص الذى يرتديه يوسف عليه السلام.

ونظر معه الجميع.

فماذا رأى ٠٠؟

رأى قميص يوسف ٠٠ قُدَّ وقطع من الخلف.

{ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ }
[الآية ٢٨]

يعنى : فلما رأى قميص يوسف قد من دبر تبين له، وللعزيز : أنها هى التى راودته عن نفسه، إذن هو صادق، وهى التى دبرت هذا الاتهام.

فماذا يفعلون إذاً ٠٠؟

لا شىء غير الميل الشديد إلى كتمان الخبر، والعجز الأشد عن مواجهة الجانى بجريمته.

حيث صدر الحكم، الذى يبرر الفعل، ويلتمس لصاحبه العذر.

قال هذا الشاهد إنه أى هذا الذى حدث من كيدكن أيتها النساء، لاحظ عدم مواجهة امرأة العزيز صراحة إن كيدكن عظيم.

* * *

أى : يا يوسف ·· انس هذا الموضوع، ولا تفاتح به أحداً، واستمر فى حياتك فى القصر كما أنت .
ثم توجه ليوسف ولها قائلا :

{ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ }
[الآية ٢٩]

وأما أنت ·· فاستغفرى لذنبك، الذى صدر منك على سبيل الخطأ إنك كنت ساعتها من الخاطئين وكأنه قبل عذرها، وزال خطؤها.

وهكذا ·· تمت المعاينة، وصدر الحكم، دون ضجة إعلامية؛ لأن المجرم من "الطبقة الراقية الحاكمة" التى تتستر خلف المظاهر، بل تحافظ عليها.

ولو ظهر ·· أن المجرم فيها يوسف، لصدرت الأحكام، ودوت بها أجهزة الإعلام، ونفذت القوانين بمنتهى الشدة والصرامة، من باب إظهار العدل، وإنقاذ القانون، واحترام الحقوق.

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

عشنا مع يوسف هذه اللحظات العصيبة ورأينا كيف أنه اعتصم بالله، وتعالى على الفاحشة، وأظهر الله براءته، وبين طهر ساحته عليه السلام.

فهل انتهت هذه المحنة ··؟

لا ·· أبداً .

فيوسف عليه السلام ·· لم يخرج من القصر، بناءً على رغبة أهل القصر.

وهل خفيت هذه الفضيحة، التى كانت، ومات خبرها ··؟

أبدًا .. أبدًا ..

لقد انتشر – بين نساء طبقة القصور – أمرها .

{ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }
[الآية ٣٠]

نعم ·· لما عرفت هؤلاء النسوة بما كان ··

امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه وتدعوه، لتنال منه شهوتها؛ لأنه قد شغفها حباً .

هذا لا يليق بها، ولا بمركزها الاجتماعى، ولا بمكانة زوجها.

إنا لنراها فى ضلال مبين لأنها أخطأت فى الاختيار، وفى اشتهار أمرها ·· إذّ إنها لو أحسنت اختيار غير غلامها، أو نجحت فى إخفاء أمرها ما كانت فى ضلال مبين.

إذن ·· فالمنتقد عندهن ليس الفعل ·· بل طريقة الفعل.

* * *

لذلك ..

{ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ }

[الآية ٣١]

أى : فلما سمعت امرأة العزيز .. بانتقاد هؤلاء النسوة لها، أرسلت إليهن دعوة على طعام وأعتدت لهن متكأ مقاعد وثيرة؛ يجلسن عليها، ويسترحن فيها، وقدمت لهن الفاكهة التى تحتاج إلى تقطيع وتقشير وآتت كل واحدة منهن سكيناً لتستعملها فى الفاكهة.

وقالت ليوسف اخرج عليهن أى : ادخل عليهن.

فلما دخل ورأينه للوهلة الأولى .. حدث ما يلى :

أكبرنه أى : أعظمنه، ودهشن لذلك الحسن الرائق، والجمال الفائق، وذهلن ذهولاً شديداً.

وقطعن أيديهن أى : جرحن بالسكاكين اللاتى يمسكنها أيديهن من فرط ذهولهن بجماله.

و ثالثاً قلن حاش لله ما هذا بشراً فقد رأينا البشر، إنه من أحسن خلق الله .. إنه ملك .. لا ليس ملكاً فقط .. بل إن هذا إلا ملك كريم.

وكأن هذا اعتراف منهن بعذر امرأة العزيز فيما كان منها.

وفهمت ذلك هى .. من حالهن وذهولهن.

* * *

ولذلك ..

{ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ }

[الآية ٣٢]

أى : قالت لهن فذلكن يوسف الذى عرفتن قصته معى، ولمتننى فيه.

ولقد راودته عن نفسه كما بلغكن فاستعصم وأبى.

و إنى أعلنها أمامكم وأمامه صريحة لا مواربة فيها لئن لم يفعل ما آمره به، وأريده منه ليسجنن مع السراق فى السجن، كما سرق قلبى وليكونا من الصاغرين الأذلاء، فلا يهنأ بعيش ولا منام.

وبهذا التهديد .. حسمت الموقف، وأعلنت الحرب أمام الجميع.

فماذا كان موقف يوسف عليه السلام ٠٠؟

* * *

لم يكن له إلا اللجوء إلى مولاه ٠٠ فى هذه الحرب التى لا يملك فيها غير سلاح الإيمان، والتحلى بالصبر فى مواجهة المحن.

حيث ٠٠

{ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ }
[الآية ٣٣]

يعنى : قال يوسف، بعد أن سمع الوعيد والتهديد، ورأى الإصرار العنيد، وموقف النسوة العجيب.

رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه أى : حبس حريتى فى السجن، والتعذيب فيه ٠٠ أحب إلىَّ من الوقوع فى المعصية، التى تبعدنى عنك، وتحرمنى من رحمتك.

ثم بين علة هذا الاختيار ٠٠ فقال :

وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن أى : اصرف يا رب عنى كيدهن، فأنا بشر ضعيف، قد أخطئ بحكم بشريتى، ولو حدث أكن من الجاهلين العاصين لله.

* * *

ولأن يوسف كان صادقاً فى لجوئه إلى الله، وفى هذا الدعاء.

ولأن كل من دعا الله صادقاً ٠٠ استجاب له مولاه.

يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }
[الآية ٣٤]

نعم ٠٠ استجاب له ربه ٠٠!!

فصرف عنه كيدهن بصرف رغباتهن عنه، أو إدخال اليأس إلى نفوسهن من الأمل فى استجابته.

* * *

ولكن ..

ماذا بعد أن اتضحت براءة يوسف عليه السلام، وبعد أن اتضحت قوة شخصيته، ومدى الصدق فى تمسكه بمبادئه، وخوفه من ربه ..؟

ماذا يكون الحل .. والسيدة الكبيرة مصرَّة على رغبتها، وهو متمسك بإيمانه، والفضيحة صارت تنتشر ..؟

وكان الحل الذى يسهل على كل الطغاة : هو السجن.

نعم ..

{ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ }
[الآية ٣٥]

أى : ثم بعد التفكير فى إنقاذ الموقف، والحفاظ على سمعة القصر بدا لهم الرأى الصائب، فيما يرون وذلك من بعد ما رأوا الآيات الدالة على صدقه، والعلامات الدالة على قوة موقفه ليسجننه ولا تهم براءته حتى حين تهدأ عاصفة سيدة القصر، أو حتى يموت فى سجنه وتموت معه القضية برمتها.

* * *

ونفذوا ما أرادوا .. ودخل يوسف السجن.

{ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ٣٦]

ولما دخل السجن، وتفرغ لعبادة ربه، ومساعدة المسجونين، أحبه الجميع، ووثقوا فيه.

ودخل معه السجن فتيان اقتربا منه، وقص عليه كل منهما رؤيا رآها فى منامه؛ ليعرف منه تأويلها.

قال أحدهما وكان ساقياً للملك إنى أرانى فى منامى أعصر خمراً أى: عنباً.

وقال الآخر وكان خباز الملك إنى أرانى فى منامى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه وهو فوق رأسى.

ثم قالا له نبئنا بتأويله أى : أخبرنا بتفسير ما قلناه لك إنا نراك من المحسنين فى العلم وفى العمل.

* * *

وهنا ينتهز يوسف عليه السلام .. ليبث فى السجن والسجناء العقيدة الصحيحة، التى يدين بها، ويدعو إليها.

حيث :

{ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ }
[الآية ٣٧]

نعم ٠٠ قال يوسف لهما، وهما فى شوق لسماعه كسبا لثقتهما، وتدليلاً على قدرته على تأويل رؤياهما لا يأتيكما طعام يرزقانه أى : من رزق الله لكما إلا نبأتكما أى : أخبرتكما به، نوعاً، ووصفاً قبل أن يأتيكما.
وكأنهما قالا ٠٠ من علمك هذا ٠٠؟
قال ذلكما مما علمنى ربى
وكأنهما قالا ٠٠ من ربك هذا ٠٠؟
وكأنه قال : ربى الله.
ثم أضاف قائلاً :
إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون.

* * *

ثم واصل قائلاً، وهما يستمعان إليه فى لهفة وشوق.

{ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ }
[الآية ٣٨]

أى : بعد أن تركت دون أن أعتنق ملة الكافرين ٠٠ اتبعت واعتنقت ملة أى : دين آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب وهى توحيد الله؛ حيث ما كان ينبغى لنا أن نشرك بالله من شىء ولا ينبغى لأحد من الخلق كذلك.
ذلك الدين من فضل الله علينا وعلى الناس حيث نعبد ويعبدون الله وحده، فينال وينالون رضاه.
ولكن أكثر الناس لا يشكرون ربهم الذى خلقهم على إنعامه عليهم.

* * *

وبعد أن رسخ هذه الأمور الإيمانية فى قلوبهم نادى عقولهم قائلاً :

{ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ }
[الآية ٣٩]

يعنى : يا صاحبى السجن ٠٠ أخبرانى بربكما ٠٠ أيكون لهذا الكون رب واحد قهار قادر، أم أرباب متعارضون متفرقون ٠٠؟

أيهما خير ٠٠ لهذا الكون، ومن فيه؟

* * *

ثم أضرب عن الإجابة، وواصل قائلاً :

{ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }
[الآية ٤٠]

أى : يا صاحبى السجن ما تعبدون أنتم وأقوامكم من دونه أى : غير الله إلا أسماءً لا مسميات ولا حقيقة لها سميتموها من عندكم، واختلقتموها أنتم وآباؤكم وهى معبودات وهمية ما أنزل الله بها من سلطان أى : دليل.

والصواب فى الأمر ٠٠

أنه إن الحكم والحاكمية والعبادة، لا تكون إلا لله الذى خلق الجميع، ورزق الجميع.

وقد أمر سبحانه ألا تعبدوا إلا إياه وحده.

وذلك هو الدين القيم الثابت، الذى دلت عليه الشواهد، والبراهين، والذى أدعوكما إليه.

وهذا أمر واضح غاية الوضوح.

ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

* * *

ثم قال لهما : بعد هذه الجولة الدعوية مفسراً رؤياهما :

{ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ }
[الآية ٤١]

يا صاحبى السجن ٠٠ هذا تفسير رؤياكما.

أما أحدكما هكذا دون تحديد له فيخرج من السجن، ويعود لعمله ويسقى ربه خمراً أى : يصير مرة أخرى ساقى الملك.

وأما الآخر هكذا دون تحديد له ٠٠ فيقتل، ويصلب، فتأكل الطير من رأسه.

وهنا : قالا له ٠٠ "ما رأينا شيئاً" وذلك من هول ما قال، لأحدهما.

قال قضى الأمر الذى فيه تستفتيان.

* * *

ثم تحول إلى أحدهما.

{ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ }
[الآية ٤٢]

يعنى : قال يوسف للذى ظن أنه ناج من القتل منهما وسيخرج من السجن، وسيعود بعمله فى بلاط الملك اذكرنى عند ربك أى : اذكر حكايتى، وقصتى التى دخلت بها السجن ظلماً، حتى يعرف الملك براءتى، وأخرج من هذا السجن.

* * *

ويتحقق تفسير يوسف للرؤيا ٠٠

ويخرج ساقى الملك من السجن، ويعود لعمله عند الملك.

ولكن أنساه الشيطان ذكر يوسف وقضيته عند ربه فلبث أى : مكث يوسف نتيجة لذلك فى السجن بضع سنين محبوساً.

* * *

ومضت الأيام، ويوسف فى السجن كما هو.

{ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ }
[الآية ٤٣]

واجتمع الملأ، وهم المقربون من الملك، والعرافون، والمنجمون، لتفسير هذه الرؤيا.
ولكنهم لم يعرفوا لها تأويلاً.
ولذلك، وبعد تفكير طويل منهم ..

{ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ }
[الآية ٤٤]

أى : قالوا للملك .. هذه ليست رؤيا ولكنها أضغاث أحلام أى : أخلاط وأباطيل من أحاديث النفس، ووسوسة الشيطان وما نحن بتأويل هذه الأحلام بعالمين ولو كانت رؤيا لفسرناها لك.

* * *

ولم يسترح الملك لكلامهم، وظل فى حيرته، وشعر بذلك من حوله، ومنهم ساقى الملك.
وتذكر يوسف الذى كان معه فى السجن ..

{ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ }
[الآية ٤٥]

أى : قال الذى نجا منهما أى : من صاحبى يوسف فى السجن، والذى كان قد نسى أمر يوسف، وادكر أى : تذكر الآن بعد أمة أى : مدة مضت نسى فيها أمر يوسف.
قال أنا أنبئكم أى : أعرف من ينبئكم بتأويله أى : بتفسير ما رآه الملك، وعجزتم عن تفسيره.
فأرسلوني إليه، ولم يصرح باسمه، حتى يكون صاحب السبق عند الملك.

* * *

وخرج هذا الساقى من عند الملك ..
وذهب إلى السجن الذى فيه يوسف.
ودخل عليه .. وقال :

{ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ }
[الآية ٤٦]

أى : قص عليه رؤيا الملك.

وطلب منه تفسيرها ‥ ثم قال لعلى أرجع إلى الناس أى الملك وحاشيته بما تقول لعلهم يعلمون الحق فى أمر هذه الرؤيا، التى وصفوها بأنها أضغاث أحلام، وكذلك : يعلمون فضلك، وعلمك، فيعرفوا قصتك، وأنك سجنت زوراً.

* * *

ودون تباطؤ، أو مساومة، أو عتاب، أو اهتمام بقضيته ‥ يفسر يوسف عليه السلام للفتى رؤيا الملك، بتفسير عجيب غريب.

{ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ }

[الآيات ٤٧ – ٤٩]

أى : قال له ‥ ازرعوا الأرض بأنواع المزروعات، سبع سنين متوالية، دأباً أى : بجد واهتمام.

فما حصدتم من هذه المزروعات فذروه فى سنبله ليظل رصيداً سليماً محفوظاً إلا قليلاً مما تأكلون منه فكلوه.

ثم يأتى من بعد ذلك أى : من بعد هذه السنوات السبع الطيبة سبع سنوات شداد عجاف، لا تنبت الأرض فيهن شيئاً، ولذلك هذه السبع العجاف يأكل أهل البلاد، فيهـــ ن ما قدمتم لهن مما كان محفوظاً، ولا يبقى عندكم إلا قليلاً مما كنتم تحصنون أى تتركونه فى الحصون.

ثم يأتى من بعد ذلك أى : من بعد هذه السنوات الأربع عشرة، على البلاد وأهلها عام فيه الرخاء، وسعة الرزق، ولذلك يغاث الناس بعد الشدة وفيه يعصرون أى : يكثر الخير ويتنعمون به، ويتفكهون فيه.

* * *

وذهب الساقى بهذا التفسير للملك، لا ‥ بل بهذا التخطيط لإدارة الأزمة التى سوف تمر بالبلاد، والتى رآها الملك فى منامه.

وتعجب الجميع ‥

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ }

[الآية ٥٠]

أى : قال الملك بعد أن سمع هذا التفسير ائتونى به لأراه بنفسى، وأسمع تأويله بأذنى، وأختبر درجة علمه.

وذهب رسول الملك ببشرى الخروج من السجن ليوسف.

فلما جاءه الرسول وبلغه أمر الملك.

لم يهرول، ولم يسارع فى الخروج .. بل قال لهذا الرسول فى أناة وثقة، وصبر ويقين، وحرص على سلامة القدوة ومسيرة الدعوة، وإظهار الحق ارجع إلى ربك أى : سيدك ومليكك فاسأله أولاً ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن أى : ما خبر هؤلاء النسوة اللاتى قطعن أيديهن بالسكاكين فى بيت العزيز ذات يوم، لأنى أريد أن تظهر الحقيقة قبل خروجى من السجن ويتضح براءتى، وأنا بعيد عن مجالس التحقيق.

إن ربى بكيدهن عليم وهو الذى صرف كيدهن عنى، وهو الذى سوف يظهر براءتى.

* * *

وهنا .. فتح الملك دفاتر هذه القضية، التى تناساها الجميع، وأحضر النسوة، وسألهن.

{ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ }

[الآيتان ٥١ ، ٥٢]

أى : قال الملك، أو المحقق .. ما قولكن فى حقيقة موضوع مراودة يوسف ..؟

قلن جميعاً، ولم تشذ واحدة منهن حاش لله معاذ الله.

ما علمنا عليه من سوء .. سبحان الله، قالوها صراحة.

وقالت امرأة العزيز وقد تابت إلى الله من ذنبها الآن حصحص الحق وظهر واضحاً.

ثم قالت أنا راودته عن نفسه.

الله أكبر .. اعترفت المرأة نفسها، والاعتراف – كما يقولون – سيد الأدلة، وبذلك : ثبت صدق يوسف فى طهارته وبراءته.

حقاً إنه لمن الصادقين.

ثم قالت :

قلت ذلك الاعتراف ليعلم أنى لم أخنه بالغيب أى : لم أذكره بسوء، وهو غائب.

ثم قالت .. وقد تحولت – بفضل الله ، وطهارة يوسف – من فاجرة أولاً ، إلى مسلمة ثانياً، ثم إلى داعية ثالثاً ..

حيث قالت وأن الله لا يهدى كيد الخائنين بل لا ينفعهم أبداً كيدهم الذى يكيدونه.

وهذا كلام لا يصدر إلا من قلب دخله الإيمان، وسكنه النور الإلهى.

* * *

{ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٥٣]

أى : وما أبرئ نفسى مما أرادت وتمنت من سوء؛ حيث إن النفس لأمارة بالسوء فمن الناس من يطيعها، ومنهم من يقاوم انحرافها إلا ما رحم ربى أى : إلا نفساً رحمها ربى وطهرها، فصارت مطمئنة لا تأمر صاحبها إلا بخير، كنفس يوسف عليه السلام.

ثم أعلنت توبتها، وطلبت المغفرة من ربها قائلة إن ربى غفور رحيم أطمع فى عفوه وغفرانه ورحمته.

* * *

وعرف الملك، والحاشية، والدنيا كلها .. أن يوسف القابع فى السجن برىء، لم يقترف ذنباً، ولم يرتكب خطيئة.

وهو يوسف الذى فسر الرؤيا، وفيها التخطيط، الذى فسر به الرؤيا.

هنا ..

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ }
[الآية ٥٤]

أى : قال الملك وقد تعرف على شخص طاهر أمين عاقل فى مملكته ائتونى به لا لأسأله عن الرؤيا، ولا لأحقق معه فى قضية امرأة العزيز، ولكن أستخلصه لنفسى واتخذه مستشاراً لمملكتى.

وجاء يوسف.

ورآه الملك.

قال الملك ليوسف إنك اليوم لدينا بعد ما عرفناه عنك .. مكين أمين من الممكن أن تتخذ ما شئت من القرارات، وكذلك أنت مؤتمن، لا مراجع لك، ولا معقب عليك.

وكانت هذه بداية الابتلاء بالرخاء ليوسف عليه السلام، بعد انتهاء الابتلاء بالشدة ساعة خروجه من السجن.

* * *

ولأن يوسف يستشعر الأزمة القادمة على مصر، ويستشعر أيضاً مسئوليته على إدارتها، وقدرته – بعون الله – على إخراج البلاد سالمة منها.

فقد ..

{ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٥٥]

أى : قال للملك اجعلنى على خزائن الأرض أى : أرض مصر، ويبدو أنها كانت خزائن أرض الدنيا كلها، حيث إنى حفيظ عليم أمين على ما فى الخزائن، عليم بوجوه التصرف فيه.

* * *

وأجابه الملك على الفور.
وأصبح يوسف عليه السلام ٠٠ وزير الخزانة.

{ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ٥٦] }

أى : وبعد المحن الطويلة الثقيلة مكنا ليوسف فى أرض مصر يتبوأ منها يتصرف فيها ويدبر شئونها وينتقل فى أرجائها، حيث يشاء فالثقة فى عدالته متوفرة، واليقين فى إخلاصه موجود.
وهكذا نصيب أى : نخص ونعطى برحمتنا من نشاء من عبادنا.
والقاعدة الربانية، والسنة الربانية : أننا لا نضيع أجر المحسنين.

* * *

وليس هذا فقط ٠٠ بل كذلك :

{ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ }
[الآية ٥٧]

نعم ٠٠ أجر الآخرة ليوسف عليه السلام، ومن كان على طريقه من المؤمنين المتقين : أعظم وأفضل من كل أجر وفضل رأوه – أو يرونه – فى الدنيا.

* * *

ويتسلم يوسف عليه السلام مقاليد الوزارة، ويدير شئونها وتبدأ الأزمة، ويديرها يوسف بحكمته، ويتسامع أهل البلاد المجاورة عن الخير – فى بلاد مصر – خلال هذه الأزمة التى طبقت الآفاق.

ويحضر الناس إلى مصر من كل البلاد ٠٠ طلباً للغذاء.

{ وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ }
[الآية ٥٨]

أى : وجاء إخوة يوسف بسبب هذه الأزمة من بلاد كنعان، فدخلوا عليه طلباً للغذاء، مثل باقى الناس فعرفهم يوسف وهم له منكرون لا يعرفونه.

* * *

وحقق لهم مطالبهم، وجهز لهم جهازهم، وسألهم عن أحوالهم، واستخرج منهم بعض أخبارهم.

{ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ }
[الآية ٥٩]

أى : قال لهم، بعد أن أكرمهم ائتونى بأخ لكم من أبيكم الذى حدثتمونى عنه فى المرة القادمة لأراه، وأعرف صدقكم.
ثم قال لهم مرغباً ألا ترونى أنى أوفى الكيل الذى ترغبون فيه وأنا خير المنزلين لكم فيما تستريحون فيه من الأماكن ٠٠؟

* * *

ثم قال لهم – كذلك – مخوفاً ٠٠

{ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ }
[الآية ٦٠]

أى : إن لم يكن معكم فى المرة القادمة : فلا كيل لكم عندى، ولا بيع معكم ولا شراء منكم ولا تقربون كذلك بلادنا.

* * *

ونظراً لشدة حاجتهم إلى الطعام من مصر ٠٠ لم يرفضوا، بل ..

{ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ }
[الآية ٦١]

يعنى : سنحاول مع أبيه، ونقنعه أن يرسله معنا، وسيكون ما تريد، وسيحضر معنا فى المرة القادمة.

* * *

وإغراءً لهم على العودة ٠٠ فكر فى شىء :

{ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }
[الآية ٦٢]

أى : قال يوسف لرجاله : أعيدوا لهم بضاعتهم التى أحضروها معهم ليشتروا بها منا، وضعوها فى رحالهم دون أن يعرفوا لعلهم يعرفونها أى : يرونها إذا انقلبوا أى : عادوا إلى أهلهم، فيعرفون أن طعامنا كان هدية لهم بلا ثمن لعلهم بذلك يرجعون إلينا بأخيهم .

* * *

وتم ما أمر به يوسف فى أمر البضاعة ٠٠
وعاد إخوة يوسف بالطعام إلى بلادهم، وإلى أبيهم.

{ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }
[الآية ٦٣]

أى : قالوا لأبيهم، لقد أحضرنا الطعام هذه المرة، ولكن قد تنبه علينا أنه لا طعام لنا بعد ذلك إلا إذا كان معنا أخونا الذى تركناه معك والذى لم يأت معنا هذه المرة.

لذلك أرسل معنا فى المرة القادمة أخانا نكتل وهو معنا، ثم نأتى بالطعام وإنا له لحافظون من أى أذى أو مكروه.

* * *

أعاد هذا الطلب على هذا الوالد ·· ذكريات يوسف، الذى قالوا له عنه ذات يوم أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ··!!

ولذلك ··

{ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }
[الآية ٦٤]

يعنى : قال لهم ·· إنكم قلتم فى يوسف مثل ذلك من قبل، ولم توفوا بوعدكم فـــهل آمنكم عليه فيضيع منكم أيضاً ··؟

اتركونى، واتركوا لى ولدى ·· أنتم لا تحفظون أحداً، ولكن الله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

* * *

ويبدو أنهم عرفوا أن المحاولة مع أبيهم لن تنجح ··

إذن ·· فليستريحوا من عناء السفر، ثم – بعد ذلك – يفتحون متاعهم.

واستراحوا.

{ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ }
[الآية ٦٥]

الله أكبر ·· لما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ما هذا الكرم من عزيز مصر، طعام بلا ثمن ؟ إنه رجل كريم··

وتوجهوا إلى أبيهم بهذه المفاجأة السارة، وقالوا يا أبانا ما نبغى ماذا نريد أكثر من هذا ··؟

هذه بضاعتنا انظر إلينا، لقد ردت إلينا من هذا الرجل الكريم.

وحاولوا مرة أخرى معه بالنسبة لأخيهم ··

حيث قالوا : ما المانع أن ترسل معنا أخانا ونمير أهلنا نحضر لهم الطعام من مصر ونحفظ أخانا كما وعدناك، ولا خطر عليه كما رأيت من كرم أهل مصر ونزداد بوجوده معنا كيل بعير من الطعام.

ذلك يا أبانا أمر يسير، فلا تمانع فيه.

* * *

وأمام هذه المحاولات : استسلم الرجل الكبير على كره، ولكنه اشترط عليهم.

{ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ }
[الآية ٦٦]

أى : قال لهم لن أرسله معكم إلى مصر حتى تؤتون موثقاً من الله أى: تقسمون لى بالله، وتعطونى عهداً على أنفسكم لتأتننى به أى : تحافظون على ولدى، وتحضرونه لى إلا أن يحاط بكم أى : إلا إذا غلبتم على أمركم، وخرج الأمر عن إرادتكم.

وهنا ٠٠ سارعوا، وأقسموا، وآتوه موثقهم.

فلما آتوه موثقهم لم يكتف بذلك، بل

قال الله على ما نقول وكيل.

* * *

ثم وجه لهم النصيحة، ووصاهم بحنان الوالد، وخبرة المجرب، مفوضاً أمره وأمرهم لله.

{ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ }
[الآية ٦٧]

يعنى : قال لهم يا بنى لا تدخلوا مصر من باب واحد من أبوابها وادخلوا من أبواب متفرقة بعضكم من باب، وبعضكم من آخر؛ أخذاً بالأسباب، حيث إن النافع والضار هو الله وما أغنى عنكم من الله من شىء إن أراد لكم شيئاً غير ما أراد أنا إن الحكم إلا لله ولذلك فالإيمان يقتضى التفويض لله.

عليه توكلت وفوضت أمرى، وأمر يوسف، وأمر ابنى هذا، وأمركم جميعاً.

وعليه فليتوكل المتوكلون فتوكلوا عليه.

* * *

ولما جاء موعد السفر، سافر إخوة يوسف من عند أبيهم، ومعهم أخوهم.
وذهبوا إلى مصر، ودخلوا مصر، ونفذوا وصية أبيهم.

{ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }
[الآية ٦٨]

أى : لما نفذوا وصية أبيهم فى دخول مصر ٠٠ لم يمنع ذلك من قدر الله، كما سنعرف بعد قليل.
ولكنها كانت رغبة فى نفس يعقوب قضاها وصية وصاها لهم؛ لخوفه عليهم.
وإنه على كل حال لذو علم لما علمناه من قدر الله، ووجوب الإيمان به، والتسليم له، والصبر عليه.
ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولذلك : فأكثرهم لا يستسلمون راضين لقضاء الله وقدره، ولا يفوضون أمورهم لله.

* * *

{ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ٦٩]

أى : لما دخلوا هذه المرة على يوسف وكان معهم أخوهم الذى طلب يوسف عليه السلام رؤيته آوى إليه أخاه اختلى يوسف بأخيه، وعرفه بنفسه قال إنى أنا أخوك يوسف فلا تبتئس أى : فلا تحزن بما كانوا يعملون بنا – أنت وأنا – فيما مضى؛ فإن الله قد أحسن إلينا، وجمعنا على خير.

* * *

ويبدون أنه أمره بكتمان معرفته به عنهم.
كما أخبره أنه سيحتال عليهم ليبقيه عنده معززاً مكرماً عنده، لغرض يريده ٠٠ واتفقا على كتمان ذلك أيضاً.
يقول تعالى :

{ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ }
[الآية ٧٠]

أى : أعطاهم يوسف بضاعتهم، وأخفى فيها السقاية، وهى صواع الملك، وجعلها فى رحل أخيه أى : متاع أخيه.
ثم تظاهر أتباع يوسف عليه السلام ٠٠ أنهم يبحثون عنها، ثم اتهموا العير كلها، أى : أصحاب الجمال كلهم بالسرقة.

* * *

وفزع إخوة يوسف.

{ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ }
[الآية ٧١]

أى : اقترب إخوة يوسف من أتباع يوسف، وسألوهم قائلين ماذا تفقدون؟ أى : ما الذى ضاع ٠٠؟

* * *

{ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ }
[الآية ٧٢]

قالوا أى : أجاب رئيس هؤلاء الأتباع قائلاً : الذى ضاع هو صواع الملك، الذى يشرب به، والذى نكيل به الطعام.
وعلى كل حال لمن جاء به ورده إلينا ٠٠ مكافأة كبرى، وهى حمل بعير من الطعام.
ثم قال هذا الرئيس وأنا به زعيم أى : كفيل بدفع هذه المكافأة.

* * *

واستنكر إخوة يوسف هذا الحدث.

{ قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ }
[الآية ٧٣]

أى : قالوا وأقسموا تالله لقد علمتم أنا جئنا لطلب الطعام فقط، وما جئنا لنفسد فى الأرض بسرقة أو غيرها وما كنا سارقين وما عرف عنا ذلك، ولا ينبغى لنا أبداً.

* * *

{ قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ }
[الآية ٧٤]

أى : ما جزاء هذا السارق، حتى إن كان منكم أنتم، وظهر أنكم كنتم كاذبين فى كلامكم هذا ٠٠؟

* * *

ولأن إخوة يوسف ٠٠ واثقون من موقفهم ومن براءتهم ٠٠ فقد ردوا عليه سريعاً ٠٠

{ قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ }
[الآية ٧٥]

أى : قالوا يعنى : إخوة يوسف جزاؤه أى : جزاء السارق فى شريعتنا، أن يؤخذ من وجد الشىء المسروق فى رحله فيكون هو جزاؤه أى : عقابه.
كذلك عندنا نجزى الظالمين أى : السارقين، الذين يظلمون بسرقتهم غيرهم.

* * *

ووافق يوسف ومن معه على هذا الجزاء ٠٠
إذن ٠٠ فليبدأ التفتيش فى الأمتعة عن صواع الملك.

{ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ }

[الآية ٧٦]

أى : بدأ المفتش فى البحث بأوعيتهم أولاً قبل البحث فى وعاء أخيه حتى لا يثير شكوكهم أن الأمر مدبر ثم استخرجها أى : السقاية من وعاء أخيه أى : من متاعه ٠٠ وبذلك ٠٠ ينفذ الحكم بأخذ أخيه.
وهكذا تمت حيلة يوسف لأخذ أخيه منهم دون أن يعرفوا شيئاً.
وما كان ليوسف أن يأخذ أخاه فى حكم ملك مصر إلا بمشيئة الله تعالى.
نرفع فى العلم درجات عالية من نشاء من عبادنا، كما رفعنا يوسف.
ولكن فوق كل ذى علم عليم هم دونه فى العلم، وهو الله تعالى.
==

* * *

والآن ٠٠ نجح يوسف عليه السلام : فى أن يأخذ أخاه منهم بهذه الحيلة التى هداه الله إليها.
فماذا فعل إخوة يوسف الذين أخذ عليهم أبوهم المواثيق بإعادة هذا الابن إليه ٠٠؟

{ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ }
[الآية ٧٧]

أى : لما أخرج المفتش صواع الملك من رحل أخيهم، نكسوا رءوسهم خجلاً من الفضيحة، وقالوا تبرئة لساحتهم إن يسرق هذا الأخ فقد سرق أخ له من أمه من قبل أى : من زمن مضى.
ولأن يوسف لم يسرق ٠٠ فقد قال على الفور أنتم شر مكانا أى : كاذبون، ولكن لم ينطق بها بل أسرها يوسف فى نفسه وكتمها ولم يبدها لهم لئلا يعرفوه.
ثم قال والله أعلم بما تصفون أخاكم، ولكن لنا الظاهر الذى وجدناه.

* * *

وحاول الإخوة محاولة لفك أسر أخيهم.
حيث :

{ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ٧٨]

إى : إن لهذا الأخ أباً شيخاً كبيراً يحبه، وسوف يحزن كثيراً لفراقه، وقد أخذ علينا العهود أن نرده إليه.

فخذ أحدنا وضعه مكانه عندك، فى دين الملك، ولا ترد لنا هذا الطلب إنا نراك من المحسنين فى أفعالك وأقوالك، فأحسن إلينا.

{ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّـا إِذًا لَّظَالِمُونَ }
[الآية ٧٩]

يعنى : أجاب على اقتراحهم قال نعوذ بالله، من أن نأخذ أحداً إلا من وجدنا متاعنا عنده .
لاحظوا لم يقل إلا من سرق لأنه يعرف أن أخاه لم يسرق.
ثم قال : ولو أخذنا غيره .. إنا إذاً لظالمون حيث نأخذ بريئاً، وهذا ظلم، ونحن لا نحب الظلم ولا الظالمين.

* * *

وبهذا عرفوا أنه لا فائدة من هذه المحاولات.
ويئسوا من أخذ أخيهم معهم.

{ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ }
[الآية ٨٠]

أى : فلما يئسوا من أخذ أخيهم خلصوا نجياً أى جلسوا وحدهم يتشاورون ويتناجون فى هذا الموضوع، وكيف يتصرفون.
وهنا قال كبيرهم ألم تعلموا أى : أنسيتم أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً عهداً من الله فى أخيكم هذا أن تروده له؟ أنسيتم تفريطكم فى أخيكم يوسف من قبل أيضاً ..؟
إنى أخجل من مقابلة أبى، ولذلك فلن أبرح الأرض أى : لن أغادر أرض مصر، وسأظل هنا حتى يأذن لى أبى بالعودة راضياً عنى أو يحكم الله لى بما يريد، بالخروج، أو بالموت، أو بتخليص أخى هذا وهو خير الحاكمين حيث لا يحكم إلا بالعدل، وأنا راض بحكمه سبحانه.

* * *

هذا ما يخصنى ..
أما أنتم ..

{ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ }
[الآية ٨١]

يعنى : عودوا أنتم إلى أبيكم ودافعوا عن أنفسكم، وأزيلوا تهمة الإهمال عنكم فقولوا لأبيكم يا أبانا إن ابنك سرق صواع الملك، وأخذوه فى دين الملك، ونحن لا نتهمه ولا نبرئه وما شهدنا إلا بما علمنا ورأينا حين استخرجوا المسروق من متاعه.

وما كنا للغيب المخبأ هذا وما سوف يحدث فيه، حيث أعطيناك العهد حافظين أى : عالمين به، وإلا لما أخذناه.

* * *

وعادوا إلى أبيهم ..
وأخبروه الخبر ..
وقالوا ما قاله أخوهم ..
وأضافوا – كذلك – قائلين لأبيهم.

{ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ }
[الآية ٨٢]

أى : إن كنت لا تصدقنا فيما قلناه .. فاسأل أهل القرية التى كنا فيها وهى مصر، واسأل كذلك القافلة التى أقبلنا فيها من مصر.

وإنا على أية حال لصادقون فيما أخبرناك به من شأن أخينا.

* * *

وفجع يعقوب عليه السلام بهذا الخبر.
وكأنه لم يصدق ما قالوه.
حيث :

{ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }
[الآية ٨٣]

أى : قال لهم ·· ليس الأمر – فيما اعتقد – كما تقولون، بل سولت يعنى: زينت لكم أنفسكم أمراً غير ما تقولون، الله أعلم به.

فصبر جميل أتحلى به، وأعزى نفسى معه، لفقد أولادى الثلاثة.

ثم قال : عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً بكرمه وقدرته.

إنه سبحانه هو العليم بحالى الحكيم فيما قدره لى ولأولادى.

* * *

ولم يقل غير هذا ··

{ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ }

[الآية ٨٤]

وتولى عنهم يعنى : أعرض عنهم، وسكت عن مواصلة الحديث معهم وقال شاكياً إلى ربه يا أسفى على يوسف أى : يا شدة حزنى عليه.

وصار يبكى، بل زاد بكاؤه فى صمت، حتى ضعف بصره وابيضت عيناه من الحزن المكتوم، المؤلم فهو كظيم لغيظه، لا يشكوه لأحد إلا لله وحده.

* * *

ولما رآه أولاده فى هذا الحال ··

{ قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ }

[الآية ٨٥]

أى : قالوا لأبيهم ·· تالله أى : والله تفتأ أى : لا تزال تذكر يوسف وتبكى عليه، وتتوجع من أجله حتى تكون حرضاً أى : ضعيفاً عليلاً أو تكون من الهالكين فى عداد الموتى، إن بقيت على هذا الحال.

يعنى : خفف عن نفسك، وهون عليك أمرك يا أبانا.

* * *

ولأن هذا البكاء من الفطرة.

ولأن هذا الحزن غريزة.
ولأن يعقوب لم يجزع، ولم يتجه بشكواه لأحد ..

{ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ }
[الآية ٨٦]

قال لهم إنما أشكوا بثى وهو أصعب الهم، الذى لا يصبر عليه صاحبه حتى يبثه ويحكيه للغير وحزنى على ما أصابنى إلى الله فقط، لا إلى أحد من خلقه.
وأعلم من رحمة الله بى ما لا تعلمون.
ولا أيأس من رحمته أبداً.

* * *

ولذلك أقول لكم :

{ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ }
[الآية ٨٧]

أى : يا بنى لا تفقدوا الأمل فى رحمة الله بنا، ولا تقعدوا عن البحث عن أخويكما، بل اذهبوا فى البلاد فتحسسوا الأخبار من الناس، عن يوسف وأخيه عسى أن تجداهما.
ولا تيأسوا خلال هذا البحث عنهما من روح الله أى : من رحمته وفرجه، حيث إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون وأنتم بفضل الله مؤمنين، واثقين فى رحمة الله.

* * *

وأطاع الأولاد أباهم ..
وخرجوا من عنده من أرض كنعان بالشام.
وذهبوا إلى مصر .. حيث تركوا أخاهم، ليأتوا بالطعام وليحاولوا استخراج أخيهم، وإعادته معهم.
وذهبوا إلى عزيز مصر.

{ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ}
[الآية ٨٨]

فلما دخلوا على عزيز مصر قالوا له : بلغة الضعف يا أيها العزيز مسنا ونزل بنا وأهلنا الضر أى : الضرر من الجوع والفقر وجئنا إليك هذه المرة ببضاعة من عندنا مزجاة رديئة نوعاً ما، حيث لا نملك غيرها، ولا يرغب فيها أحد، فلا تردنا بها، وتكرم علينا فأوف لنا الكيل كعهدنا بك وتصدق علينا بإطلاق سراح أخينا، ليعود معنا، وسيجزيك الله على ذلك خيراً، حيث إن الله يجزى المتصدقين خيراً من أمثالك.

* * *

ولأن حديثهم بدأ يكتسى بنبرة الإيمان ..
ولأنه قد تغير وضعهم، وصلح حالهم ..
ولأن إخفاء شخصيته عنهم أتى ثماره، ولم يعد له مبرر.
فقد بدأ يكشف لهم عن نفسه ..
حيث :

{ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ }
[الآية ٨٩]

أى : قال لهم يوسف هل علمتم أى : أدركتم وفهمتم، قبح ما فعلتم قديماً بيوسف وأخيه من الأذى إذ أنتم جاهلون أى : وقت جاهليتكم ومعصيتكم وبعدكم عن الطاعة.

* * *

وذهلوا للوهلة الأولى ..
وتعجبوا من أنفسهم .. كيف لم يعرفوه، وهم يترددون عليه منذ فترة.
ثم نطقوا ..

{ قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ٩٠]

أى : قالوا له فى استعظام من هول المفاجأة أئنك لأنت يوسف أخونا ٠٠؟

قال يوسف : نعم أنا يوسف وهذا أخى ولم يعاتب، بل ذكر إنعام الله، وفضله قائلاً قد من الله علينا بكرمه وحفظنا.

حيث إنه من يتق الله بترك المعصية، وفعل الطاعة ويصبر عن المعاصى، وعلى الطاعة، وعلى بلاء الله وقدره وقضائه ٠٠ فهو من المحسنين، ولا يضيع الله أجره، وجزاء تقواه وصبره.

فإن الله عظيم كريم لا يضيع أبداً أجر المحسنين.

* * *

وفرح إخوته ٠٠

وعرفوا فضل الله على من يتق ويصبر حقاً.

ثم ٠٠

{ قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ }

[الآية ٩١]

أى : قالوا له وأقسموا تالله يا يوسف لقد آثرك أى : فضلك الله علينا ٠٠ بالصبر، والعقل، والصفح، والحلم، وغير ذلك.

ثم اعترفوا بذنبهم له قائلين وإن كنا لخاطئين فى حقك وحق أخيك، وحق الله تعالى.

* * *

وبأدب النبوة، وعفة اللسان، وسماحة الأنبياء.

{ قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }

[الآية ٩٢]

قال يوسف لإخوته لا تثريب عليكم لا عتاب، ولا ملامة، ولا مؤاخذة عليكم اليوم وغير اليوم.

ثم دعا لهم بالمغفرة قائلاً يغفر الله لكم بإذنه تعالى ما سبق منكم، ويرحمكم بعفوه وهو أرحم الراحمين فلا تبتئسوا أبداً.

* * *

ثم سألهم عن أبيهم ..
فقالوا ابيضت عيناه من الحزن عليك.
قال لهم :

{ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ }
[الآية ٩٣]

أى : اذهبوا إلى أبى بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يرتد إليه بصره، ويأت إلىَّ بصيراً بإذن الله.
و أيضاً ائتونى أى : احضروا معكم أهلكم، أى : آل يعقوب أجمعين.

* * *

وأخذوا القميص من يوسف.
وخرجوا من عنده متجهين إلى أبيهم وأهليهم ببلادهم.

{ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ }
[الآية ٩٤]

يعنى : لما خرجت العير من ديار مصر قال أبوهم وهو فى الشام لمن حوله إنى لأجد ريح يوسف الطيبة فيما يهب على من الرياح.
وهى حقيقه لولا أن تفندون كلامى ولا تصدقونه.

* * *

وأنكر – بالفعل – من حوله هذا الكلام.

{ قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ }
[الآية ٩٥]

أى : قالوا له والله إنك تهذى من أوهامك القديمة، بسبب حبك ليوسف.

* * *

ولم يمض وقت طويل على هذا الكلام : حتى وصلت العير من مصر.
وجاء إخوة يوسف ومعهم القميص.

{ فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }
[الآية ٩٦]

أى : فلما أن جاء البشير وهو حامل القميص ألقاه أى بسطه ونشره على وجهه كما أمر يوسف فارتد بصيراً عاد – بقدرة الله – إليه بصره.
وهنا قال يعقوب عليه السلام لأولاده ولمن حوله ألم أقل لكم سابقاً إنى أعلم من رحمة الله لى ما لا تعلمون.
ولا أياس من رحمته أبداً ؟

* * *

وانتهز أولاده غمرة الفرح، وهم يشعرون بالذنب، ويبدون الندم ٠٠ حيث :

{ قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ }
[الآية ٩٧]

أى : قالوا يا أبانا سل ربك أن يغفر لنا ذنوبنا التى ارتكبناها فى حقك وحق أخوينا إنا كنا خاطئين أى : اعترفنا بخطايانا، وتبنا عنها، وندمنا عليها.

* * *

ماذا قال لهم يعقوب عليه السلام ٠٠؟

{ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }
[الآية ٩٨]

لم يجبهم فوراً إلى ما طلبوا، ولكن قال لهم سوف أستغفر لكم ربى وأخر ذلك ليعرف صدق توبتهم. ثم طمعهم فى عفو الله قائلاً إنه هو الغفور الرحيم.

* * *

ثم قالوا لأبيهم وأهليهم رغبة يوسف عليه السلام فى أن يذهبوا جميعاً إليه بمصر ٠٠ وخرج الجميع من بلاد الشام، ووصلوا إلى مصر.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ ﴾
[الآية ٩٩]

أى : فلما دخلوا على عزيز مصر، وهو يوسف عليه السلام : استقبلهم استقبالاً حافلاً، ثم آوى أى : ضم إليه أبويه إعلاءً لشأنهما، ورفعا لقدرهما، وبراً بهما.

وقال لجميع آل يعقوب ادخلوا مصر أى : أقيموا بها إن شاء الله آمنين من القحط والجوع والظلم.

* * *

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾
[الآية ١٠٠]

وعقد يوسف اجتماعاً عاماً يحتفل فيه بمقدم آل يعقوب إلى مصر.

وفى هذا الاجتماع :

رفع أبويه على العرش أجلسهما فى مكان بارز، على سرير الملك، وهو أرفع مكان فى المملكة، تكريماً لهما.

وخروا له سجداً أى : خضع له الجميع، وحيوه، وهم أبواه، وأخوته الأحد عشر.

وهنا ٠٠ قال يوسف لأبيه يا أبت هذا أى : هذا الذى تراه الآن هو تأويل رؤياى التى رأينها من قبل وقصصتها لك قد جعلها ربى حقاً أى : حقيقة.

ثم أكمل فى هذا الحشد ذكر نعم ربه عليه ٠٠ قائلاً :

وقد أحسن بى ربى كثيراً ٠٠

إذ أخرجنى من السجن الذى دخلته ظلماً وزوراً.

لاحظ : أيها القارىء الكريم .. أنه لم يذكر نعمة الإخراج من الجب، لئلا يحرج إخوته الذين تابوا وندموا، أمام هذا الجمع، وفى هذا الوقت.

ثم أضاف من النعم قائلاً :

وجاء بكم من البدو إلى هذه الديار الطيبة من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى.

يا للأدب نسب ما حدث إلى الشيطان، وقدم نفسه فيما فعل الشيطان على إخوته .. حقاً : إنها عفة لسان الأنبياء.

ثم قال :

إن ربى لطيف فى تدبيره لما يشاء من أمور، وقد لطف بى فى كل ما حدث من ابتلاءات فى الشدة أو فى الرخاء.

إنه سبحانه هو العليم بمصالح عباده الحكيم فيما يقدره ويختاره لهم.

– (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

بدأ يوسف عليه السلام لقاءه مع مولاه بذكر نعمه عليه، حيث قال (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ) أي: بعض الملك، آتيتني منه سلطانا ومكانا وجاها ومالا وذلك من نعم الدنيا....(وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) أي: بعض علم التعبير، وذلك من نعمة العلم.

وبعد أن عدد النعم، ورد الفضل لمولاه: أثني عليه سبحانه؛ حيث قال(فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي: يا رب....يا خالق السماوات والأرض ومبدعهما(أَنْتَ وَلِيِّي) وناصري ومتولي أموري (فِي الدُّنْيَا) والمنعم في بالعفو في الآخرة.

وبعد أن أثني على ربه...طلب حاجته قائلا:(تَوَفَّنِي مُسْلِمًا) خذني إليك وأنا على نعمة الإسلام(وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) (الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء).

وهذا هو النجاح الحقيقي...وهذه هى الفرحة الحقيقة.

=============================

وهكذا...انتهت قصة يوسف عليه السلام بما فيها من دروس وعظات بالغات.

=============================

ويكون التعقيب عليها من المولي مع الحبيب صلي الله عليه وسلم

حيث يقول له:

١٠٢–١٠٤ (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

أي: (ذَلِكَ) الذي قصصناه عليك يا محمد (مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ) التي لا تعرفها أنت ولا قومك، ولكنا (نُوحِيهِ إِلَيْكَ) إنعاما بك ، وتشريفا لك، (و) هي أمور وأحداث، ما كنت تعلمها ، بل (مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ) أي مع إخوة يوسف حينما (أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ) علي فعل ما فعلوا (وَهُمْ يَمْكُرُونَ) بأخيهم.

ولكنا عرفناك ذلك بالوحي من عندنا....

وينبغي أن يؤمن بهذا الوحي، ويؤمن بنا، ويصدقك كل إنسان...!

(و) لكن(مَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ) على إيمانهم (بِمُؤْمِنِينَ) كما تحب وترجو.

(و) لهذا ...ولعدم إيمانهم، فلا تغتم، ولا تحزن، فإنك (مَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) فيكون انصرافهم عنك وعدم إيمانهم بك : خوفا من دفع الأجر...

لا ...ليس هذا أبدا... !!!
إنما هم قوم لم يرد الله هدايتهم ؛ ولذلك...فإن ما تقول: مما يوحي إليك(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) أي: تذكرة وهداية وموعظة للناس كلهم في ربوع الدنيا كلها؛ رفع الله به شأن من أهتدي بهديه.
ثم:
بعد هذا التشريف الإلهي لمحمد صلي الله عليه وسلم..!!
وبعد هذه التهدئة الربانية لنفسيته التي تتألم لعدم إيمان قومه...!!
وبعد أن بين له عدم اهتدائهم بالآيات المسطورة في القرآن...!!
يبين له عدم اهتدائهم بالآيات المنظورة في الأكوان، والنتائج المترتبة على هذا العناد ...فيقول:

١٠٥-١٠٧ –(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)

إنه ما (مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وهي كثيرة جدا (يَمُرُّونَ عَلَيْهَا) ويرونها في أسفارهم ورحلاتهم، إلا (وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) لا يستفيدون بها، ولا يؤمنون بالله بسببها.
وذلك .. بالرغم من أنك لو سألتهم(من خلق السموات والأرض) ..؟ (ليقولن الله)...!
ولكن إيمانهم هذا....يرافقه شرك بهذا الخالق العظيم.
(و)لذلك فإنه(مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) معه غيره من صنم، أو بشر، أو طبيعة ، أو غير ذلك.
ومع أن الحجة...قد قامت عليهم بهذا القرآن المسطور...
فقد أقيمت كذلك عليهم بآيات هذا الكون المنظور...
إلا أنهم لم يلتفتوا إلى هذه الآيات : المسطورة، أو المنظورة.
ومن التفت منهم إليها، أو إلى بعضها: يؤمن بالله على شرك.
ولذلك ..فليس العيب : من عدم الدليل، أو من عدم وضوح الدليل، ولكن في العناد عندهم، والسلوك المنحرف لديهم.
ومن هنا ...يكون الإنذار والتهديد لهم:
(أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ) نقمة تغشاهم وتشملهم (مِنْ عَذَابِ الله) إن ظلوا على عنادهم وكفرهم...؟
(أو) أمنوا (أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ) وهي يوم القيامة (بَغْتَةً) فجأة (وهم لا يشعرون) عجائبها، ولا يستعدون لها....؟
لا ..أبدا ، لم يأمنوا هذا ولا ذاك.. !!!!؟؟؟
أيها القراء الكرام ..!
إن موقفا كهذا.. لا يملك الداعية أمام عناد أهله...إلا أن يوضح طريقة، ويبلغ دعوته فقط ؛ إبراء "للذمة" وأداءً "للأمانة.
ولذلك يقول ربنا تبارك وتعالي لحبيبه.

١٠٨ – (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)
أي: (قُلْ) لهم (هَذِهِ سَبِيلِي) وطريقتي ومنهجي، ودعوتي (أَدْعُو) بها ، ومن خلالها (إِلَى) دين (اللَّهِ) وعبادته، وتوحيده(عَلَى بَصِيرَةٍ) فيها، ويقين بها.
ولست وحدي في ذلك الطريق ، بل (أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) ندعوا إلى الله جميعا وفقا لذلك.

(وَسُبْحَانَ اللَّهِ) عن كل شريك ..وتنزهه على كل مثيل أو شبيه، وما أنا، ولا من معي (مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أبدا معه غيره سبحانه...

وبعد أن لفت المولي نظر الحبيب صلى الله عليه وسلم والدعاة معه...إلى وجوب توضيح دعوته، وبيان منهجه : ينتقل معه – بالمواساة والتثبيت له – إلى إخوانه من الأنبياء ، فيقول له:

١٠٩–(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

أي: لست وحدك يا محمد فيما تلاقيه من إيذاء قومك وعنادهم، فلقد(أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ) رسلا كثيرين إلى أقوامهم، وما كانوا (إِلَّا رِجَالًا) أشداء (نوحى إليهم) شرعنا وتعاليمنا ، و(هم من أهل القرى) أى أهل ألفة ، وعشرة طيبة مع أقوامهم.

ومع ذلك : فقد حدث لهم ما حدث لك.

فماذا فعلنا مع أقوامهم الذين آذوهم وعاندوهم...؟

عاقبناهم بما يستحقون ... !!!

ولهذا....

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا) أي قومك(فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا) وليعتبروا(كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)فلا يفعلون مثلما فعلوا، ويعلمون أن الإيمان بالله، والعمل للدار الأخيرة (خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا) غضب الله تعالي ... !!!؟؟؟

قل لهم(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) هذه الدروس....؟

================

ثم يبين رب العزة لحبيبه صلي الله عليه وسلم – إيناسا له، وتأييدا لدعوته، وإعلاما بنصرته ، وتعليما لأمته، وتربية لأتباعه – أمورا في غاية الأهمية..حيث يقول:

١١٠– (حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

تبين هذه الآية الكريمة ثلاثة أشياء:

أولها: الحال التي وصل إليها الرسل...من عناد أقوامهم معهم ، وتكذيبهم لهم(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا)

أي : أرسلنا قبلك يا محمد رسلا بلغوا أقوامهم ، ولم يؤمنوا بهم ولم نعاقبهم(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ) وفقدوا الأمل في إيمان قومهم، بل (ظَنُّوا) أيقنوا أن قومهم كذبوهم، وليس فيهم رجاء.

ماذا حدث....؟

كانت الثانية: (جَاءَهُمْ نَصْرُنَا) بعذاب أقوامهم ، ولم ينج إلا هؤلاء الأنبياء، ومن أمن معهم (فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ).

وسنتنا في مثل هذا الحال..

(و)هي الثالثة: أنه (لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا) عذابنا (عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

ولذلك : فلا تيأس، ولا تبتئس يا محمد من عدم إيمان قومك.

==============

وأخيرًا....وفي نهاية السورة...

يوضح ربنا عز وجل الحكمة في سوق القصة في القرآن الكريم.

فيقول:

١١١- (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

أي (لَقَدْ كَانَ) الهدف(فِي) ذكر (قَصَصِهِمْ) على هذا النحو: هوأن يكون (عِبْرَةٌ) وعظة، وفائدة (لِأُولِي الْأَلْبَابِ) الذين يعملون عقولهم فيها، ويستفيدون بها.
و(مَا كَانَ) أبدا هذا القصص (حَدِيثًا يُفْتَرَى) بل هو وحي من الله تعالي فيه التشريع ، وفيه الدستور، وفيه منهج الفلاح والنجاح.
(ولكن) مع ذلك : نوضح أهداف القصص فيما يلى ..
١- (تصديق الذي بين يديه) مما نزل على الأنبياء السابقين قبل تحريفه.
٢- (وتفصيل كل شيء) من الحلال والحرام ، وغير ذلك.
٣- (وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) أي: هدي من الضلال ، وهداية للرشاد، ورحمة من متاعب الحياة في الدنيا، بل رحمة من عذاب الله في الآخرة.

ولكن ...لمن...؟
(لقوم يؤمنون) فيهتدون.
==================

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

وهى سورة مكية ٠٠ وتبدأ بقوله تعالى :

{ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }
[الآية ١]

ومعناها : أتى أمر الله بقيام الساعة ، وهى القيامة، وأتى بمعنى : قرب.
أى : قرب أمر الله بقيام الساعة لحساب الناس.
قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر ٠٠ [القمر ١] .
قال الكفار بعضهم لبعض : إن هذا الرجل يزعم أن القيامة قد اقتربت ٠٠ فلننظر ماذا يحدث ٠٠؟ فلما رأوا أنه لم يحدث شىء مما قال ٠٠ قالوا : ما نرى شيئاً مما تخوفنا به.
فنزل اقترب للناس حسابهم [الأنبياء ١].
فقالوا : فلننظر ماذا يحدث ٠٠؟ فلما رأوا أنه لم يحدث شئ مما قال ٠٠
قالوا : ما نرى شيئاً مما تخوفنا به.
فنزل أتى أمر الله فرفع الناس رءوسهم، وظنوا أنها جاءت حقيقة.
فنزل فلا تستعجلوه ٠٠ فسكتوا.
هذا ٠٠
ولأن ذلك منهم ٠٠ كان على سبيل الاستهزاء ٠٠ والاستهزاء شرك !
فقد نزه نفسه سبحانه عن ذلك ٠٠ فرد عليهم بقوله سبحانه وتعالى عما يشركون.

* * *

ولما قال الكافرون إن محمداً يدعى ذلك من نفسه : بين الله تعالى ٠٠ أن ما يقوله : هو من عند الله ٠٠ بقوله :

{ يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ }
[الآية ٢]

يعنى : ليس هذا من عند محمد ، بل من عند الله، الذى ينزل الملائكة أى: جبريل بالروح من أمره أى : بالوحى الذى هو روح القلوب والنفوس والعقول، من عنده سبحانه، لا من غيره.

من أمره أى : بأمره، وإذنه، ومشيئته على من يشاء أن يوحى إليه، وينزل عليه من عباده الذين يصطفيهم، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم.

ولكفهم أن يبلغوا رسالته، وقال لهم أن أنذروا الناس وأعلموهم أنه لا إله إلا أنا الواحد، الخالق، الرزاق، النافع، الضار، المحيى، المميت.

فاتقون أى : فوحدنى، واعبدونى، وأطيعون، وخافوا غضبى وعقوبتى.

* * *

ولأن هذه الرسالة التى كلف بها الأنبياء، وهى التوحيد، هى محور الوحى كله ٠٠

فقد بدأت الآيات بعد ذلك تعرفنا على الله تعالى، وتؤكد وحدانيته وتثبت قدرته ٠٠ من خلال مخلوقاته.

حيث تقول :

{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }
[الآية ٣]

أى : ما خلق الله السموات والأرض عبثاً، بل بالحق .

ومن كان هذا فعله ٠٠ فقد تعالى وتنزه عما يشركون معه من أصنام، أو غيرها.

* * *

ثم تقول أيضاً :

{ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ }
[الآية ٤]

أى : خلق الإنسان وهم ذرية آدم من نطفة مهينة، ضعيفة، إلى أن صيره قوياً فى العقل والجسم فإذا هو خصيم لربه، منكر لوجوده، غير معترف بوحدانيته مبين مجادل فى عناده.

* * *

ثم تقول كذلك :

{ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }

[الآيات ٥ – ٨]

يعنى : وخلق الله الأنعام كذلك وهى : الإبل والبقر والغنم ٠٠ خلقها لكم أنتم يا أهل مكة، كما هى للناس جميعاً ٠٠ آية من آياته.

فيها لكم دفء ومنافع ومنها تأكلون.

ولكم فيها كذلك جمال زينة ومتعة حين تريحون بها، أى تعودون بها، وحين تسرحون أى : وقت خروجكم بها أيضاً.

كما أنها : تحمل أثقالكم التى لا تستطيعون حملها بأنفسكم إلى بلد أو أى مكان لم تكونوا بالغيه من دونها إلا بشق الأنفس أى بتعب شديد ومشقة بالغة.

إن ربكم أيها الناس جميعاً لرءوف بكم رحيم لكم؛ حيث خلقها لكم، ويسر الإفادة منها ٠٠ ومع ذلك : لم تعتبروا، ولم تؤمنوا، ولم يحرمكم هذه النعم، ولم يعاجلكم – على كفركم – بالعقوبة.

وكذلك ٠٠ من نعمه عليكم يا أهل مكة، وعلى الناس جميعاً : أنه خلق الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة.

و أكثر من هذا يخلق ما لا تعلمون الآن، وفى المستقبل، مما لا يخطر على بالكم، ولا يقع تحت حصركم، من الأشياء العجيبة، والغريبة.

وكل ذلك ٠٠ من آيات الله، الدالة على وحدانيته، وقدرته ٠٠ فهل تعتبرون بها، وتشكرون عليها ٠٠؟

* * *

أيها الأحبة الكرام ..
وسط الحديث عن هذه النعم والآيات المادية ٠٠
يذكر ربنا عز وجل آية معنوية ..
حيث يقول :

{ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ }

[الآية ٩]

أى : ومن نعمه تعالى بيان قصد السبيل أى : الطريق المستقيمة، والسبيل الواضحة، وذلك : بإرسال الرسل، وإنزال الكتب.

و ليكن معلوماً ٠٠ أنه مع هذا البيان : أن السبل والملل والمعتقدات منها جائر أى : منحرف عن الاعتدال والاستقامة ٠٠ مثل ملل الكفر كلها.

ولذلك : كنتم مختلفون ولو شاء الله هدايتكم جميعاً، وأن تكونوا على طريق واحد لهداكم أجمعين.

* * *

ثم تعود الآيات ٠٠ إلى بيان مخلوقات الله، ونعمه، التى تعرفنا عليه، وتؤكد وحدانيته، وقدرته.
حيث تقول :

{ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }
[الآيتان ١٠ ، ١١]

يعنى : وهو سبحانه الذى أنزل بقدرته من السماء أى : السحاب ماءً لكم إنعاماً عليكم.
منه أى : من هذا الماء شراب تحيون به وجعلنا من الماء كل شيء حى [الأنبياء : ٣٠].
ومنه يسقى شجر أى : نبات فيه تسيمون أنعامكم، تتركونها تأكل منه، وتعيش عليه.
كما أن الله تعالى ينبت لكم به أى : بهذا الماء الزرع بكل أنواعه والزيتون والنخيل والأعناب وينبت لكم به كذلك من كل الثمرات التى تعرفونها، والتى ستعرفونها.
حقاً ٠٠ إن فى ذلك لآية واضحة لقوم يتفكرون.
وكل ذلك ٠٠ من آيات الله، الدالة على وحدانيته، وقدرته ٠٠ فهل تفكرون فيها، وتعتبرون بها؟ وتشكرون عليها؟

* * *

ثم تقول الآيات أيضاً :

{ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }
[الآية ١٢]

أى : و هو سبحانه، الذى سخر لكم الليل والنهار آيتين.
يقول تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب [الإسراء ١٢] .
و سخر لكم كذلك الشمس والقمر آيتين .

يقول تعالى: { لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون } [يس : ٤٠].

والنجوم كذلك مسخرات بأمره لا تحيد عن مساراتها، ولا تنحرف، حتى يأتى أمر الله فى يوم القيامة، ويقال : {النجوم انكدرت} [التكوير : ٢] أى : تساقطت.

حقاً ٠٠ إن فى ذلك لآيات واضحات لقوم يعقلون.

وكل ذلك من آيات الله الدالة على وحدانيته، وقدرته ٠٠ فهل تعقلونها ؟ وتعتبرون بها؟ وتشكرون عليها٠٠؟

* * *

ثم تقول الآيات كذلك :

{ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ }
[الآية ١٣]

يعنى : وما ذرأ أى خلق لكم ربكم فى الأرض من كل الأصناف، جعله مختلفاً ألوانه منه الأحمر، والأصفر، والأخضر، وغير ذلك، مما ترون.

حقاً إن فى ذلك لآية واضحة لقوم يذكرون.

وكل هذا ٠٠ من آيات الله الدالة على : وحدانيته وقدرته ٠٠ فهل تتذكرونها٠٠؟ وتعتبرون بها؟ وتشكرون عليها٠٠؟

* * *

ثم تتابع الآيات الكريمة ٠٠ قائلة :

{ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }
[الآية ١٤]

أى : وهو سبحانه الذى سخر لكم البحر عذباً ومالحاً ومكنكم من الانتفاع به، ركوباً عليه، وغوصاً فيه، وصيداً منه لتأكلوا منه لحماً طرياً وهو السمك، وتستخرجوا منه وهو المالح فقط حلية أى : لؤلؤاً ومرجاناً تلبسونها وتتجملون بها.

و كذلك : من نعم الله ‥ أنك ترى الفلك أى : السفن مواخر تشق أمواجه ذهاباً وإياباً، تتمتعون بها، ولتبتغوا كذلك من فضله تعالى عليكم بالتجارة عن طريقها.

كل ذلك لعلكم تشكرون.

وهو فى ذات الوقت : من آيات الله ‥ الدالة على : وحدانيته، وقدرته، فهل تعتبرون بها؟ وتشكرون عليها ‥؟

* * *

ثم تضيف قوله تعالى :

{ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ }
[الآيتان ١٥ ، ١٦]

يعنى : و هو سبحانه الذى ‥

ألقى جعل فى الأرض رواسى وهى الجبال الراسيات الثابتة، حتى لا تميد أى : تتحرك بكم الأرض.

وجعل بقدرته فيها أنهاراً عذبة ‥ مثل النيل والمسيسبى، ودجلة والفرات، وغير ذلك، تنتفعون بها.

وجعل فى الأرض كذلك سبلاً أى : طرقاً تسيرون عليها لعلكم تهتدون إلى مصالحكم.

وجعل فى الأرض كذلك علامات تستدلون بها، على الطرق والمنافع ‥ كالجبال نهاراً.

وبالنجم كذلك هم يهتدون إلى الطرق، والقبلة والمصالح ليلاً.

وكل ذلك : من آيات الله تعالى ‥ الدالة على : وحدانيته وقدرته ، فهل تعتبرون بها ، وتشكرون عليها ‥؟

* * *

ثم يقول ربنا جلت حكمته بعد هذه الدلائل الوفيرة :

{ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ }
[الآية ١٧]

أى : أ خبرونى بربكم أيها الناس من يخلق هذه الأشياء ‥ الدالة على: وحدانيته، وقدرته كمن لا يخلق شيئاً.

أفلا تذكرون وتعتبرون، وتشكرون ‥ ؟!!

* * *

بل ٠٠ فوق هذا ٠٠

{ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ١٨]

يعنى : ذكرت لكم من نعمى ما ذكرت، ومع ذلك إن تحاولوا أن تعدوا نعم الله وتحصوها عداً لا يمكن لكم أبداً أن تحصوها.

ومع كثرتها إليكم، وصعوبة عدها عليكم ٠٠ فإنكم لا تعتبرون، ولا تشكرون.

ومع ذلك إن الله لغفور رحيم حيث يستمر فى إنعامه عليكم مع تقصيركم وعصيانكم.

* * *

ثم يدخل ربنا إلى دواخل البشر فيهزها هزاً ٠٠

حيث يقول ٠٠

{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ }
[الآية ١٩]

أى : لا تخفى عليه منكم خافية، فهو يعلم السر وأخفى، ويعلم ما تسرون وما تعلنون وسيحاسبكم عليه.

فاعتبروا بآياته، واشكروا نعمه ٠٠

* * *

كل هذا عن الله تعالى ٠٠ أيها الإخوة والأخوات فى الله.

فماذا عما يعبد الكفار من غير الله ٠٠؟

يقول تعالى :

{ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ }
[الآيتان ٢٠ ، ٢١]

يعنى : ما تلوناه عليكم بعض مما يخلق الله، وأما الذين يدعون هم الكفار من دون الله كالأصنام وغيرها لا يخلقون شيئاً أبداً، وهم فى ذات الوقت يُخلقون أى : لا يخلقون أنفسهم.

وما ذلك ٠٠ إلا لأنهم أموات غير أحياء والميت لا يخلق شيئاً، ولا يشعر بشىء، ولذلك فهم ما يشعرون أيان يعنى : متى يبعثون أى : هؤلاء الخلق ٠٠ وكأنى برب العزة يقول لعباد هذه الأصنام : ستبعثون، وسنجازيكم على كفركم.

* * *

ثم يُعْلِم الله الكفار والدنيا كلها بالحقيقة، والمصير ٠٠ قائلاً :

{ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ }

[الآيات ٢٢ – ٢٥]

أى : إلهكم الذى يستحق أن يعبد إله واحد فقط، وهو الله سبحانه وتعالى، الذى لا نظير له فى ذاته، ولا فى صفاته.

ولكن الذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يخافون حساب الله فيها قلوبهم منكرة لتوحيد الله وهم مستكبرون عن عبادته.

حقاً ٠٠ إن الله يعلم ما يسرون فى أنفسهم وما يعلنون وسيجازيهم عليه٠٠ حيث إنه لا يحب المستكبرين فيجازيهم.

و هؤلاء المستكبرون، الذين لا يؤمنون بالآخرة إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم على محمد قالوا أساطير الأولين وحكاياتهم، وهو الذى اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً [الفرقان : ٥].

هذا ٠٠

ولما وصفوا القرآن ٠٠ بأنه أساطير الأولين : هددهم الله تعالى بقوله ٠٠ ليحملوا أوزارهم التى ارتكبوها بكفرهم، وقولهم هذا عن القرآن كاملة يوم القيامة ومن أوزار أتباعهم الذين يضلونهم عن عبادة الله بغير علم حيث دعوهم إلى الضلال فاتبعوهم، فاشتركوا فى الإثم معهم.

ألا ساء وبئس ما يزرون ما يحملون من حمل على ظهورهم، وفى أعناقهم.

* * *

ألا يتعظون ٠٠ ويعدلون عن كفرهم ٠٠؟

يقول ربنا :

{ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ }

[الآيتان ٢٦ ، ٢٧]

يعنى : فليكن لهؤلاء الكفار العصاة عبرة فيمن سبقهم ٠٠ حيث قد مكر الذين من قبلهم إذ فعلوا ما فعل هؤلاء من : الكفر ، والصد عن سبيل الله فأتى الله أى فهدم بنيانهم معتقداتهم الباطلة، التى بنوها لأنفسهم، وأفكارهم وفلسفاتهم التى اخترعها من عندهم من القواعد أى : من أساسها، لأنها لم تقم إلا على باطل، والباطل لا أساس له ثابت فخر عليهم السقف الفكرى الذى بنوه لأنفسهم من فوقهم ومن فوق أفكارهم، فهدمها، وأتاهم كذلك العذاب من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون.

وهذا ٠٠ فى الدنيا.

ثم هو سبحانه وتعالى يوم القيامة على رءوس الأشهاد يخزيهم ويفضحهم ويقول لهم أين شركائى الذين كنتم تزعمون، وكنتم تشاقون المؤمنين فيهم وتحاربونهم من أجلهم.

وساعتها ٠٠ يقول الذين أوتوا العلم وعملوا به، من الأنبياء والمؤمنين للذين لا يؤمنون بالآخرة من هذه الأمة، والذين قد مكروا من قبلهم : إن الخزى اليوم والفضيحة و العذاب السوء على الكافرين.

* * *

هؤلاء الكافرون جميعاً ٠٠ يخبر عنهم ربهم بقوله :

{ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ }

[الآيتان ٢٨ ، ٢٩]

أى : هم الذين تتوفاهم الملائكة حال كونهم ظالمى أنفسهم بالكفر، فـــ عند ذلك ألقوا السلم أى : استسلموا وأظهروا الطاعة، وقالوا للملائكة عند الاحتضار وقبض أرواحهم ما كنا نعمل من سوء.

وهنا ٠٠ تقول لهم الملائكة بلى إنكم كنتم تعملون كل السوء، ولا يخفى على الله من ذلك شىء ٠٠ حيث إن الله عليم بما كنتم تعملون من كل شىء، وسيجازيكم عليه ٠٠ فادخلوا يا أيها الكفار أبواب جهنم أى طبقاتها، وأقيموا بلهيبها خالدين فيها لا تخرجون منها فتنجون، ولا تموتون فيها فتستريحون.

وهذا مثواكم فلبئس مثوى المتكبرين على الله، وعلى دينه وشرعه.

* * *

وبعد أن بين رب العزة موقف المستكبرين، الذين لا يؤمنون بالآخرة مما أنزل الله، وبين – كذلك – عقوبتهم فى الدنيا والآخرة ..

بين لنا موقف المؤمنين المتواضعين، الذين يؤمنون بالآخرة مما أنزل الله، مع بيان جزائهم فى الدنيا والآخرة ..

فقال :

{

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ

}

[الآية ٣٠]

يعنى : و أما إذا قيل لهؤلاء، الذين اتقوا ربهم ماذا أنزل ربكم على محمد قالوا خيراً أى : رحمة وبركة لمن آمن به، واتبعه.

ولذلك يجازيهم ربهم على إحسانهم هذا خيراً . فيقول للذين أحسنوا فى العلم والعمل فى هذه الدنيا ابتغاء مرضاة الله حسنة أى : أحسن الله إليهم فى الدنيا والآخرة، ولدار الآخرة لهم فيها خير من الدنيا وما فيها؛ حيث إنها دار المتقين ولنعم الدار دار المتقين ..!!

* * *

ثم يصف ربنا تبارك وتعالى هذه الدار .. فيقول :

{ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللّهُ الْمُتَّقِينَ }

[الآية ٣١]

أى : دار المتقين .. هى جنات عدن يدخلونها بفضل الله تعالى، يقيمون فيها أبداً تجرى من تحتها الأنهار لإمتاعهم لهم فيها ما يشاءون نعم .. لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين [الزخرف : ٧١] مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

كذلك يجزى الله المتقين ويكافئهم.

* * *

هؤلاء المتقون .. هم :

{ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }
[الآية ٣٢]

أى : هم الذين تتوفاهم الملائكة حال كونهم طيبين طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر.

يقولون أى الملائكة تقول لهم سلام عليكم وأمن وطمأنينة من الله تعالى ادخلوا الجنة فهى داركم، وذلك بما كنتم تعملون أى : تقبل أعمالكم، وتفضل عليكم بدخول الجنة ٠٠ فادخلوها خالدين منعمين فيها.

* * *

أيها الأحبة فى الله ٠٠

بعد أن حدثتنا الآيات الكريمة عن الفريقين وجزاء كل منهما ٠٠

يعود الحديث مرة أخرى إلى الكافرين المستكبرين.

فيقول ربنا سبحانه وتعالى مهدداً ومخوفاً لهم :

{ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ }
[الآيتان ٣٣ ، ٣٤]

يعنى : ماذا ينتظر هؤلاء ٠٠؟

هل ينظرون أى : ينتظرون إلا واحدة من اثنتين ٠٠؟

الأولى ٠٠ أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، ويدخلون أبواب جهنم خالدين فيها.

الثانية ٠٠ أو يأتى أمر ربك بعذابهم، سواء فى الدنيا، أو فى يوم القيامة.

كذلك الفعل من هؤلاء، وهو الكفر والاستهزاء فعل الذين من قبلهم من الكفار أمثالهم، حيث كذبوا رسلهم، واستهزءوا بهم، فأهلكهم الله وما ظلمهم بهذا الإهلاك؛ حيث أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل، وإنزال الكتب ولكن كانوا أنفسهم بكفرهم يظلمون.

فأصابهم لكفرهم جزاء سيئات ما عملوا وحاق أى نزل بهم كذلك جزء ما كانوا به يستهزءون.

* * *

ثم يذكر لنا ربنا – سبحانه وتعالى – بعض أقوالهم الفاسدة، وشبههم الواهية، التى قالوها استهزاءً ٠٠ حيث يقول سبحانه :

{ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ }
[الآية ٣٥]

أى : دفع هؤلاء إلى كفرهم أهواؤهم ٠٠ حيث قالوا لو شاء الله أن نعبده ما عبدنا من دونه أى : غيره من شىء من آلهتنا ولا آباؤنا كذلك ٠٠ ولو شاء الله أن لا نتدخل فى التحريم والتحليل ما حرمنا ولا حللنا من دونه أى : من دون إذنه ومشيئته من شىء مما حللناه، لأنفسنا، أو حرمناه على أنفسنا.

ومعنى الكلام : أنه شاء، ولا راد لمشيئته، وقد فعلنا وفق مشيئته، فما ذنبنا٠٠؟

وكذلك فعل الذين كفروا من قبلهم.

وكلامهم صحيح ٠٠ حيث إن كل شىء بمشيئته.

ولكن استنتاجهم فاسد ٠٠ إذ من الذى أعلمهم بمشيئة الله قبل اختيارهم لما فعلوا ٠٠ إن الله لم يحرمهم من حرية اختيارهم، ولم يسلبهم مشيئتهم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر [الكهف ٢٩] .

ولذلك : فتعليلهم لكفرهم فاسد، وحريتهم فى اختيار أفعالهم كاملة، وعقابهم على ما يختارون من الكفر منطقى.

وهذا ٠٠ ما بلغتهم به الرسل، دون إلزام لهم وسلب لحريتهم.

فهل على الرسل إلا البلاغ المبين الواضح بهذا ٠٠؟

* * *

هؤلاء الرسل الذين عليهم هذا البلاغ.

يقول عنهم المولى سبحانه :

{ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }
[الآية ٣٦]

يعنى : هؤلاء الرسل الذين بلغوا لم تخل منهم أمة ٠٠ حيث بعثنا فى كل أمة من الأمم السابقة رسولاً كما بعثنا إليكم يا أمة آخر الزمان محمداً صلى الله عليه وسلم.

وكان كل رسول ينادى أمته أن اعبدوا الله وحده واجتنبوا طاعة الطاغوت وهو الشيطان، وكل ظالم يصرف الناس عن شرع الله، ويحملهم على غيره ٠٠!!

فمنهم أى : من هذه الأمم وأفرادها من هدى الله واستجاب لدعوة الرسل وأطاع الله، واتبعهم.

ومنهم من حقت عليه الضلالة حيث اختار الكفر، والغواية، فأضله الله.

وهؤلاء الذين حقت عليهم الضلالة، ونزل بهم العذاب كثير ٠٠

فسيروا أيها المكذبون فى الأرض لتروا آثارهم فانظروا واعتبروا كيف كان عاقبة المكذبين وكيف تكون عاقبتكم إن بقيتم على تكذيبكم ٠٠؟

* * *

يا حبيبى يا محمد ٠٠

{ إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ }
[الآية ٣٧]

أى : إن تحرص على هدايتهم، وإيمانهم، وتبذل كل ما تستطيع لتحقيق ذلك، وتحزن على عدم هدايتهم ٠٠ ف اعلم أن الله لا يهدى من يضل ممن اختار الضلال على الهدى فأضله الله.
وما لهم من ناصرين يمنعوهم من وقوع العذاب عليهم، عند حلوله بهم.

* * *

يا محمد ٠٠ هؤلاء الذين تحرص على هداهم وضلوا : أنكروا وحدانية الله.

{ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }
[الآية ٣٨]

أى : وأنكروا البعث أيضاً، حيث أقسموا بالله جهد أيمانهم مؤكدين قسمهم ٠٠ أنه لا يبعث الله من يموت فلا بعث، ولا حساب، ولا جزاء، ولا جنة ولا نار.
ويرد الله عليهم مكذباً قولهم بلى أى : يبعث الله من يموت، والبعث حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة ذلك.

* * *

ولهذا البعث علة وحكمة ٠٠

{ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ }
[الآية ٣٩]

يعنى : يبعثهم ليبين لهم الذى يختلفون فيه من دعواهم أنهم على الهدى، وفيما كذبوا به الرسل، وإنكارهم البعث ·· وليعلم الذين كفروا حين يرون العذاب أنهم كانوا كاذبين على أنفسهم فى كل ما خدعوها به.

* * *

وليكن معلوماً ·· أن البعث هذا : هين جداً.

{ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }
[الآية ٤٠]

أى : قدرتنا بالغة، وأمرنا نافذ ·· بكن فقط : يتحقق المطلوب.

* * *

والذين آمنوا بالبعث، واستعدوا له، يوفون أجرهم بغير حساب ··

{ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }
[الآيتان ٤١ ، ٤٢]

نعم ·· والذين آمنوا بالبعث وهاجروا فى الله أى : خالصاً لوجهه من بعد ما ظلموا وأوذوا فى سبيل الله، ومنعوا العبادة.

لنبوئنهم لننزلنهم، ولنكافئنهم.

أولاً : فى الدنيا عيشة حسنة كلها اطمئنان ورضى.

ثانياً : فى الآخرة ·· أجراً حسناً ولأجر الآخرة أكبر وهو الجنة.

لو كانوا أى : الكفار يعلمون ذلك ·· ما تخلفوا عن الإيمان، وما فاتهم – حينذاك – هذا الخير.

على كل حال ·· الذين آمنوا بالبعث وهاجروا فى الله من بعد ما ظلموا هم الذين صبروا على أذى المشركين، ومفارقة الأوطان، والجهاد فى سبيل الله، و هم الذين على ربهم يتوكلون يفوضون أمورهم إلى الله، ويعتمدون عليه.

* * *

ولما انقطعت حجج المشركين أمام وضوح القرآن، وحسن تبليغ محمد صلى الله عليه وسلم للرسالة ٠٠ قالوا : الله أعظم من أن يرسل بشراً، فهلا بعث إلينا ملكاً ٠٠؟

رد الله تعالى عليهم بقوله :

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }

[الآيتان ٤٣ ، ٤٤]

يعنى : هذا اقتراح فيه تعنت ٠٠ حيث إننا ما أرسلنا رسولاً ممن أرسلنا من قبلك إلا كانوا رجالاً مثلك، وكنا نوحى إليهم كما نوحى إليك.

قل لهم : إن كنتم لا تصدقون ذلك فاسألوا أهل الذكر أى : أهل الكتاب، وأنتم على صلة بهم، وهم يعلمون صدق ذلك إن كنتم لا تعلمون.

وقد أرسلناهم بالبينات أى : المعجزات، التى تؤيدهم فى دعواهم للرسالة والزبر أى : الكتب، التى فيها مادة الرسالة.

والبينات والزبر : علامتان على أنهم رسل، وهكذا كانوا رجالاً، وليسوا ملائكة.

و قد أنزلنا إليك الذكر وهو القرآن معجزة من ربك، فاجتمعت لك العلامتان، المعجزة، والكتاب.

وكان نزول الكتاب لتبين للناس ما نزل إليهم من ربهم فيه من الحلال والحرام لعلهم يتفكرون فى ذلك، فينتبهون، فيؤمنون، ويزدادون إيماناً، وينجون من العذاب ٠٠

* * *

أيها الأحبة فى الله ٠٠

خبرونى بربكم ٠٠

لم لا يعمل هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر ٠٠ عقولهم، ويفكرون فيما أنزل الله ٠٠؟

{ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }

[الآيات ٤٥ – ٤٧]

يعنى : أفأمن هؤلاء الذين مكروا المكر السيىء، وفعلوا الأفعال السيئات من محاربة الله ورسوله، وإيذاء الخلق، وإفساد البلاد ٠٠ من عذاب الله٠٠؟

هل أمنوا أن يخسف الله بهم الأرض؟ كما حدث للظالمين من قبلهم، وكما يحدث فى كثير من مناطق العالم اليوم ٠٠؟

أو أمنوا أن يأتيهم العذاب بالأمراض، أو الكوارث، أو القلق من حيث لا يشعرون ولا يعرفون لها سبباً، ولا يستطيعون لها منعاً.

أو هل أمنوا أن يأخذهم الله، أخذ عزيز مقتدر مرة واحدة، وهم فى تقلبهم تحركهم وإيذائهم فى البلاد وأهلها فما هم بمعجزين ولا هاربين من هذا العذاب الإلهى ٠٠؟

أو هل أمنوا أن يأخذهم الله، أخذ عزيز مقتدر على تخوف أى : حادثاً وراء حادث، وكارثة وراء كارثة، وهم فى خوف دائم، حتى يهلكهم جميعاً ٠٠؟

حقاً ٠٠ هم لا يأمنون ذلك، ومع ذلك : لا يكفون عن ظلمهم، ولا يعاجلهم الله بالعقوبة.

صحيح : فإن ربكم لرءوف رحيم.

* * *

أيها الأحبة ٠٠

مرة أخرى : خبرونى بربكم ٠٠

لم لا يُعْمِل هؤلاء عقولهم، ويفكرون فيما أنزل الله ٠٠؟

{ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ }
[الآية ٤٨]

يعنى : أوَ أغلق هؤلاء عيونهم ولم يروا وينظروا إلى ما خلق الله من كل شىء فى الكون له ظل ، ويروه كذلك تتفيأ ظلاله هذه أى : تنتقل وتتحول عن اليمين والشمائل على حسب ضوء الشمس سجداً لله أى : خاضعة وهم داخرون يعنى : لا يمتنعون من ذلك.

وبالتالى : فلم لم يستفيدوا ولم يعتبروا ٠٠؟

أو أنهم رأوا هذه الأشياء ٠٠ وعاندوا، ولم يعتبروا ٠٠.

* * *

على كل حال ٠٠

{ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }
[الآيتان ٤٩ ، ٥٠]

أى : كل شىء فى الكون يسجد لله تعالى ٠٠ من دابة على وجه الأرض كانت، أو من الملائكة كلهم يخضع لله ويسجد وهم لا يستكبرون على ذلك.

وهم فى سجودهم هذا ٠٠ يخافون ربهم من فوقهم وهو عال عليهم بقدرته وقهره سبحانه ويفعلون ما يؤمرون به، ويطيعون.

* * *

فإذا كانت هذه الأشياء كلها خاضعة لله ساجدة ٠٠!!

وإذا كانت الملائكة كذلك : خاضعة لله ساجدة ٠٠!!

فهم لا يخضع هؤلاء، ويسجدون، ويطيعون، ويؤمنون ٠٠!!!

إنه العناد.

ولعنة الله على العناد.

* * *

لقد بينت الآيات الكريمة أن كل شىء فى الوجود خاضع لله تعالى وحده، يسجد له، طائعاً، غير مستكبر.

لذلك : من المنطقى أن لا يكون له سبحانه شريك.

حيث يقول جل وعلا :

{ وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ }

[الآية ٥١]

أى : وقال الله تعالى فى كتبه وعلى ألسنة رسله، للدنيا كلها لا تتخذوا أيها الناس إلهين اثنين أى : شركاء لله، فى العبادة، أو فى الطاعة إنما المستحق لذلك هو إله واحد وهو الله عز وجل.

وعلى ذلك فإياى فارهبون خافون، واتقون، حيث لا ينبغى أن يكون فى قلوبكم رهبة، ولا خشية، ولا طاعة إلا لله تعالى.

* * *

نعم إنما هو إله واحد.

{ وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ }

[الآية ٥٢]

أبداً ٠٠ أبداً، فهذا لا يليق.

حيث إن هذا الإله الواحد له وحده ما فى السموات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً وتصرفاً وله وحده كذلك الدين أى الطاعة واصباً أى : واجباً ثابتاً دائماً.

هذا هو الله تعالى ٠٠

أفغير الله بعد أن عرفتموه تتقون وتحذرون، وتحاولون وقاية أنفسكم، وذلك لا يكون، ولا ينبغى إلا لله ٠٠؟

صحيح ٠٠ كيف تتقون وتخافون غيره ٠٠؟

* * *

{ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ }
[الآية ٥٣]

أى : كل نعمة تصلكم، من : عافية، وغنى، وراحة بال ٠٠ فهو من الله ٠٠ فكيف تشركون معه غيره ٠٠؟

كما أنه : إذا مسكم الضر ، ونزلت بكم بأساء، من مرض، أو فقر، أو هم، أو أى مصيبة ٠٠ فإليه وحده تجأرون بالدعاء، أن يخلصكم منها، وأن يكشفها عنكم ٠٠ فكيف إذن تشركون معه غيره ٠٠؟

هذا أمر عجيب ٠٠ لا ينبغى، ولا يليق.

* * *

والأعجب منه : ما يقوله رب العزة لهم :

{ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ }
[الآيتان ٥٤ ، ٥٥]

نعم ٠٠ يوحدون فى الشدائد، ويشركون عند رفعها، يؤمنون بالله ويدعونه فى الضراء، ويشركون معه غيره فى السراء.

إذا كشف الضر عنكم إذا فريق عنكم بدل الشكر ٠٠ إذا بهم بربهم يشركون.

حقاً إنه كفران بالنعمة، وبالمنعم ليكفروا بنا، وبما آتيانهم من نعم ٠٠

فتمتعوا بكفركم وسوء تصرفكم فسوف تعلمون عاقبة كل ذلك.

* * *

هذا ٠٠ ولما بين ربنا تبارك وتعالى فساد موقف أهل الشرك : بدأ فى تفصيل أقوالهم، وبيان فسادها.
ومن أقوالهم الفاسدة هذه : ما يحكيه رب العزة بقوله :

{ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ }
[الآية ٥٦]

أى : أن هؤلاء المشركين يجعلون لأصنامهم التى لا يعلمون عنها شيئاً إذ هى آلهة مدعاة، وأوهام موروثة نصيباً مما رزقناهم يتدخلون فيه بالتحريم، والتحليل، مع أن التشريع كله لا يكون إلا من الله وحده.

ويرد عليهم المولى مبطلاً قولهم ومهدداً لهم ٠٠ بقوله تالله لتسألن عما كنتم تفترون وتكذبون فى أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب منها، وأنها تشرع ٠٠ فتحلل وتحرم.

وهو رد على كل من جعل التشريع، والتحليل والتحريم لغير الله تعالى، وتهديد له فى ذات الوقت، فى أى عصر، وفى أى بلد.

* * *

ومن أقوالهم الفاسدة أيضاً : ما يحكيه رب العزة فى قوله :

{ وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ }
[الآيات ٥٧ – ٥٩]

يعنى : يقولون : الملائكة بنات الله، وهو كفر من ثلاث جهات :

الأولى : أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً
[الزخرف :١٩].

الثانية : أنهم جعلوها ٠٠ بنات الله، فنسبوا الولد إليه، وهو سبحانه لم يلد ولم يولد [الإخلاص ٣].

الثالثة : أنهم عبدوها مع الله، فأشركوا به غيره.

سبحانه وتعالى عن أقوالهم هذه علواً كبيراً.

وجعلوا لهم أى : لأنفسهم ما يشتهون أى : البنون.
ثم بين ربنا نظرتهم الفاسدة الآثمة للإناث ٠٠ فقال :

وإذا بشر أحدهم بالأنثى تولد له ظل وصار وجهه مسوداً من الغم بسبب هذا الخبر وهو كظيم مملوء بالغم المكبوت.

وليس هذا فقط ..

بل يتوراى ويخفتى من القوم وعن عيونهم من سوء ما بشر به من ولادة الأنثى.

ويصير فى حيرة وتردد ..

أيمسكه أى : هذا المولود، فلا يقتله على هون على مذلة وهوان وخوف من العار أم يدسه فى التراب فيقتله، ويستريح، كما يظن.

ألا ساء ما يحكمون على بناتهم بهذا الحكم، وينظرون إليهن هذه النظرة.

* * *

ثم يرد الله عليهم فسادهم هذا .. قائلاً :

{ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

[الآية ٦٠]

نعم .. للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء أى الصفة السوء، وهى احتياجهم للولد، وكراهتهم الإناث خوف الفقر والعار.

ولله سبحانه المثل الأعلى أى الصفة العالية المقدسة، وهى كونه منزها عن الولد، وعن الحاجة إلى أحد.

وهو العزيز الغالب الحكيم فى فعله، وأمره، وتصرفه.

* * *

وقد أخطئوا .. وظلموا.

{ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ }

[الآية ٦١]

أى : ولو يؤاخذ الله الناس ويعاقبهم على معاصيهم، لأهلك الجميع؛ لأن كل بنى آدم خطاء، وما ترك عليها فى تلك الحالة من دابة أى : من أحد يدب ويمشى عى وجه الأرض.

ولكن من حكمته : أنه يؤخرهم وهم على معاصيهم إلى أجل مسمى عنده لعذابهم فإذا جاء أجلهم وحان موعد عذابهم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

ولكن من حكمته : أنه يؤخرهم وهم على معاصيهم إلى أجل مسمى عنده لعذابهم فإذا جاء أجلهم وحان موعد عذابهم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

ومن أقوالهم الفاسدة ثالثاً، ما يحكيه – كذلك – رب العزة فى قوله :

{ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ }
[الآية ٦٢]

يعنى : ويجعلون لله ما يكرهون من البنات.

و فى ذات الوقت تصف أى : تقول ألسنتهم الكذب وهو أن لهم الحسنى أى : النوع الحسن، وهو البنون، أو الجنة ٠٠ إن كان هناك بعث، كما فى قول الكافر وصاحب الجنتين وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً [الكهف : ٢٦].

ويرد الله عليهم ٠٠ فيقول :

لا جرم أى : حقاً أن لهم النار التى يستحقونها وأنهم مفرطون مقدمون إليها، ومتروكون فيها.

* * *

ثم يعقب ربنا على هذه الأقوال الثلاثة الفاسدة، التى يقولونها؛ بما يثبت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم، ويدعم موقفه فى دعوته.

وذلك بقوله :

{ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية ٦٣]

أى : لا تتعجب من موقف هؤلاء ٠٠ فهو موقف الظالمين جميعاً حيث أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلاً فزين لهم الشيطان أعمالهم كما زين لهؤلاء، ويزين لكل الطغاة والعصاة.

على كل حال ٠٠ فهو وليهم المتولى أمورهم، والمزين لهم طغيانهم ومعاصيهم اليوم.

و أما فى الآخرة : فلن يكون وليهم ولهم من الله الولى الحقيقى فى الدنيا والآخرة عذاب أليم.

فواصل دعوتك ٠٠ ولا تتأثر بمواقفهم، ولا بأعمالهم ولا بأقوالهم ٠٠ يا كل داع إلى الله تعالى فالله معك.

* * *

ولأنه سبحانه ٠٠ قد جاء فى هذا التعقيب بالوعيد الشديد، والتهديد المخيف٠٠!!

فقد بين أنه ٠٠ أقام الحجة لإيمانهم، وأزاح العلة فى كفرهم ٠

بقوله :

{ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ٦٤]

يعنى : أننا أرسلنا إليهم رسولاً، وأنزلنا عليك كتاباً ٠٠
والرسول : هو أنت، والكتاب : هو القرآن.
وما أنزلنا عليك إليهم هذا الكتاب إلا لتبين لهم وللناس جميعاً الذى اختلفوا فيه من أمر الدين وهدى لهم وإرشاداً ورحمة لقوم يؤمنون به.
وبذلك : لم نهملهم، بل أهملوا أنفسهم، ولم نظلمهم، بل هم الذين يظلمون أنفسهم.

* * *

ثم تعود الآيات – من باب التأكيد والتثبيت والتعليم – لتعرفنا على الله تعالى، وتؤكد وحدانيته، وتثبت قدرته ٠٠ من خلال آياته، ونعمه.
حيث تقول :

{ وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ }
[الآية ٦٥]

أى : هو الله الذى أنزل من السماء ماءً لكم فأحيا به الأرض بعد موتها فأنبتت لكم زرعاً تعيشون عليه، بل جعل منه كل شىء حى.
إن فى ذلك لآية واضحة، دالة على وحدانية الله وقدرته لقوم يسمعون فيعقلون، فيعتبرون، فيشكرون.
فهل تسمعون، وتعقلون، وتعتبرون، وتشكرون ٠٠؟

* * *

ثم تقول :

{ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ }
[الآية ٦٦]

يعنى : وإن لكم فى الأنعام وهى : الإبل، والبقر، والغنم، والماعز لعبرة وآية ٠٠ تدل على وحدانية الله، وقدرته.

حيث نسقيكم مما فى بطونه أى : بطون هذه النعم من بين فرث الفضلات فى كروشها ودم فى عروقها ٠٠ من الأوردة والشرايين لبناً أى : نسقيكم لبناً ٠٠ من بين هذا وهذا خالصاً لا أثر فيه من لون أو طعم أو رائحة لدم، ولا لفرث سائغاً للشاربين سهلاً مستساغاً مقبولاً.

فهل ٠٠ تعتبرون، وتشكرون ٠٠؟

* * *

ثم تقول الآيات :

{ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }
[الآية ٦٧]

أى : ومن ثمرات النخيل والأعناب أى : من عصير ثمراتها، تتخذون لكم منه سكراً أى : تحلية تتفكهون بها، أو خمراً تشربونها، وذلك قبل تحريم الخمر ورزقاً حسناً تطعمون منه، وتعيشون عليه، كالتمر والزبيب.

حقاً : إن فى ذلك لآية واضحة، دالة على وحدانية الله وقدرته لقوم يعقلون فيعتبرون، فيشكرون.

فهل ٠٠ تعقلون، فتعتبرون، فتشكرون ٠٠؟

* * *

ثم تقول كذلك :

{ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }
[الآيتان ٦٨ ، ٦٩]

يعنى : ومن دلائل وحدانيته وقدرته ٠٠ أنه أوحى إلى النحل وحى إلهام بهذه الأشياء :

الأول : أن اتخذى من الجبال بيوتاً تأوين إليها ومن الشجر ومما يعرشون لك ويبنون، اتخذى كذلك بيوتاً.

الثانى : ثم كلى من كل الثمرات التى هى من صنعى وخلقى.

الثالث : فاسلكى أى : فادخلى سبل ربك طرقه فى طلب هذه الثمرات، فقد جعلها لك ذللاً أى : مذللة، سهلة، لا تضلين فيها ذهاباً وإياباً.

وكان ذلك : حتى يخرج من بطونها شراب هو العسل مختلف ألوانه فمنه : الأبيض، والأحمر، والأصفر، وذلك : بقدرة الله تعالى.

هذا الشراب، وهو العسل فيه شفاء للناس أى : فيه شفاء لبعض الناس، ولبعض الأمراض، ولم يقل فيه الشفاء إذّ ليس فيه الشفاء لكل الناس، ولكل الأمراض.

حقاً ٠٠ إن فى ذلك لآية واضحة، دالة على وحدانية الله، وقدرته لقوم يتفكرون فيعتبرون، فيشكرون ٠٠!!

فهل ٠٠ تتفكرون، فتعتبرون، فتشكرون ٠٠؟

* * *

ثم تقول الآيات خامساً :

{ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ }
[الآية ٧٠]

أى : و هو الله الذى من دلائل وحدانيته، وقدرته، أنه خلقكم ولم تكونوا شيئاً ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم، وانتهاء أعماركم.

ومنكم قبل هذه الوفاة من يرد أى : يعيش إلى أرذل العمر أى : أضعف حالاته فيه وهو الهرم لكى لا يعلم بعد علم شيئاً أى : حتى ينسى ما قد علمه، وعاد إلى شبه طفولته.

حقاً ٠٠ إن الله عليم بأحوال الناس، وأعمارهم، وما يناسب أفرادهم وأممهم قدير على ما يريده.

فهل ٠٠ تفكر الناس فى ذلك، وهل يعتبرون به، فيشركون ٠٠؟

* * *

ثم تقول الآيات فى عرض الدلائل على وحدانية الله وقدرته ٠٠ سادساً:

{ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ }
[الآية ٧١]

يعنى : و هو الله الذى من دلائل وحدانيته وقدرته ٠٠ أنه فضل بعضكم على بعض فى الرزق فجعل هذا غنياً وهذا فقيراً، وهذا لا يملك شيئا فما الذين فضلوا بالغنى وسعة الرزق برادى رزقهم والتنازل عما يملكون على ما ملكت أيمانهم من العبيد، وغيرهم ممن يلون أمورهم.

فهم من سواء لا يحبون لهم شريكاً فى أموالهم.

فكيف يرضون، ويجعلون له شريكاً فى ملكه، ممن خلق ٠٠؟!!

أفبنعمة الله يجحدون ولا يعتبرون، فيؤمنون، ويشكرون ٠٠؟!!

فهل ٠٠ تعتبرون وتشكرون ٠٠؟

* * *

ثم تقول الآيات – لنفس الغرض سابعاً :

{ وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ }

[الآية ٧٢]

أى : و هو الله الذى من دلائل وحدانيته وقدرته ٠٠ أنه ..

{ جعل لكم من أنفسكم أزوجاً} من جنسكم وشكلكم { لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة } [الروم : ٢١].

وجعل لكم من أزواجكم بنين وهم أولادكم وحفدة وهم أولاد أولادكم.

ورزقكم من الطيبات فى المطاعم والمشارب، تعيشون عليها، وتتمتعون بها حلالاً.

فكيف – بعد ذلك – تشركون ٠٠؟

أفبالباطل وهى الأصنام، وهواهم يؤمنون ولا يؤمنون بالله ٠٠؟

وبنعمة الله كذلك هم يكفرون فلا ينسبونها لله، ولا يعترفون بالفضل فيها له سبحانه.

فهل ٠٠ تؤمنون بالحق وهو الله، وبنعمته، وعلى نعمه تشكرون ٠٠؟

* * *

وبعد هذا كله ٠٠ من عرض الدلائل الوفيرة على وحدانية الله، وقدرته ٠٠

أتدرون ماذا يفعل المشركون ٠٠؟

يقول تعالى :

{ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ }

[الآية ٧٣]

سبحان الله ..!!
إنه العناد .. ولعنة الله على العناد.

* * *

يا أيها الناس .. كُفّوا .

{ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ }
[الآية ٧٤]

فلا تضربوا لله الأمثال يعنى : فلا تجعلوا لله سبحانه أشباهاً وأمثالاً، تشركونهم معه، وتقربونهم إلى الأذهان بفلسفاتكم الواهية، وضربكم الأمثال الزائفة.
حقاً .. إن الله تعالى يعلم عنادكم، ويعلم أن لا مثل له، ولا ند، ولا شبيه وأنتم لا تعلمون خطورة هذا العناد، وضرب الأمثال الكاذبة الكاذبة لله عز وجل ..!!
فلا تعاندوه، وآمنوا به سبحانه.

* * *

وإذا كان الله عز وجل .. قد نهاهم عن ضرب الأمثال، لقلة علمهم فقد ضرب لنفسه هو سبحانه مثلاً يبطل به شركهم، ويقيم به الحجة عليهم.
فقال :

{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ }
[الآية ٧٥]

أى : أنتم فى شرككم مع الله الأوثان .. كمثل من سوى بين عاجز عن التصرف : كالعبد المملوك، وقادر عليه : كالحر، الذى رزقه الله مالاً فهو ينفق منه بكامل حريته سراً وجهراً، ولله المثل الأعلى.
هل يستوى هذا مع هذا ..؟
ولما كان الفرق واضحاً، والتسوية منعدمة : كان الحمد واجباً والعبادة واجبة لله وحده.
وعدم التسوية بين الله تعالى والأوثان : واجبة على كل ذى عقل.
بل أكثرهم لا يعلمون فساد هذه التسوية، وما يترتب عليها من العذاب الذى ينتظرهم.

* * *

وليزداد الحق وضوحاً : ضرب الله مثلاً آخر ‧‧ فقال :

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }
[الآية ٧٦]

أى : أنتم – أيضاً – فى شرككم مع الله الأوثان ‧‧ كمثل من سوى بين رجلين أحدهما أبكم أخرس، لا يَفْهم، ولا يُفْهم وهو كلٌّ أى : عالة وحمل ثقيل على مولاه الذى يعوله، ويلى أموره، بل أينما يوجهه أى : يرسله وليه ويبعثه فى أى مصلحة لا يأت بخير حيث لا تنجح مساعيه، ولا يحقق شيئاً مما طلب منه، وأوكل إليه.

هل يستوى هو وثانى الرجلين من يأمر بالعدل سليم الحواس، يعرف الصواب، ويفعل الخير وهو فى نفسه على صراط مستقيم على سيرة صالحة، وسلوك طيب ‧‧؟

كلا ‧‧ لا يستويان أبداً.

ولذلك : فعدم التسوية بين الله تعالى والأوثان ‧‧ واجبة على كل ذى عقل.

فهل ‧‧ تعتبرون، وتؤمنون ‧‧؟

* * *

هذا ‧‧

ولما مثل الله عز وجل نفسه بالذى يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم‧‧

ومعلوم أن أحداً لا يكون كذلك ‧‧ إلا إذا كان كامل العلم، كامل القدرة ‧‧

ولذلك بين هذا الكمال فى ذاته سبحانه بقوله :

{ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ٧٧]

نعم ‧‧ فمن له غيب السموات والأرض وحده فهو كامل العلم.

ومن يكون أمر قيام الساعة أى : القيامة، عنده وبأمره وحده، ما هو إلا كلمح البصر أو ما هو أقرب من ذلك ‧‧ فهو كامل القدرة ‧‧ والأمران : لله تعالى وحده، وبيده سبحانه وحده.

حقاً ‧‧ إن الله وحده على كل شىء قدير.

فهل ‧‧ تعتبرون، وتؤمنون ‧‧؟

* * *

أيها الأحبة الفضلاء ..

كل هذا التعداد والتذكير بنعم الله .. كان لتحقيق هذه الغاية لعلكم تسلمون..!!

ولذلك .. من لم يسلم، ولم يشكر : فما أفاد من هذه النعم، وما اعتبر بها، بل أعرض عنها، وعن المُنْعِم بها.

والسؤال الآن .. ما موقف الرسول – وهو فى الفترة المكية – من هؤلاء؟

يجيب القرآن قائلاً :

{ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ }
[الآيتان ٨٢ ، ٨٣]

أى : فإن تولوا عنك، وأعرضوا عن الاعتبار بآيات الله الكثيرة. التى ذكرتهم بها، ولم يشكروا، ولم يؤمنوا .. فلا ملامة عليك، ولا تقصير منك فإنما عليك فقط البلاغ المبين الواضح لهم، وقد أديته، وقمت به خير قيام.

هؤلاء يا محمد، وأمثالهم فى الأمم كثير، وإلى قيام الساعة يعرفون جيداً نعمة الله أى : نعمه، ويستفيدون بها ثم ينكرونها أى : يرفضون الشكر عليها، والإيمان بسببها.

و هؤلاء أكثرهم الكافرون الذين .. لا يعتبرون، بأية نعمة، ولا يشكرون الله تعالى أبداً.

* * *

هذا ..

وبعد أن ذكر الله حال هؤلاء الذين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وبين أن أكثرهم الكافرون .. وذلك فى الدنيا.

أتبع ذلك .. بذكر حالهم يوم القيامة .. فقال :

{ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ }
[الآية ٨٤]

يعنى: و اذكر يوم نبعث الخلائق فى يوم القيامة، ونحشرهم، ونبعث كذلك من كل أمة شهيداً وهو رسولها .. يشهد عليهم بما كانوا عليه من كفر وإيمان، ومن طاعة ومعصية.

ويا له من يوم ..!!

نسأل الله فيه النجاة.

ثم لا يؤذن للذين كفروا ساعتها فى الاعتذار عن كفرهم ومعاصيهم ولا هم يستعتبون أى : ولا يسمح لهم بمحاولة استرضاء ربهم سبحانه؛ لأن الآخرة دار جزاء فقط، وقد مضى زمن العمل والاسترضاء والطاعة، وضاعت عليهم فرص النجاة.

* * *

يا له من موقف رهيب، وحال للكافرين كئيب ..!!
اقرأ أخى المسلم أيضاً ..

{ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ }
[الآية ٨٥]

أى : و كذلك إذا رأى وعاين الذين ظلموا كفروا بالله وعصوا الرسول العذاب أى : النار ، ودخلوها ..
فلا يخفف عنهم هذا العذاب ولا شيئاً منه ولا هم ينظرون أى : يمهلون لحظة ليستريحوا منه.

* * *

ومن طرائف أحوالهم ساعتها : ما يذكره رب العزة عنهم بقوله :

{ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَـؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ }
[الآية ٨٦]

يعنى : و فى هذا الوقت إذا رأى الذين أشركوا شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا : تبرءوا منهم، وقالوا ربنا هؤلاء هم شركاؤنا الذين كنا ندعو ونعبدهم من دونك فعذبهم هم، ولا تعذبنا.
فألقوا أى : آلهتهم هذه إليهم القول أى : ردت عليهم قولهم، وتبرأت منهم، وقالت لهم إنكم لكاذبون فما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا طلبنا منكم ذلك.

* * *

وهنا لا يدرون بماذا يجيبون.

يقول المولى :

{ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ }
[الآية ٨٧]

أى : و فى هذه اللحظة، التى خاب فيها أملهم، وانقطع فيها رجاؤهم ٠٠ ألقوا إلى الله يومئذ السلم أى : يستسلمون لله حيث لا ينفعهم الاستسلام، و قد ضل عنهم وبطل ما كانوا يفترون ويزعمون من أن آلهتهم سوف تنصرهم وتنفعهم.

* * *

حقاً ٠٠ هؤلاء يستحقون ما يقوله رب العزة عنهم ٠٠ حيث يقول :

{ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ }
[الآية ٨٨]

نعم ٠٠ لأنهم كفروا بالله تعالى وصدوا غيرهم عن سبيل الله أى : عن دينه ٠٠ زدناهم عذاباً فوق العذاب أى : نعذبهم عذاباً لإفسادهم فى الأرض، فوق عذابهم لكفرهم وصدهم الناس عن دين الله.

* * *

وبعد أن هددهم رب العزة فيما سبق بقوله تعالى ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ٠٠
يكرر ربنا عز وجل نفس التهديد محذراً من أهوال يوم البعث، وموضحاً على أن هذه الشهادة تكون عليهم، وليست لهم، وبحضرتهم، وليست فى غيبتهم٠٠
وذلك بقوله تعالى :

{ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ }
[الآية ٨٩]

المعنى : و اذكر يا محمد يوم القيامة، حين نبعث فى كل أمة من الأمم شهيداً عليهم من أنفسهم وهو نبيهم.

وجئنا بك أى : نجيء بك يا محمد شهيداً على هؤلاء الأمم وأنبيائهم، كما فى قوله تعالى فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً [النساء : ٤١].

هذا ..

و قد نزلنا عليك الكتاب أى القرآن ..

تبياناً لكل شيء يحتاج إليه الناس جميعاً لإسعاد حالهم، وإصلاح بلادهم.

وهدى من الضلالة والفساد ورحمة من غضب الله، وعذابه وبشرى بالجنة، ورضوان الله للمسلمين الموحدين.

* * *

أيها الأحبة فى الله ..

لما قال ربنا تبارك وتعالى ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين أتبع ذلك بتلخيص مقاصد القرآن، وذلك فى آية .. جمع فيها : ما يتصل بالتكليف، فرضاً ونفلاً، وما يتصل بالأخلاق، والآداب عموماً وتفصيلاً ..

فقال :

{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }
[الآية ٩٠]

يعنى : إن الله سبحانه ..

يأمر عباده فيما أنزله تبياناً لكل شيء بثلاثة أشياء :

بالعدل فى كل شيء، العدل فى أداء الحقوق، والعدل فى القيام بالواجبات.

ويلاحظ : أنه لا يتحقق العدل فى الحياة .. إلا بإقامة كتاب الله، وسنة رسوله.

و يأمر كذلك بـــ الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك.

و يأمر ثالثاً بـــ إيتاء ذى القربى حقه، اهتمامًا به، ورعاية له.

وينهى عباده فيما أنزله تبياناً لكل شيء، بثلاثة أشياء :

ينهى عن الفحشاء وهى الذنوب المفرطة فى القبح.

و ينهى كذلك عن المنكر وهو ما تنكره العقول السليمة والفطر المستقيمة.

و ينهى ثالثاً عن البغى وهو الظلم والعدوان، وخصه بالذكر : تبشيعاً لأمره، واهتماماً بالابتعاد عنه.

إن الله سبحانه يعظكم بهذه الأوامر والنواهى لعلكم تذكرون فتنتبهون، فتتعظون، فتفلحون.

* * *

وبعد هذا الإجمال للمأمورات والمنهيات ..
يبدأ التفصيل ..
وذلك بقوله تعالى :

{ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ }
[الآية ٩١]

أى : وأوفوا بعهد الله وهو كل ما كان فيه صلاح للفرد وللأمة إذا عاهدتم عليه الغير.
ولا تنقضوا الأيمان الداخلة فى العهود والمواثيق بعد توكيدها باسم الله تعالى وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً أى : شاهداً، ورقيباً.
حيث إن الله تعالى يعلم ما تفعلون من وفائكم بالعهود، ونقضكم للأيمان، والعكس .. فيجازيكم عليه.

* * *

ثم يقول سبحانه :

{ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }
[الآية ٩٢]

يعنى : ولا تكونوا فى نقض عهودكم وأيمانكم كالتى نقضت أفسدت غزلها التى غزلته من بعد قوة فيه، وإحكام له، فجعلته أنكاثاً أى : أنقاضاً مهدماً.
حيث إنكم تتخذون أيمانكم أى : عهودكم دخلاً بينكم أى : خديعة، ومكراً، وإفساداً.
وذلك بـــ أن تكون أمة لم تعاهدوها هى أربى أزيد عدداً، وأكثر قوة من أمة عاهدتموها .. فتنقضون عهدكم مع من عاهدتم طمعاً فى معاهدة الأمة الأزيد عدداً، والأكثر قوة.
إنما فعلكم هذا : مخالفة بشرع الله.
يبلوكم الله به ويختبركم بكون هذه أربى من هذه، لينظر فعلكم، أتوفون عهدكم، أم تنقضون ..؟
وليبينن لكم يوم القيامة عند الحساب والجزاء ما كنتم فيه تختلفون فاحذروا مخالفة عهد الله، وشرعه.

* * *

وبعد أن أخبر ربنا تعالت عظمته : أنهم يتخذون أيمانهم دخلاً بينهم وإفساداً.

نهى عن ذلك وبين أضراره .. بقوله تعالى :

{ وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }
[الآية ٩٤]

والمعنى : ولا تتخذوا أيمانكم وعهودكم دخلاً بينكم أى خديعة ومكراً وإفساداً ٠٠ فإنه حرام عليكم.
ولو حدث ٠٠ فأضراره كالتالى :

أولاً : فتزل قدم عن الإسلام، وتنحرف عنه بعد ثبوتها عليه.
ثانياً : وتذوقوا السوء أى : العذاب الدنيا بما صددتم عن سبيل الله حيث يتخذكم غيركم قدوة له فى هذا الفساد.
ثالثاً : ولكم فى الآخرة على ذلك عذاب عظيم.

* * *

ثم يؤكد ربنا عز وجل هذا التحذير، ويرغب فى الامتثال بقوله :

{ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }
[الآيتان ٩٥ ، ٩٦]

أى : لا تنقضوا الأيمان التى عاهدتم عليها، ولا تتخذوها دخلاً بينكم ٠٠ فهى عهود الله، ولا تشتروا بعهد الله أى بنقضه ثمناً قليلاً من حطام الدنيا الفانى، ومتاعها الزائل.
حيث إنما عند الله من ثواب وجزاء على الوفاء بالعهد هو خير لكم لو حافظتم على العهود رجاء الموعود من الله إن كنتم تعلمون وإن لم تكونوا تعلمون، فاعلموا ذلك، واعملوا به.
يا أيها الناس ما عندكم من عرض الدنيا، مهما كان كثيراً ينفد وينتهى وما عند الله فى خزائن رحمته باق لا ينفد، ولا ينتهى أبداً.
والوفاء بالعهود ٠٠ قد يحتاج إلى مشقة وصبر ومجاهدة ٠٠
وثواب هذا لا يضيع.
يقول تعالى :
ولنجزين الذين صبروا فى امتثال أوامر الإسلام، واجتناب نواهيه أجرهم الذى يوعدون به فى الدنيا والآخرة بأحسن وأفضل ما كانوا يعملون فى الدنيا.

* * *

ثم وعد الله عز وجل من آمن، وعمل صالحاً ٠٠ بالحياة الطيبة فى الدنيا، والجزاء الحسن فى الآخرة، مرغباً للمسلمين فى الإتيان بكل ما كان من شرائع الإسلام.
فقال :

{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ٩٧]

يعنى : من عمل صالحاً يسعد العباد، ويصلح البلاد، وكان موافقاً للكتاب والسنة، سواء كان هذا العمل الصالح من ذكر أو أنثى من بنى آدم وهو مؤمن بالله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم فلنحيينه فى الدنيا حياة طيبة أى : فيها كل وجوه الراحة، من أى جهة كانت ولنجزينهم أيضاً أجرهم فى الآخرة بأحسن ما كانوا يعملون.

* * *

وبعد أن بين العزيز الحكيم جزاء العمل الصالح : أرشد إلى عمل صالح، تخلص به أعماله عن وساوس الشيطان ٠٠
فقال :

{ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ }
[الآيات ٩٨ — ١٠٠]

هذا أمر من الله تعالى لكل مسلم فإذا قرأت أى : أردت قراءة القرآن الكريم فاستعذ بالله من الشيطان أى : إبليس الرجيم المطرود من رحمة الله ٠٠ أى : قل ٠٠ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.
وهو ضعيف ٠٠ فلا تخشاه.
حيث إنه ليس له سلطان أى : تسلط، أو ولاية بأى نوع أو شكل كان على من اتصف بصفتين :

الأولى : الإيمان الذين آمنوا ووثقوا فى حماية الله.
الثانية : التوكل على الله وعلى ربهم يتوكلون فى كل أمورهم، ولا يعتمدون إلا عليه.

ولكن ٠٠
إنما سلطانه وتأثيره، وتسلطه على من اتصف بصفتين كذلك :

الأولى : اللجوء إليه، والاعتماد عليه الذين يتولونه، فيطيعونه، ويقبلون وساوسه.
الثانية : جعله شريكاً عندهم لله والذين هم به وبسببه مشركون بالله تعالى، كافرون.

* * *

هذا ..

ومن وساوس الشيطان وشكوكه، التى يبثها فى نفوس وعقول الذين يتولونه والذين هم به مشركون .. ما يتعلق بالقرآن الكريم.

حيث يقولون : إن محمداً يأمر اليوم بأمر، ويأمر غداً بخلافه، وما ذلك .. إلا لأن القرآن من عنده، وقد افتراه.

يصور الله ذلك بقوله :

{ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }
[الآية ١٠١]

أى : وإذا بدلنا وأنزلنا آية فى القرآن مكان آية أخرى، قد نسخناها لمصلحة العباد والله سبحانه أعلم بما ينزل لمصالح العباد، وبما ينسخ.

لو فعلنا ذلك : قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم – بوسوسة من شياطينهم – إنما أنت مفتر لهذا القرآن، وآت به من عندك.

بل أكثرهم لا يعلمون حقيقة القرآن، وأنه من عند الله، وأن تبديل آية مكان آية إنما هو للتخفيف والمصلحة.

* * *

ثم يرد عليهم فى ذلك بقوله :

{ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ }
[الآية ١٠٢]

أى : قل لهم يا محمد، ويا أيها المؤمن .. إنما نزله روح القدس وهو جبريل عليه السلام من عند ربك وبأمره، وليس من عند محمد ولا اختلاقه، وقد نزل بالحق والحكمة والعدل.

وذلك :

ليثبت بالحق الذى فيه الذين آمنوا به.

وهدى لهم من الضلالة والفساد.
وبشرى لهم بالجنة ورضوان الله.
كل ذلك للمسلمين الموحدين.

* * *

أيضاً ..
وسوسة أخرى من الشيطان يبثها فى نفوس وعقول الذين يتولونه والذين هم به مشركون فى القرآن الكريم.
حيث يقولون : إن القرآن لم يأت به محمد من عند الله، بل علمه إياه بشر.
يصور الله ذلك – أيضاً – ويرد عليهم، بقوله :

{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ }
[الآية ١٠٣]

يعنى : نحن نعلم يا محمد أنهم يقولون عنك إنما يعلمه القرآن بشر، ويتلقاه منه، وليس من الله.
ويرد عليهم رب العزة .. قائلاً :
لسان أى : لغة الذى يلحدون أى : يشيرون إليه، ويقصدون بكلامهم أنه يعلم القرآن للنبى صلى الله عليه وسلم .. لسان أعجمى أى : غير عربى.
وهذا أى : محمد لسان أى يتكلم بلغة ولسان عربى وليس عربياً فقط، بل مبين ذو فصاحة.
فكيف يتعلم هذا من ذاك .. هذا كلام باطل، باطل.

* * *

هؤلاء الذين تقبلوا وساوس الشيطان، وآمنوا بها، وأذاعوها، ودافعوا عنها يهددهم الله تعالى .. بقوله :

{ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية ١٠٤]

أى : إن هؤلاء الذين يستجيبون لوساوس الشيطان، ويكفرون بسببها لا يؤمنون فى علمه تعالى بآيات الله.
ولذلك لا يهديهم الله إلى الإيمان ولهم فى ذات الوقت عذاب أليم.

* * *

وكذب ما قالوا على محمد صلى الله عليه وسلم إنما أنت مفتر.
حيث إنه :

{ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُولـئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ }
[الآية ١٠٥]

يعنى : لم يفتر محمد صلى الله عليه وسلم القرآن كما يدعون إنما يفترى ويختلق الكذب على الله، وعلى محمد صلى الله عليه وسلم الذين لا يؤمنون بآيات الله وهى القرآن، حيث يقولون : إنه من قول بشر.
وأولئك حقيقة هم الكاذبون فى قولهم لمحمد إنما أنت مفتر وقولهم كذلك عنه إنما يعلمه بشر.

* * *

وبعد ..
فإن الله عز جاهه .. لما شدد فى تهديد الكافرين ..
فصل – جلت حكمته – فى بيان من يكفر بلسانه لا بقلبه، ومن يكفر بلسانه وقلبه معاً.
فقال :

{ مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }
[الآية ١٠٦]

أى : من كفر بالله من بعد إيمانه فهو الذى يفترى الكذب على الله تعالى، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وأولئك هم الكاذبون المرتدون.
من أكره على النطق بالكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فليس من الكافرين، وليس من المرتدين.
ولكن كل من شرح بالكفر صدراً نطق به دون إكراه، وطابت به نفسه فعليهم غضب من الله تعالى ولهم من الله عذاب عظيم.

* * *

وهؤلاء يستحقون ما ينزل بهم فعلاً ..

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }
[الآية ١٠٧]

يعنى : ذلك الغضب عليهم من الله، والعذاب العظيم الذين ينزل بهم ٠٠ بأنهم أى : لأنهم استحبوا وفضلوا الحياة الدنيا على الآخرة.
ولذلك : فهم فى ضلال.
والسنة الإلهية أن الله لا يهدى إلى الإيمان القوم الكافرين الذين اختاروا الكفر، ورضوا به.

* * *

وهم ٠٠

{ أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }
[الآية ١٠٨]

أى : أن القوم الكافرين، الذين لا يهديهم الله ٠٠
هم أولئك الذين طبع أى : ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم.
وأولئك حقيقة هم الغافلون عما ينتظرهم، ويراد بهم من العذاب.

* * *

وليس هذا فقط بل ٠٠

{ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ }
[الآية ١٠٩]

يعنى : لا جرم أى : حقاً أنهم فى الآخرة وعند الحساب هم الخاسرون لكل شىء.

* * *

وبعد أن حدثنا ربنا – تبارك وتعالى – عمن أكره على الكفر وقلبه مطئمن بالإيمان ٠٠

يخبرنا عن هؤلاء ٠٠ أنهم إذا هاجروا، وجاهدوا، وصبروا : فإن الله سيغفر لهم.
وذلك بقوله تعالى :

{ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ١١٠]

أى : أن هؤلاء الذين فتنوا وأكرهوا على النطق بالكفر وقلوبهم مطمئنة بالإيمان ٠٠ إذا هاجروا من أجل الدين وجاهدوا المشركين فى سبيل الله وصبروا على هذا الجهاد : فإن الله سيغفر لهم.
حيث إن ربك من بعدها أى : هذه الفتنة التى حدثت لهم لغفور لهم رحيم بهم، فى الدنيا والآخرة.

* * *

نعم ٠٠ إن ربك من بعدها لغفور رحيم لهم فى الدنيا والآخرة.
نعم فى الآخرة ٠٠

{ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }
[الآية ١١١]

والمعنى : يوم القيامة تأتى كل نفس وتقوم تجادل عن نفسها وتحاول الخلاص مما هى فيه، لا يهمها إلا ذاتها، لا يهمها : أب، ولا أم، ولا ولد، ولا خلافه.
و فى هذا اليوم توفى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر وهم لا يظلمون شيئاً من أجورهم، أو فى عقابهم.

* * *

ولما هدد الله تعالى الكفار الذين يفتنون المؤمنين عن دينهم بالعذاب فى الآخرة هددهم أيضاً بآفات الدنيا، وهو الوقوع : فى الجوع، والخوف، وخلافه.
فقال :

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ }
[الآية ١١٢]

أى : وضرب الله مثلاً قرية أى : جعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم، وأبطرتهم النعمة ٠٠ فكفروها وطغوا وبغوا؛ فأنزل الله بهم نقمته.

هذه القرية كانت تتمتع بهذه الصفات :

الأولى : أنها آمنة من الغارات عليها، والإيذاء لأهلها.
الثانية : أنها مطمئنة البال، هادئة الحال، لا يزعجها خوف.
الثالثة : يأتيها رزقها رغداً واسعاً متنوعاً من كل مكان فى كل وقت.

وكان الواجب على أهلها، فى هذه الحال : الشكر لصاحب هذه النعم.
ولكنها كفرت بأنعم الله هذه.
فـــ عاقبها الله تعالى بسلب هذه النعم؛ حيث أذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون من ظلم وبغى وعدوان.

* * *

ولما ذكر ربنا عز وجل المثل : ذكر الممثل به، وهم أهل مكة الذين كفروا .. فقال :

{ وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ }
[الآية ١١٣]

يعنى : ولقد جاءهم رسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ليس بغريب عنهم، بل هو منهم يعرفونه خلقاً ونسباً؛ ليأخذ بأيديهم من الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور ٠٠ وهذه من أجل النعم.
فكذبوه وعاندوه، واستهزءوا به، وبما دعاهم إليه.
فأخذهم العذاب بالجوع والخوف وهم ظالمون يستحقون ما نزل بهم.

* * *

ولأن هذا الجوع، وذاك الخوف ٠٠ كان بسبب الكفر : فكأن المولى جلت حكمته يدعوهم إلى الإيمان ٠٠ ومن ثمَّ يقول لهم :

{ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }
[الآية ١١٤]

أى : فكلوا يا من آمنتم مما رزقكم الله حلالاً طيباً ولا تحرموا أنفسكم من أى طيب مباح واشكروا نعمة الله أى : اشكروا الله على جميع نعمه إن كنتم إياه تعبدون بحق؛ حيث إن العبادة لا تدعو إلى الحرمان من الطيبات، كما أنها تدعو إلى شكر المُنْعِم على نعمه.

* * *

ومن العبادة : الالتزام بشرع الله تعالى فيما أحل وفيما حرم.
حيث يقول سبحانه :

{ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ١١٥]

فى الآية الكريمة : بيان لما حرم الله، مما فيه مضرة فى الدنيا والدين.
أى : إنما حرم عليكم ربكم هذه الأشياء، فامتثلوا وامتنعوا عنها.
وهى فقط هذه الأشياء الأربعة الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وما عداها ٠٠ فهو حلال، فكلوه.
فمن ألجأته الظروف واضطر للأكل من هذه الأشياء للحفاظ على حياته.
غير باغ متجاوز قدر الضرورة ولا عاد أى : ولا منكر لشرع الله، متعد على أحكامه.
فإن الله سبحانه غفور له رحيم به، لا يعاقبه على ذلك.

* * *

ثم أكد هذا التحريم، ونهى عن اتباعهم لأهوائهم فيه، وسلوك سبيل المشركين فيما فعلوه من ذلك ٠٠ فقال :

{ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلاَلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ }
[الآية ١١٦]

يعنى : لا تأكلوا ما حرم الله ولا تقولوا كذلك فى التحليل والتحريم لما تصف ألسنتكم الكذب أى : بمجرد نطق ألسنتكم كذباً، قائلة هذا حلال وهذا حرام لما لم يحله الله ولم يحرمه بنفسه.
وذلك لتفتروا على الله الكذب حيث تحلون وتحرمون بأهوائكم.

إن الذين يفترون على الله الكذب فى التحليل والتحريم من عند أنفسهم، أو ابتداع ما ليس له مستند شرعى لا يفلحون لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

* * *

وبيان عدم فلاحهم ٠٠ هو هذا :

{ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية ١١٧]

أى : أن عدم فلاحهم فى الدنيا ٠٠ بسبب أن ما يحصلون عليه من الكذب على الله : هو متاع قليل فانٍ، لا يساوى شيئاً.

وأما عدم فلاحهم فى الآخرة ٠٠ فبسبب أن لهم فيها نتيجة هذا الكذب على الله عذاب أليم غاية الإيلام.

* * *

وبعد أن بين الله تعالى ما أحل لهذه الأمة المسلمة، وما حرم عليها، وما رخص لها فيه عند الضرورة ٠٠ توسعة لهم ورحمة ٠٠

ذكر ما كان قد حرمه على اليهود فى شريعتهم، قبل أن تنسخ بالإسلام.

فقال :

{ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }
[الآية ١١٨]

يعنى : وعلى اليهود ٠٠ كنا قد حرمنا عليهم ما قصصنا عليك يا محمد من قبل فى سورة الأنعام، فى قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم [الأنعام : ١٤٦].

وما ظلمناهم بهذا التضييق والتحريم عليهم.

ولكن كانوا أنفسهم وبسبب معاصيهم يظلمون لها، كما قال ربنا فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً [النساء : ١٦٠].

* * *

وعلى كل حال ٠٠ فالافتراء على الله، ومخالفة أمره وجميع المعاصى لا تمنع من التوبة إلى الله، وحصول المغفرة والرحمة.

يقول جل فى علاه :

{ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ١١٩]

أى : ومع كل هذا ٠٠ إن ربك واسع المغفرة ٠٠

فهو سبحانه للذين عملوا السوء بجهالة أى : بدافع من غلبة شهوة، أو قلة علم، أو ضعف عزيمة، غير متعمدين، ولا معاندين ثم تابوا من هذا السوء، ورجعوا عنه من بعد خطئهم ذلك وندمهم عليه وأصلحوا ما أفسدوا مع الله، ومع الناس لغفور لذنوبهم رحيم بهم.

حيث إن ربك كريم غفور حليم رحيم.

* * *

هذا ٠٠ واعلم جيداً :

لما عاب على المشركين فى هذه السورة، ونقض أقوالهم ؛ من مثل : إثبات الشركاء لله، والطعن فى الرسل عليهم السلام، وافترائهم على الله فى التحليل والتحريم.

ولما كان إبراهيم عليه السلام ٠٠ رئيس الموحدين، وكانوا به يفتخرون، ويقرون بوجوب اتباعه، والاقتداء به.

لذلك : ذكره الله تعالى، بعد كل هذا؛ ليكون حجة عليهم فى ضرورة توحيد الله، والإيمان به، وبرسله.

فقال :

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ }
[الآيات ١٢٠ – ١٢٢]

فى هذه الآيات الكريمة يصف ربنا تبارك وتعالى أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بصفات تسع ٠٠ وهى كالتالى :

الأولى : كان أمة.

نعم ٠٠ كان أمة، حيث اجتمع فيه من صفات الكمال، وصفات الخير، والأخلاق الحميدة، ما اجتمع كله فى أمة بكاملها، وقام مقام أمة فى عبادة الله.

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

الثانية : كونه قانتاً لله أى : مطيعاً له غاية الطاعة.

الثالثة : كونه حنيفاً أى : ملتزماً بالإسلام، لا يزول عنه، ولا يميل إلى غيره.

الرابعة : لم يك من المشركين لا فى الصغر، ولا فى الكبر، مع أنه ولد ونشأ وعاش فى بيئة كلها شرك فى شرك.

الخامسة : كان شاكراً لأنعمه القليلة والكثيرة.

السادسة : أن ربه اجتباه واصطفاه للنبوة، وأخذه كلية.

السابعة : أن الله هداه إلى صراط مستقيم فى الدعوة إلى الحق، والترغيب فيه، و السير عليه.

الثامنة : آتاه الله فى الدنيا حسنة حيث حبب الله فيه كل الخلق، من جميع الملل، وذلك جواباً على دعوته لربه قائلاً واجعل لى لسان صدق فى الآخرين [الشعراء : ٨٤].

التاسعة : إنه فى الآخرة لمن الصالحين حيث أجاب الله دعاءه، حيث قال رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين [الشعراء : ٨٣].

* * *

وبعد أن وصف الله إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات الرفيعة : أتبعها ربنا بأجل الصفات التى أنعم الله عليه بها ٠٠

وهى : اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ملته ودينه، وهو الإسلام.

وفى ذلك كذلك : ما فيه من تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم٠٠

حيث يقول ربنا :

{ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }

[الآية ١٢٣]

أى : ثم أننا من كمال إبراهيم، وصحة توحيده، وسلامة طريقه أوحينا إليك يا محمد يا خاتم الرسل، وسيد الأنبياء أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً فى الأصول والعقائد، دون الفروع والشرائع.

وبهذا ٠٠ يتضح جيداً أن من صفات إبراهيم عليه السلام : صفات المسلم الكامل.

كما يتضح كذلك جيداً ٠٠ أن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم : إنما هى تجديد لدين إبراهيم عليه السلام، وإحياء له فى التوحيد، والقدوة.

كما يتضح ثالثاً ٠٠ جواز اتباع الأفضل للمفضول فيما يؤدى إلى الصواب، حيث إن النبى صلى الله عليه وسلم ٠٠ أفضل الأنبياء، وقد أُمِرَ باتباعهم.

* * *

هذا ..

ولما أمر الله محمد صلى الله عليه وسلم باتباع إبراهيم، وقد اتبعه ..

ولما كان محمداً صلى الله عليه وسلم .. قد اختار يوم الجمعة، من جملة هذا الاتباع لما كان عليه إبراهيم.

فإن اليهود .. لم يتبعوا إبراهيم فى ذلك : حيث اختاروا السبت بأنفسهم ولأنفسهم، واختلفوا فيه، ففرض عليهم .. اختباراً لمدى التزامهم بما اختاروه هم..

يقول تعالى :

{ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }
[الآية ١٢٤]

يعنى : إنما جعل السبت وفرض على الذين اختلفوا فيه على نبيهم، حيث اختار لهم الجمعة؛ ليتفرغوا فيه للعبادة، وجادلوا، وقالوا لا نريده، واختاروا السبت .. فشدد الله عليهم فيه.

وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة ويبين لهم الصواب فيما كانوا فيه يختلفون ويعاندون .. ثم يجازيهم عليه.

* * *

ثم يخاطب ربنا، وارث ملة إبراهيم عليه السلام، محمداً صلى الله عليه وسلم، الداعية إلى الإسلام.

وهو خطاب لكل فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .. يتعلم منه كيفية الدعوة للإسلام، ملة إبراهيم عليه السلام.

حيث يقول :

{ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }
[الآية ١٢٥]

أى : ادع الناس جميعاً إلى سبيل ربك المستقيم، وهو الإسلام .

بالحكمة يعنى بالقرآن، والدلائل العقلية النفيسة، وهكذا يكون العلماء.

والموعظة الحسنة وهى فى القرآن أيضاً، وتكون بالقول الرقيق المهذب اللين .. وهذا يكون لأصحاب النظر السليم، وهم غالب الناس، الذين لم يبلغوا حد الكمال، ولم ينزلوا إلى حضيض النقصان.

وجادلهم بالتى هى أحسن وهى من القرآن كذلك .. مثل الدعاء إلى الله بآياته المنظورة، والمسطورة .. وهذا يكون لأصحاب العناد والمخاصمة؛ حتى ينقادوا إلى الحق ويؤمنوا به.

إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله فما عليك إلا دعوته فقط، ولا تحزن لعدم إيمانه، فليس عليك هداهم.

وهو أعلم كذلك بالمهتدين الذين اختاروا الهداية، فيوفقهم إليها.

* * *

ولما كانت الدعوة إلى الله تعالى، تقابل – فى معظم الأحيان والحالات – بالإيذاء لصاحبها.
فقد قال سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾
[الآية ١٢٦]

يعنى : وإن قوبلتم فى دعوتكم للناس بالإيذاء، وأبت نفوسكم إلا عقاب من آذاها وعاقبتم بالفعل؛ فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به فقط، لا تزيدوا عليه، حتى لا ينقلب عدواناً.
ولئن صبرتم على هذا الإيذاء، فى سبيل الدعوة، ولم تعاقبوا من آذاكم لهو خير لكم، كما أنه خير للصابرين جميعاً.

* * *

ثم يحث ربنا هنا .. على مقام الإحسان فيقول :

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾
[الآية ١٢٧]

أى : واصبر على تحمل الإيذاء .. فهذا هو الأفضل وما صبرك حين تنجح فيه إلا بالله أى : من الله وتوفيقه، وإعانتك عليه.
ولا تحزن عليهم أى : على من آذوك .. حين لم يؤمنوا ويهتدوا.
ولا تك فى ضيق مما يمكرون بك، ويخططون لإيذائك، فأنا ناصرك، ومؤيدك، ومجازيك على تحملك وصبرك.

* * *

حيث :

{ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ }
[الآية ١٢٨]

حقاً : إن الله مع هؤلاء الذين اتقوا ربهم بفعل الطاعات واجتناب المحرمات والذين هم محسنون فى كل شىء.

وقد قالوا : من اتقى الله فى أقواله، وأحسن فى أعماله، كان الله معه فى كل أحواله.

فما أفضلها من معية ٠٠ وهى معية الله.

رزقنا الله معيته، ورضوانه.

إنه ولى ذلك، والقادر عليه.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الكهف

هى سورة مكية تدور آياتها وموضوعاتها حول "الإيمان والمادية".
وكل ما فيها : يكشف جوانب من إعجاز القرآن، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم.
وهى تبدأ بقوله سبحانه :

بسم الله الرحمن الرحيم

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا }
[الآية ١]

والمعنى : الحمد هو الوصف بالجميل الثابت لله تعالى.
والمراد من هذه العبارة : الإعلام بمضمونها للإيمان، أو الثناء على الله به، أو هما معاً.
هو الله الذى أنزل على عبده محمد الكتاب القرآن ولم يجعل له أى : فيه عوجاً أى : اختلافاً وتناقضاً.

* * *

وكان هذا الكتاب ..

{ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا }
[الآيتان ٢ ، ٣]

والمعنى : قيماً أى : مستقيماً كل ما فيه، عالياً على سائر الكتب.
وقد أنزل الله القرآن على محمد لينذر الكافرين، ويخوفهم به بأساً عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة من لدنه أى : من عنده.
ويبشر به أيضاً المؤمنين الذين يعملون الصالحات أى : جمعوا بين الإيمان، والعمل الصالح الذى يزكى النفس، ويسعد العباد ويصلح البلاد.
يبشرهم أن لهم عند الله أجراً حسناً وهو الجنة.
كما يبشرهم .. بالإقامة الدائمة فى الجنة .. ماكثين فيه أبداً.

* * *

ثم بين الله من ينذرهم محمد صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن ٠٠
فقال :

{ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا }
[الآية ٤]

أى : وينذر بهذا القرآن، ويخوِّف بما فيه من آيات العذاب ٠٠ الكافرين الذين قالوا اتخذ الله ولداً كمشركى العرب ٠٠ الذين قالوا : إن الملائكة بنات الله، وغيرهم كاليهود والنصارى.

* * *

وذلك ٠٠ لأن هؤلاء :

{ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا }
[الآية ٥]

يعنى : ليس لهم بقولهم اتخذ الله ولداً أى لون من علم ولا لآبائهم كذلك أى علم.
كبرت عظمت وساءت كلمة أى هذه المقولة تخرج من أفواههم لا من عقولهم؛ إذ ليس عندهم بها من علم يدفعهم إلى قولها.
وحقيقة ٠٠ إن أى : ما يقولون إلا كذباً يكذبونه.

* * *

هذه هى حقيقة الكافرين، وحقيقة أقوالهم ٠٠
فلا تهتم يا محمد، ولا تغتم من أجل عدم إيمانهم.

{ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا }
[الآية ٦]

أى : فلعلك يا محمد باخع نفسك مهلكها على آثارهم بعد توليهم وبعدهم عنك إن لم يؤمنوا بهذا الحديث وهو القرآن أسفاً أى : مهلك نفسك غيظاً وحزناً لعدم إيمانهم.

* * *

يا محمد ٠٠
هؤلاء ٠٠ غرتهم الحياة المادية، وفتنتهم عن الإيمان ٠٠
فلا تحزن لعدم إيمانهم، ولا تنشغل عن دعوتك.

{ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا }
[الآيتان ٧ ، ٨]

حيث إنا جعلنا ما على الأرض من الحيوان والنبات والبحار، وخلافه زينة لها يتمتعون بها.
وذلك لنبلوهم أى : لنختبر الناس، ونكشف عن إيمانهم بوحدانيته الله وقدرته، وليظهر أيهم أكثر إيماناً، وأحسن عملاً فنجازيه، وننعم عليه برضواننا.
والعاقل من عرف زوال هذه الأرض، وفناء زينتها، ولم يكفر، ولم يطغ بسبب ذلك ٠٠ حيث إنا لجاعلون ومصيرون ما عليها من زينة وخلافه صعيداً تراباً جرزاً لا ينبت شيئاً.
هذا ٠٠ ولأنهم ليسوا عقلاء : فلم يفهموا ذلك، وفتنوا بزينة الحياة الدنيا، وما دياتها، فكفروا، وصاروا أسوأ عملاً.

* * *

ولما سأل أهل الكفر النبى صلى الله عليه وسلم ٠٠ عن أصحاب الكهف قال تعالى :

{ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا }
[الآية ٩]

والمعنى : لا تظن أن أصحاب الكهف الذين أقاموا فيه، مدة طويلة والرقيم اللوح الذى كتبت فيه أسماؤهم كانوا من آياتنا الدالة على قدرتنا ٠٠ شيئاً عجباً أى : غريباً عجيباً.
حيث إن هناك من الآيات الدالة على قدرتنا ٠٠ ما هو أعجب منه : كخلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب والنجوم، وغير ذلك.

* * *

اذكر يا محمد لقومك ملخص قصة أهل الكهف ٠٠

{ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا }
[الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢]

أى : اذكر إذ أوى وقت أن لجأ الفتية الشباب، خائفين من الظلم والطغاة إلى الكهف فراراً بدينهم من بطش هؤلاء الكافرين.

فقالوا فى مناجاة صادقة لله ربنا آتنا أنت وحدك وليس غيرك من لدنك من عندك رحمة تصلح بها شأننا، وتسترنا بها عن قومنا، وتحفظنا بها من الهلاك وهيئ لنا من أمرنا وموقفنا هذا رشداً حتى نكون بسببه من الراشدين الناجين.

فاستجبنا لدعائهم، وفعلنا ما فيه صلاح أمرهم.

فضربنا على آذانهم أى : أنمناهم فى الكهف لا يسمعون أحداً ولا يزعجهم أحد سنين عدداً ٠٠ حتى مر الزمان، وتغيرت الأحوال، وباد الطغاة، وتحسنت الظروف.

ثم بعثناهم أيقظناهم من نومهم الطويل لنعلم أى : ليظهر ويشاهد، وليحصل للناس معرفة أى الحزبين المختلفين، ساعة بعثهم وتيقظهم أحصى إحصاءً دقيقاً لما لبثوا أمداً أى : مدة لبثهم، ومكثهم نياماً فى هذا الكهف.

* * *

دعك يا محمد من عناد قومك، واختلاف المختلفين حول مدة بقاء أهل الكهف فى كهفهم.

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى }
[الآية ١٣]

أى : نحن نقص نتلو عليك فى قرآن يتلى ويتعبد به إلى يوم القيامة نبأهم قصتهم بالحق بالصدق، الذى لا خفاء فيه.

إنهم فتية كانوا من أشراف الناس ، قابلين لمعرفة الحق.

آمنوا بربهم وشهدوا له بالوحدانية، واعترفوا له بالقدرة.

وزدناهم هدى أى : يقيناً، وثباتاً على دينهم.

وفى هذا دليل على أن الشباب هم ٠٠ أكثر الناس قبولاً للهدى، واستعداداً للعمل به.

* * *

ولما كان هذا فى أنفسهم ٠٠ فقط.

فقد أظهروه ٠٠ وقالوا كلمة الحق، وأعلنوا إسلامهم ٠٠
حيث يقول تعالى :

{ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا }
[الآيتان ١٤ ، ١٥]

يعنى : وربطنا على قلوبهم قويناها على قول كلمة الحق إذ قاموا بين يدى ملكهم، حينما أمرهم بالسجود للأصنام.
فقالوا له ثلاثة أشياء :

الأول : لن نسجد لها، وإنما نسجد لله ربنا الذى هو رب السموات والأرض ومن فيهما، وما فيهما، فهو المستحق لذلك وحده.
الثانى : لن ندعو من دونه أى : غيره إلهاً نعبده.
الثالث : لو قلنا ذلك لقد قلنا إذاً أى : حينئذ .. قولاً شططاً أى : بعيداً عن الصواب، موغلاً فى الكفر.

ولما انصرفوا عن مجلس الملك ٠٠ قالوا على قومهم ثلاثة أشياء أيضاً :

الأول : هؤلاء قومنا أخطئوا خطأ كبيراً واتخذوا من دونه أى : غيره آلهة يعبدونها.
الثانى : لولا أى : هلا يأتون عليهم على عبادتهم لأصنامهم بسلطان بين بحجة واضحة ٠٠ إنهم لن يأتوا بها أبداً .
الثالث : لقد افتروا على الله الكذب فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً لا أحد أظلم منه ٠٠ ولذلك : فهم أظلم الناس.

ولذلك : ينبغى البعد عنهم ٠٠

* * *

وقد ابتعدوا عنهم بالفعل ٠٠
ولما ابتعدوا قال تعالى حكاية عنهم :

{ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَته وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا }
[الآية ١٦]

أى : قال بعضهم لبعض وإذ اعتزلتموهم وما دمتم قد ابتعدتم عنهم، و تركتم ما يعبدون من دون الله ٠٠ فإنهم لن يتركوكم، وما أنتم عليه، شأن الطغاة مع أهل الحق دائماً.

وما دمتم قد فارقتموهم بأرواحكم فى عبادتهم، ففارقوهم بأجسادكم فى الإقامة معهم.

لذلك فأووا أى : التجئوا إلى الكهف البعيد عنهم واختبئوا فيه؛ رجاء أن ينشر لكم ربكم من رحمته فى الدنيا والآخرة ويهيئ لكم من أمركم فى إقامتكم بالكهف مرفقاً تتعايشون عليه فى حياتكم.

* * *

يقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

وهكذا ٠٠

التجئوا إلى الكهف، واختبئوا فيه بعيداً عن قومهم ٠٠

وناموا ٠٠ وأجاب الله دعاءهم ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً.

حيث قال :

{ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا }
[الآية ١٧]

يعنى : وترى فى الشمس آية من آيات الله ٠٠ أيها الإنسان ٠٠!!

حيث إنها كانت إذا طلعت فى الصباح تزاور تميل عن كهفهم ذات ناحية اليمين.

و كانت كذلك إذا غربت آخر النهار تقرضهم تتركهم، وتبتعد عنهم ذات ناحية الشمال.

و كانوا هم فى فجوة منه أى : فى متسع من الكهف، مريح لهم.

ذلك الذى حدث ٠٠ آية من آيات الله حيث أرشدهم ربهم إلى هذا الغار الصحى، الذى جعلهم فيه أحياء، محفوظة أجسادهم من البلى، طيلة هذه المدة.

وسبحان الله ٠٠!!

هو الذى أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين أقوامهم ٠٠

حقاً ٠٠ إنه من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً.

* * *

هذا ٠٠

{ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا }

يعنى : وتحسبهم لو رأيتهم أيقاظاً أى : مستيقيظين، و لكن هم رقود نيام فى الحقيقة.
ونقلبهم ذات اليمين، وذات الشمال حماية لأجسادهم.
وكلبهم معهم فى الغار باسط ذراعيه بالوصيد وهو الباب، وكأنه يحرسهم بحكم طبيعته ..
لو اطلعت عليهم أيها الإنسان .. وهم على هذا الحال .. لوليت منهم فراراً بعيدًا عنهم ولملئت منهم رعباً أى : خوفاً .. وكأن الله حماهم بالرعب من أن يدخل عليهم أحد لو اقترب منهم.
وناموا – على هذا الحال – مدة من الزمان طويلة .. لم يبل لهم فيها ثوب، ولم تتغير لهم فيها صفة.
وكانت هذه – من الله تعالى – آية.

* * *

وكما أنامهم الله عز وجل .. هذه المدة، وعلى هذا الحال.
أيقظهم من نومهم، وبعثهم إلى الحياة مرة أخرى.
يقول تعالى :

{ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا }
[الآية ١٩]

أى : وكذلك أى : وكما أنمناهم .. أيقظناهم؛ إظهاراً لقدرتنا على البعث والإعادة للخلق مرة أخرى.
وكذلك ليتساءلوا فيما بينهم عن حالهم ومدة نومهم فى هذا الكهف.
قال قائل منهم للباقين كم لبثتم فى هذا الغار ..؟
قالوا له لبثنا يوماً أو بعض يوم أى : مدة قليلة.
وكأنه لم يقتنع .. وكأن إجابات غير ذلك طرحت.
وأنهوا الإجابة على هذا السؤال بتفويض العلم فيما لا علم لهم به إلى الله، حيث قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فاتركوا العلم لله، ولا تختلفوا حول ما لا يفيد.
خاصة .. وأننا جياع، بعد هذا النوم، ونحتاج إلى الغذاء.
إذن ..فابعثوا أحدكم بورقكم بنقودكم هذه وكانت من الفضة إلى المدينة .. وليفعل الآتى :

أولاً : فلينظر فى محلاتها أيها أزكى طعاماً أى : أحل، وأطيب، وأرخص.
ثانياً : فليأتكم برزق منه أى : بطعام، رزقاً من الله تعالى.
ثالثاً : وليتلطف أى : ليكن هادئاً، وفى سرية وكتمان فى تعاملاته، وذهابه وإيابه.
رابعاً : ولا يشعرن ولا يعلمن بكم حالاً أو مكاناً أحداً حتى لو انكشف أمره، وأمسكوا به، وحاولوا معرفة سره.

ويلاحظ : أنها توصيات ٠٠ ذكية، حريصة، دقيقة، مهذبة، وفيها الكثير من أصول وقواعد التربية.

* * *

ثم عللوا هذا الحرص الشديد، والتوصيات الدقيقة ٠٠ بقولهم :

{ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا }
[الآية ٢٠]

يعنى : إن هؤلاء القوم، الذين يعبدون الأصنام، والذين فررنا منهم إن يظهروا عليكم يطلعون على حالكم، ويعرفون مكانكم ٠٠ يأخذوكم.
ثم يرجموكم أى : يتهموكم بالتطرف والإرهاب، ويقتلونكم رجماً بالحجارة، انتقاماً منكم.
أو يعيدوكم مرة أخرى فى ملتهم بالترغيب، أو الترهيب.
ولن تفلحوا فى الفرار منهم مرة أخرى إذاً أى : إذا أمسكوا بكم أبداً؛ لأنهم سيعذبونكم حتى الموت.
كذلك ولن تفلحوا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة إذا عدتم فى دينهم مرة أخرى أبداً ولو كان بالإكراه على ترك الإسلام.

وفهم من سيذهب لإحضار الطعام هذه الوصية جيداً.
وصمم على التلطف مع القوم، والاحتفاظ بالسر، مهما كان ٠٠
ولكن ٠٠
كان الزمان قد تغير، وأهل الزمان قد تغيروا ٠٠ وهم لا يشعرون ٠٠ أليسوا نياماً، مئات السنين٠٠؟
على كل حال : اطلع القوم عليهم، وعرفوا سرهم، وكانوا مسلمين، وكانوا يختلفون فى أمر البعث.

* * *

وجاء أهل الكهف فى وقتهم ٠٠
وكان بعثهم آية ٠٠
يقول تعالى :

{ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا }
[الآية ٢١]

أى : وكذلك كما هديناهم للإيمان، وأنمناهم فى الكهف، وبعثناهم أعثرنا أطلعنا عليهم قومهم والمؤمنين.

وذلك ليعلموا جميعاً أن وعد الله بالبعث حق.

و ليعلموا كذلك أن الساعة القيامة لا ريب فيها وسيجازى كل إنسان فيها على ما قدم من خير أو شر.

وكان بعث أهل الكهف هذا، والعثور عليهم إذّ أى وقت أن كان قومهم يتنازعون يختلفون، فيما بينهم فى أمرهم وهو البعث ·· هل سيكون، أو لا، وإذا كان فللأرواح فقط، أو للأرواح والأجساد معاً ··؟

وكان العثور على أهل الكهف : ليرتفع الخلاف، وليعلم الجميع ·· أن البعث للروح والأجساد معاً.

هذا ··

ومات أهل الكهف.

فقالوا أى : قومهم ابنوا عليهم بنياناً أى : سدوا عليهم كهفهم، واتركوهم على حالهم ربهم أعلم بهم وبحقيقة حالهم.

وهنا ·· قال الذين غلبوا على أمرهم أى : أمر القوم، وهم أصحاب الكلمة والنفوذ فيهم لنتخذن عليهم مسجداً يبنى على باب الكهف، يصلى فيه المسلمون.

وهكذا ·· انتهى أمر أهل الكهف ·· وهو دليل واضح، وحجة دامغة للماديين الملحدين، الذين ينكرون البعث والحشر والحساب.

* * *

وسيختلف الناس حولهم خلافات لا فائدة منها، ولا طائل تحتها ··

{ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا }
[الآية ٢٢]

يعنى : سيقولون أى : بعض الناس عن عدد أهل الكهف ·· إنهم ثلاثة فقط رابعهم كلبهم.

ويقولون أى : البعض الآخر ·· إنهم خمسة فقط سادسهم كلبهم.

يقول ذلك هؤلاء وهؤلاء رجماً بالغيب أى : بدون علم حقيقى، يفيد شيئاً.

ويقولون أى البعض الثالث : إنهم سبعة فقط وثامنهم كلبهم.

أقوال كثيرة ·· لا علم بها عند قائليهم.

ولذلك قل أنت أيها العاقل، الذى تفوض العلم إلى الله فى مثل هذه الأمور الغيبية ربى أعلم بعدتهم وعددهم الحقيقى ·· حيث إنه ما يعلمهم ويعلم عددهم إلا قليل ممن رآهم ساعة استيقاظهم من نومهم فى كهفهم، وهذا القليل ذهب، وذهب معه العلم بعددهم.

ولذلك أيضاً : فلا تمار تجادل فيهم حالاً وعددًا إلا مراءً ظاهراً أى : بما جاء فى القرآن عنهم فقط.

ثالثاً : ولا تستفت فيهم أى : أهل الكهف منهم أحداً أى : لا تسأل عنهم أحداً من أهل الكتاب، وفوض العلم فيهم إلى الله تعالى.

* * *

ولأن هذه القصة : قد سأل المشركون النبى صلى الله عليه وسلم عنها، بإيعاز من اليهود ·· فقال لهم : غداً أجيبكم، دون أن يعلق ذلك على مشيئة الله، بقوله "إن شاء الله"، وتأخر الوحى عليه صلى الله عليه وسلم فى ذلك، ثم نزل ··

لذلك : يقول الله عز وجل لنبيه ·· تأديباً، وتعليماً لأمته ··

{ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا }

[الآيتان ٢٣ ، ٢٤]

ثلاثة آداب :

الأول : ولا تقولن لشىء تريد فعله إنى فاعل ذلك غداً على وجه القطع واليقين إلا أن تقول مع ذلك، مؤمناً به، إذا يشاء الله تحقيق ذلك، وإعانتى عليه.

الثانى : واذكر ربك أى : قول "إن شاء الله" إذا نسيت ذلك، عند قولك إنى فاعل ذلك غداً متى تذكرت، ولا تتركها أى : تعليق تحقيق الأمر على مشيئة الله أبداً.

الثالث : وقل إذا نسيت شيئاً عسى أن يهدين ربى سبحانه لأقرب من هذا التصرف والنسيان رشداً خيراً وهدى.

* * *

وإذا كانوا قد اختلفوا حول مدة نومهم فى الكهف، وبقائهم فيه : فهذه هى المدة الحقيقة ··

قال تعالى :

{ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا }

[الآية ٢٥]

أى : ناموا فى كهفهم ثلاثمائة من السنوات الشمسية، وهى تساوى ثلاثمائة وتسع سنين قمرية.

هذا هو الحق الذى لا مراء فيه ··

* * *

ولذلك ··

{ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا }
[الآية ٢٦]

يعنى : قل لكل المختلفين الله وحده أعلم بما لبثوا فى كهفهم، حيث إن له سبحانه غيب السموات والأرض أى : علم ما غاب فيهما.

سبحان الله أبصر به وأسمع أى : ما أبصره، وأسمعه، لكل ما غاب وما حضر ··!!

ما لهم أى لأهل السموات والأرض كلهم من دونه أى : غيره من ولى يتولى أمورهم، ويصرف أحوالهم.

كذلك ولا يشرك سبحانه فى حكمه وقضائه وقدره أحداً من خلقه.

* * *

وهكذا ·· انتهت قصة أهل الكهف، وذكر اختلاف الناس حول موضوعهم، وقصتهم ··
وقد ظهر الحق فيها، وقيلت كلمة الفصل ممن له سبحانه غيب السموات والأرض.

* * *

ولأن المشركين الذين سألوا عنها ·· قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : إن أردت أن نؤمن بك ·· فاطرد من عندك هؤلاء الفقراء.

فقد قال الله لحبيبه عليه الصلاة والسلام : لا تلتفت إليهم، ولا تستجب لطلباتهم المتعنتة هذه ··

{ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا }
[الآية ٢٧]

أى : واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك تلاوة تدبر، وعمل، وتبليغ .

لا مبدل لكلماته أحد أبداً، فهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [فصلت : ٤٢].

و فى ذات الوقت لن تجد لنفسك ولا لغيرك من دونه أى : فى غيره ملتحداً أى : ملجأ تركن إليه، إن تركته وأهملته.

وهذا الأمر الأول من الله تعالى – بعد القصة – للنبى صلى الله عليه وسلم.

* * *

الأمر الثانى :

{ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا }

[الآية ٢٨]

يعنى : واصبر نفسك احبسها، وثبتها مع هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى أى : مداومين على الدعاء والعبادة فى كل وقت يريدون وجهه ورضاه، سواء كانوا أغنياء أو فقراء، أصحاء أو ضعفاء.

ولا تعد عيناك عنهم أى : ولا تهملهم تريد زينة الحياة الدنيا وهى الاهتمام بأصحاب الشرف والثروة والزينة.

الأمر الثالث ٠٠ فهو نهى للنبى صلى الله عليه وسلم.

ولا تطع هؤلاء فى دعوتهم لك ترك الفقراء وطردهم من مجلسك، ولا كل من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وشغل عن الدين بالدنيا واتبع هواه وصار عبداً له وكان أمره فرطاً أى : كانت أقواله، وأفعاله ٠٠ تفريطاً، وضياعاً فى ضياع.

* * *

الأمر الرابع ٠٠

{ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا }

[الآية ٢٩]

يعنى : وقل لمن أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً، ولأصحابه كذلك : هذا القرآن ٠٠ هو الحق من ربكم وهو واضح، لا خفاء فيه، ولا غموض.

فمن شاء منكم أن يؤمن بحريته، وكامل اختياره فليؤمن.

ومن شاء منكم أن يكفر بحريته، وكامل اختياره فليكفر.

وبالمناسبة ٠٠ هذا جزاء الكافرين :

إنا أعتدنا للظالمين الكافرين بالله ورسوله ناراً أحاط بهم سرادقها أى : سورها، من كل جانب.

وإن يستغيثوا من العذاب والعطش فيها يغاثوا بماء كالمهل الزيت الحار، الذى اشتد سواده من اللهب يشوى الوجوه عند اقترابه منها.

حقاً ٠٠ بئس الشراب شرابهم وساءت النار لهم مرتفقاً أى : داراً يقيمون فيها.

* * *

ولما ذكر تعالى جزاء الكافرين ذكر عقيبه جزاء المؤمنين فقال :

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا }
[الآية ٣٠]

أى : إن الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه وعملوا الصالحات التى أمر الشرع بها، والتى فيها صلاح البلاد، وإسعاد العباد ٠٠ نثيبهم ونجازيهم خير الجزاء.

حيث ٠٠ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً وهؤلاء آمنوا، وأحسنوا العمل، فلا نضيع جزاءهم.

* * *

ولكن ٠٠ ما جزاؤهم هذا ٠٠؟

اقرأ معى – أعزك الله، وغفر لى ولك – ما يقوله رب العزة :

{ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا }
[الآية ٣١]

يعنى : أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم عند ربهم خمسة أشياء:

الأول : جنات عدن أى : دور إقامة لهم، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

الثانى : تجرى من تحتهم أى من تحت غرفهم فيها الأنهار.

الثالث : يحلون فيها بالحلى، وهى من أساور من ذهب.

الرابع : ويلبسون فيها ثياباً خضراً وهو أفضل الألوان، وأكثرها راحة للعين، وهذه الثياب من سندس وهو الحرير الرقيق وإستبرق كذلك، وهو الحرير السميك.

الخامس : متكئين فيها على الأرائك منعمين، مستريحين، ممتعين.

حقاً ٠٠ إنه نعم الثواب ثوابهم وحسنت الجنة والأنهار، والثياب، وكل ألوان النعيم، لهم مرتفقاً أى : دارًا يقيمون فيها.

* * *

وبعد أن بين الله تعالى جزاء الكافرين، وجزاء المؤمنين : ليكفر من يكفر عن بينة، ويؤمن من يؤمن عن بينة.

يقول للنبى صلى الله عليه وسلم : واضرب لهؤلاء الماديين الأمثلة التى تبين لهم ضلالهم، وتعينهم – لو يفهمونها ويعقلونها – على الهداية.

حيث يقول تعالى :

{ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا }

[الآية ٣٢]

يعنى : واضرب لهم مثلاً يفيدهم ٠٠ لو كانوا يعقلون ٠٠

وهذا المثل ٠٠ هو رجلين أحدهما مادى كافر، والثانى مؤمن صالح.

جعلنا لأحدهما وهو الكافر جنتين بستانين من أعناب كثيرة، منوعة الأصناف وحففناهما بنخل وجعلنا النخيل على حواف البستانين، محيطاً بهما وجعلنا كذلك بينهما أى : بين البستانين زرعاً من جميع الأنواع، والألوان.

حقاً ٠٠ تنسيق جميل، ومنظر بديع.

* * *

وكذلك إنتاج غزير حيث يقول تعالى :

{ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا }

[الآية ٣٣]

نعم ٠٠ كلتا الجنتين آتت أكلها أعطت ثمارها كاملاً ولم تظلم أى : تنقص منه شيئاً أى : لم تنزل بها الإصابات ولم تعترها الآفات.

و كان ريها مريحاً، وماؤها غزيراً، حيث فجرنا خلالهما نهراً يروى هذه الزروع والأشجار.

* * *

أيضاً :

{ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا }

[الآيات ٣٤ – ٣٦]

أى : وكان له غير هذه البساتين والزروع ثمر من مال يستثمره فى وحدة أخرى غير الزراعة، كالتجارة، وغيرها.

أى : أوتى من كل زينة الحياة الدنيا، الشىء الكثير.

وذات يوم ٠٠ التقى بصاحبه، الرجل الآخر، المؤمن الصالح.

وأخذه ودخل به بساتينه، يطلعه على ما فيها ٠٠ ويحاوره.

فقال لصاحبه المؤمن وهو يحاوره خمسة أشياء ٠٠ كلها غرور، بسبب المادة، وزينة الحياة الدنيا.

الأول : أنا أكثر منك مالاً أى : فماذا أفادك الإيمان، غير الفقر.

الثانى : أنا أعز منك نفراً حولى، وهم كثر يخدموننى، أى : فماذا أفادك الإيمان، غير العزلة، والوحدة ؟

الثالث : و لما دخل جنته مع صاحبه وهو ظالم لنفسه بكفره بالله قال لصاحبه ما أظن أن تبيد هذه أبداً حيث إنها من صنعى، وليست من صنع من تدعى أنه الإله الواحد.

الرابع : وما أظن الساعة قائمة كما تدعى، ولذلك : فليس هناك حساب ولا عقاب، فلأتمتعن بالدنيا، كيفما أريد، ومتى أريد.

الخامس : وعلى افتراض أن الساعة ستكون، وأرد إلى ربى ٠٠ ولئن رددت إلى ربى حينئذ لأجدن عنده خيراً منها منقلباً مرجعاً؛ لأن المنعم فى الدنيا من أمثالى منعم فى الآخرة، على عكس أمثالك.

حقاً ٠٠ إن ذلك : منتهى الغرور، ومنتهى المادية، ومنتهى الكفر والاستهزاء.

* * *

ولم يتأثر صاحبه المؤمن، ولم يفقد ثقته بالله، ولم يبهر بما عليه هذا الكافر، بل :

{ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا }

[الآيات ٣٧ – ٤١]

يعنى : قال له صاحبه المؤمن وهو يحاوره خمسة أشياء أيضاً ٠٠ فى الجواب على ما قال :

الأول : أكفرت بالله الذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً؟

الثانى : لكن أنا مؤمن أنه سبحانه هو الله ربى وحده ولا أشرك به أحداً.

الثالث : ولولا إذّ دخلت جنتك رددت الفضل لله، وقلت عند إعجابك بها ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقلت لا حول ولا قوة إلا بالله وأنت مؤمن به ٠٠ لم تر فيها مكروهاً أبداً.

الرابع : إن كنت ترن أنا أقل منك مالاً وولداً فلا يغرنك هذا، وتحتقر غيرك لفقره فعسى ربى أن يغير الحال، وتغيير الأحوال بيده، ويؤتين بقدرته ومشيئته خيراً من جنتك هذه.

الخامس : و أن يغير الحال أكثر وأكثر ٠٠ فيدمر جنتك ..

حيث يرسل عليها حسباناً أى صواعق من السماء تحرقها وتحرق ما فيها فتصبح بعد ذلك صعيداً أرضاً ملساء زلقاً لا يثبت عليها شىء.

أو حيث يصبح ماؤها غوراً أى : غائراً فى الأرض، لا يمكن الوصول إليه، فلن تستطيع له طلبا أى : حيلة أو وسيلة ترفعه بها.

* * *

وقد حقق الله توقعات هذا المؤمن ٠٠

{ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا }

[الآيتان ٤٢ ، ٤٣]

أى : هلكت ثماره وأمواله كلها وأحيط بثمره أى : أحاط بها الهلاك من كل جانب.

وصُدِمَ الكافر ٠٠!!

فأصبح أى : صار يقلب كفيه حسرة وندماً عليها، وعلى ضياع ما أنفق فيها من جهد وعرق ومال ٠٠ وهى أمامه خاوية على عروشها خربة محترقة، متهدمة.

ويقول متحسراً يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً.

ولم تكن له فى ذات الوقت فئة من أهل أو ولد أو عشيرة ينصرونه فى محنته من دون الله الذى لا ناصر سواه، ولا كاشف الضر غيره.

و كذلك ما كان فى نفسه منتصراً أى : ممتنعاً عن انتقام الله منه، وإهلاك جنته.

* * *

وهكذا ٠٠ عرفنا من هذا المثل : أن النصرة للمؤمنين على الكافرين.
وذلك : فى الدنيا.
وهى تكون أيضاً للمؤمنين على الكافرين فى الآخرة.
يقول تعالى :

{ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا }
[الآية ٤٤]

يعنى : هنالك فى الآخرة ٠٠ تكون الوَلاية بمعنى النصرة للمؤمنين على الكافرين، أو الولاية بمعنى الملك، كقوله تعالى لمن الملك اليوم [غافر : ١٦]
لله الحق سبحانه.
ثوابه هو عز وجل خير ثواباً من ثواب غيره، لو كان ثواب غيره يبقى.
وعاقبته هو ومكافأته خير عقبا للمؤمنين.
فهل فهمتم هذا المثل أيها الكفار الماديون ٠٠؟
وهل تستفيدون منه .. فتؤمنون ٠٠؟

* * *

على كل حال ٠٠
هذا مثل آخر.

{ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا }
[الآية ٤٥]

يعنى : واضرب لهم مثلاً آخر، يفيدهم ٠٠ لو كانوا يعقلون ٠٠!!
اضرب لهم مثل الحياة الدنيا فى بريقها أمامهم، وخداعهم بها، وغرورهم بمتاعها، وكفرهم بسببها.
فهى كماء أنزلناه من السماء إلى الأرض فاختلط به وشرب منه، وازدهر به نبات الأرض ثم ٠٠ استوى، ثم ٠٠ يبس.
فأصبح هشيماً متكسراً ضعيفاً تذروه الرياح فتفرقه ذات اليمين، وذات الشمال، ولا يبقى منه شىء.
وهكذا الدنيا ٠٠ سريعاً ما يذهب خداعها، وينطفئ بريقها.
والعاقل ٠٠ من لا يفتن بها، ولا يكفر بسببها.

* * *

هذا ٠٠ وإذا كان أعظم زينة فى الحياة الدنيا ٠٠ هى المال والبنون ٠٠
فهناك ما هو أعظم من ذلك ٠٠ ينبغى أن ينتبه له كل عاقل.
فلنقرأ قوله تعالى :

{ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا }
[الآية ٤٦]

أى : إذا كان المال والبنون هما زينة الحياة الدنيا عند بعضهم يسعدون به، ويفخرون، ويتجملون.
فإن الباقيات الصالحات وهى الإيمان بالله، ورسوله، وفعل الطاعات خير من المال والبنون عند ربك ثواباً وخير عند الناس أملاً يأملون فى نفعه ونتائجه، من نفع المال والولد.

* * *

ثم تعرض الآيات الكريمة أمام هؤلاء الماديين الكافرين ٠٠ بعض مشاهد يوم القيامة ٠٠ تفيدهم، لو كانوا يعقلون ٠٠!!
حيث يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا }
[الآية ٤٧]

يعنى : و اذكر يوم القيامة حين نسير الجبال من أماكنها، وتصير هباءً منبثاً، وتزول نهائياً.
وترى الأرض وقتذاك بارزة ظاهرة، ليس عليها شىء من جبل، أو شجر، أو أى علامة.
و قد حشرناهم جميعاً، الإنس والجن، والمؤمن والكافر فلم نغادر أى: نترك منهم أحداً دون أن نحشره فى هذا اليوم.

* * *

وبعد الحشر – أيها الأحبة فى الله ٠٠ نجانى الله وإياكم – يكون العرض.
يقول تعالى :

{ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا }
[الآية ٤٨]

أى : وعرضوا جميعاً على ربك صفاً أى : مصطفين، ظاهرين، لا يختفى منهم أحد.

ويقال للكافرين من باب التقريع لهم، والسخرية بهم لقد بعثناكم، وجئتمونا فرادى، ليس معكم مال ولا ولد، ولا نصير، ولا معين كما خلقناكم أول مرة ضعافا، لا تملكون شيئاً.

بل أكثر من هذا ٠٠ أنكم زعمتم ألن نجعل لكم موعداً تبعثون فيه؛ لأنه لا بعث بالمرة، كما كنتم تدعون.

* * *

ثم .. يوضع الكتاب .. للمؤمن فى يمينه، وللكافر فى شماله.

{ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا }
[الآية ٤٩]

نعم ٠٠ و إذا وضع الكتاب :

أولاً : فترى المجرمين الكافرين مشفقين خائفين من جزاء ما فيه من كفرهم، وأعمالهم السيئة التى عملوها.

ثانياً : ويقولون تحسراً يا ويلتنا يا فضيحتنا، وخسارتنا، وهلاكنا ما لهذا الكتاب الذى سجلت فيه أعمالنا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها علينا.

ثالثاً : ووجدوا بأنفسهم ما عملو ه حاضراً مسجلاً فى هذا الكتاب، دون نقصان له، أو زيادة عليه.

و هكذا ٠٠ كتبت أعمالهم، وهكذا يكون عقابهم؛ حيث لا يظلم ربك أحداً.

فهل فهمتم أيها الكفار الماديون ٠٠ هذه المشاهد ٠٠؟

وهل تستفيدون من عرضها عليكم ٠٠ فتؤمنون ٠٠؟

* * *

أيها الأحبة ٠٠

إذا كان هؤلاء الماديون ٠٠ يفتخرون ويتكبرون على فقراء المسلمين، بأموالهم، وأولادهم، وأعوانهم ٠٠!!

فإن إبليس – من قبلهم – قد افتخر وتكبر على آدم عليه السلام، بأصله، ونسبه، وقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين [ص : ٧٦].

فلما افتخر بذلك، وتكبر : فسق عن أمر ربه، وهلك.

وهؤلاء يفتخرون ويتكبرون : ويفسقون عن أمر ربهم، وسيهلكون.
يقول سبحانه ٠٠

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا }
[الآية ٥٠]

يعنى : و اذكر لهم إذّ قلنا للملائكة جميعهم اسجدوا سجود تحية وتكريم لآدم ٠٠
فسجدوا كلهم، لآدم؛ طاعة لأمر الله.
إلا إبليس لم يسجد؛ لأنه كان من الجن ففسق عن أمر ربه أى : خرج عن طاعته.
ويلاحظ : أن إبليس ليس من الملائكة، وإنما شمله الأمر؛ لأنه كان معهم٠٠ بدليل : أن له ذرية – بنص الآية – والملائكة لا ذرية لهم، وهو مخلوق من نار، والملائكة من نور.
ثم يقول ربنا للماديين الكافرين :
أفتتخذونه وذريته أولياء لكم من دونى تطيعونهم وتفعلون ما يأمرونكم به من الفساد والمعاصى وهم لكم فى ذات الوقت عدو دائم.
حقاً ٠٠ بئس للظالمين الذين اتخذوا إبليس عن الله بدلاً.
فهل فهمتم أيها الكفار ٠٠ الماديون ٠٠ موقف إبليس، وضياع حاله ٠٠؟
وهل تعتبرون بما حدث منه، وله ٠٠ فتؤمنون ٠٠؟
================================

* * *

ثم يقول ربنا ــ تبارك وتعالي ــ هذا الذي اتخذتموه وذريته أولياء من دوني تعبدونهم وتطيعونهم...
٥١ – (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١))
يعني : كيف تتخذون إبليس وذريته أولياء من دوني وهم عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئا، (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) لعدم حاجتي إليهم فضلا عن أنهم كانوا حين خلقهما في العدم (وَلَا) على (خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ) أيضا، يستطيعون .
بل (مَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ) لكم من إبليس وذريته (عَضُدًا) أى : مساعدا ومعينا لي في أي شيء ..فكيف تتخذونهم إذا آلهة لكم وأولياء ..؟
***
هؤلاء الذين ليس لهم علاقة بخلق السموات والأرض وأنفسهم، الذين عبدتموهم من دون الله : اعلموا جيدًا أنه لا حول لهم ولا قوة في الآخرة كذلك .
يقول سبحانه:
٥٢ – (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢))
يعني: (ويوم) القيامة(يقول) الله تعالي للكفار (نادوا وشركائي) أي : إبليس وذريته، والأصنام وغيرهما (الذين زعمتم) في الدنيا...أنهم آلهة لينقذوكم مما أنتم فيه من العذاب .. !!!
(فدعوهم) فينادونهم... !!

هل استجابوا لهم .. ؟
لا ..(فلم يستجيبوا لهم) لعجزهم عن ذلك.
(و) هكذا..(جعلنا بينهم) وبين آلهتهم المزعومة (موبقا) حاجز من الهلاك والخيبة والخسران.
***
ماذا بعد .. ؟
٥٣- (وَرَأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣))
أي:(ورأي المجرمون النار) من بعيد، كما في قوله تعالي (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا)[الفرقان:١٢].
(فظنوا) ويتيقنوا (أنهم مواقعوها) أي: مخالطون لها، وواقعون فيها.
(و) صاروا يبحثون عن مهرب لهم، ولكن (لم يجدوا عنها) وعن الوقوع فيها (مصرفا) يعدلون سيرهم إليه وهروبهم فيه؛ لأن الملائكة تسوقهم إلى جهنم سوقا.
أبعد كل هذا البيان.. تتخذون إبليس وذريته، وآلهتكم المزعومة : أولياء من دوني...؟
فكروا في ذلك إن كنتم تعقلون...!
***
وبعد هذه المناقشات الطويلة مع الكفار... !!
وبعد هذه الأدلة الواضحة على فساد معتقداتهم ومواقفهم ... !!
يبين العليم الحكيم نعمة الله على خلقه، وطبيعة بعضهم التي تحول بينهم وبين الإفادة من هذه النعمة ، وهي القرآن .. فيقول:
٥٤- (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)
يعني (ولقد) أنعمنا على الإنسان؛ حيث (صرفنا) أى : بينا وكررنا (في هذا القرآن للناس) جميعا(من كل مثل) يفيدهم، ويوصلهم إلى الإيمان بالله .
(و) لكن (كان الإنسان أكثر شيء جدلا) أي: مجادلا ، ومعاندا ، حتى في الحق الواضح، بما يضر به نفسه، والجدال أوضح صفاته.
٥٥- (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا)
أي : (وما منع الناس) الذين كفروا (أن يؤمنوا) بالله(إذ جاءهم) لما جاءهم (الهدي) وهو القرآن ، أو النبي صلي الله عليه وسلم (و) منعهم أن (يستغفروا ربهم) كذلك، على ما كان منهم : إلا عنادهم وجدالهم ، واستمرارهم على هذا العناد والجدال ، حتى (أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) وهى الإهلاك الكامل في الدنيا (أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا) أي: أنواعا متعددة متلاحقة .
***
ويؤكد ربنا عز وجل على طبيعة الجدال في الإنسان ..فيقول:
٥٦- (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا)
يعني:(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ) من عندنا إلى الناس (إِلَّا مُبَشِّرِينَ) للمؤمنين(وَمُنْذِرِينَ) للكافرين...ليسعد المؤمنون، ويؤمن الكافرون طواعية واختيارا .
(و) لكن (يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا) جدالا(بِالْبَاطِلِ) الذي يتمسكون به (لِيُدْحِضُوا) ويبطلوا (بِهِ الْحَقَّ) وهو القرآن وما جاء به.

(و) هكذا (اتَّخَذُوا آيَاتِي) من دلائل الإيمان (وَمَا أُنْذِرُوابه) من العذاب (هُزُوًا) استهزاءً وسخرية.

***

حقا ..

٥٧ – (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا)

بعد أن بين الله عز وجل جدال الكافرين للرسل، وعنادهم لقبول الحق: بين هنا صفاتهم، الموجبة للخزي والخسران...على التوضيحات التالية:

الأولي: أنهم أظلم الظلمة (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا) ولم يعمل عقله فيها، ولم يستجيب لها، (وَنَسِيَ) في ذات الوقت (مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) من الآثام والمعاصي.

الثانية: أنهم على قلوبهم أغطية (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية تمنعهم من (أَنْ يَفْقَهُوهُ) أي: القرآن ، حتى ولو فهموه لا يعملون به.

الثالثة : أنهم في آذانهم صمم إنا جعلنا (فىآذَانِهِمْ وَقْرًا) أي : ثقلا وصمما فلا يسمعونه سماع تدبر، يفيدهم.

الرابعة: أنهم لا يستجيبون أبدا للهداية(وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى) وهو الإيمان مهما دعوتهم (فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا)

***

أيها المستمعون الكرام...

لا ينبغي أن يظن أحد أن هذه الحواجز التي تمنعهم من الهداية : ظلم لهم، وحاشا لله من ذلك...بل هم الذين اختاروا عدم الاهتداء بمحض رغبتهم، وكامل اختبارهم.

ومع ذلك : باب التوبة مفتوح، وعدم المعاجلة بالعقوبة قائم..

حيث يقول سبحانه:

٥٨ – (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا)

يعني (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ) لمن تاب، على ما سبق(ذُو الرَّحْمَةِ) بالعفو عنه، والهداية له .

ومن رحمته لعباده: أنه (لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ) ويعقابهم (بِمَا كَسَبُوا) من المعاصي(لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ) في الدنيا .

بل قد يعفو عن المؤمنين عفوا كاملا فيها .

بل : لا يهمل سبحانه عقاب الكافرين ، وإن أمهلهم وأخرهم، إذ (لَهُمْ مَوْعِدٌ) يعاقبون فيه ، وهو يوم القيامة ، الذي (لَنْ يَجِدُوا) ساعتها(لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ) أي : غير العذاب(مَوْئِلًا) أي :ملجأ يهربون إليه.

***

ألا يعتبر هؤلاء الكفار بمن سبقهم من أهل القرى السابقة الكافرة؟

أتعرفون ما خبرها...؟

اسمعوا....

٥٩ –(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا)

يعني (و) أهل (تلك القوى السابقة) وهم عاد وثمود، وغيرهما(أهلكناهم) في الدنيا (لما ظلموا) بكفرهم (وجعلنا) كذلك(لمهلكهم) هذا (موعدا) لا يستأخرون عن، لا يستقدمون .

وقد حدث...!!!

وعلي ذلك...فليعتبروا بهم، ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم...

فهل يفعلون...وهل يؤمنون؟

***

هذا...

ويسوق الله تعالي: قصة ثالثة، وهي (قصة موسى عليه السلام والخضر).

وكأن سبحانه يرد بها على الكفار، الذين افتخروا على فقراء المسلمين، ويقول لهم : هذا موسى نبي أوتي علما وفضلا وعلوا.....ومع ذلك : لم يتعال على أن يتواضع ..فتواضعوا .

وكأنه ثانيا : يرد بها على الكفار ، الذين تكبروا على الأنبياء ، وامتنعوا عن الإيمان، وتشبهوا بإبليس، الذي تكبر على أمر الله ، وأمتنع عن السجود لآدم عليه السلام.

وأما موسى فم يتكبر أن يتعلم ممن هو دونه.

فلا تتكبروا ..وتواضعوا.

والقصة ــ في ذات الوقت ــ تربية للمسلمين، وتعليم.

يقول رب العزة:

٦٠ – (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا)

يعني:(و) أذكر (إذ قال موسى) لقومه لما سألوه عن أعلم الناس، فقال: أنا ، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إلى الله، وأوحي إليه: إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم...وعرفه كيف يصل إليه..

وبدأ موسى عليه السلام رحلة البحث عن هذا العبد الصالح ، الذي هو أعلم منه؛ ليتعلم منه...

وقال موسى عليه السلام (لفتاة) الذي كان يسير معه(لا ابرح) لا أزال أمشي(حتى ابلغ) أصل إلى (مجمع البحرين) هذا ، وهو المكان الذي فيه هذا العبد الصالح العالم(أو أمضي) سائرا إليه (حقبا) زمنا طويلا.

***

وسارا : موسى وفتاه ؛ للوصول إلى المطلوب.

٦١ – (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا)

يعني (فلما بلغا) أي: وصلا ، موسى وفتاه (مجمع بينهما) أي : مجمع البحرين ، وهو المكان المطلوب ...ناما (ونَسِيَا حُوتَهُمَا) وسرب حوت السمك، الذي كان معهما، والذي كان تسربه وضياعه منها: علامة على هذا المكان (فاتخذ)الحوت (سبيله) طريقه (في البحر) ونزل إليه ، وجعل الله الماء حول الحوت (سربا) أي: نفقا في الماء، أي تجمد الماء من حوله، وصار كالنفق، ووقف الحوت ــ بذلك ــ في مكانه.

***

واستيقظ موسى وفتاه، من نومها، وتابعا سيرهما، وقد نسيا حوتهما.

٦٢ – (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا)

أي: (فَلَمَّا جَاوَزَا) المكان المطلوب، وهو مجمع البحرين، وهو الذي فقد فيه الحوت، ونسياه: أحسا بالتعب والجوع.

وهنا (قَالَ) موسى (لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا) لنأكل(لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) أي : تعبا.

***

وبدأ الغلام يحضر الغذاء: فاكتشف فقد الحوت.

فماذا فعل...؟

٦٣ – (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا)

أي :(قال) الفتى لموسى عليه السلام (أَرَأَيْتَ) أي: أتذكرْ (إِذْ أَوَيْنَا) لجأنا (إِلَى الصَّخْرَةِ) لنستريح عندها، فيما سبق من طريقنا.

(فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ) هناك(وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) فاعذرني، ولا تؤاخذني.

(و) هكذا (وَاتَّخَذَ) الحوت(سَبِيلَهُ) طريق (فِي الْبَحْرِ) اتخاذا (عَجَبًا) لم يشعرا به، حين تفلت منهما بقدرة الله تعالي.

***

لم ينفعل موسى، ولم يغضب من فتاة....

بل:

٦٤- (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا)

يعني: (قَالَ) موسى لفتاة (ذَلِكَ) المكان ..هو(مَا كُنَّا نَبْغِ) ونبحث عنه. (فَارْتَدَّا) ورجعا(عَلَى آثَارِهِمَا) أي: آثار أقدامهما(قَصَصًا)، ليتوصلا إلى نفس المكان.

***

وعادا ..ووصلا...

٦٥- (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)

أي: (فَوَجَدَا) في هذا المكان، عند مجمع البحرين (عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) وهو الخضر.

٦٦- (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)

يعني :(قال له موسى بأدب وتواضع (هَلْ أَتَّبِعُكَ) أي: هل تأذن لي أن أكون تبعا لك.

وذلك : منتهى المبالغة في التواضع والتعظيم..!!

(عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ) وأتعلم منك(مِمَّا عُلِّمْتَ) وعلمك الله (رُشْدًا)، ارشد به، وأزداد علما؛ حيث إن الزيادة في العلم مطلوبة...؟

٦٧، ٦٨ – (قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)

أي : (قَالَ) هذا العبد العالم لموسى(إِنَّكَ) إن اتبعتني ورأيت فعلي (لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ) على ما أفعل (صَبْرًا) .

(و) لك العذر...إذ (كَيْفَ تَصْبِرُ) وتسكت (عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ)، من الأفعال العجيبة الغريبة، التي سوف تراها (خُبْرًا) وعلما؟

***

ولحرص موسى عليه السلام ، ولأدبه ، ولتواضعه...

٦٩- (قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا)

لاحظوا : قدم موسى عليه السلام مشيئة الله ليستعين بها على تحمل الصبر على ما سيراه، من عجائب الأمور، كما فهم من هذا الكلام.

(قَالَ) موسى له (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا) على قبول ما تفعل،ولا أفهم له علة ، حتى تخبرني ، وتعلمني ، وأفهم.

(و) حتى...لو أمرتني بفعل ما لم أعرف له علة: ستجدني (لَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) إن شاء الله ، حتى أعرف ، وأتعلم.

***

وأراد الخضر أن يثبت هذا الاتفاق، وأن يؤكد عليه...

حيث :

٧٠- (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)

أي: (قَالَ) الخضر لموسى: إذًا (فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي) وأردت العلم(فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ) أفعله، ولا تفهم له علة (حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ) في الوقت المناسب (ذِكْرًا) تستريح إليه ، وتتعلم منه.

***

ووافق موسى عليه السلام على ذلك.

٧١- (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)

يعني: (فَانْطَلَقَا) مع بعضهما البعض ، يمشيان على ساحل البحر(حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ) التي مرت بهما.
فلما ركباها (خَرَقَهَا) الخضر، بخلع لوح، أو لوحين منها، جهة الماء.
وهنا ..لم يتمالك موسى نفسه ، ولم يصبر أمام هذا التخريب الذي سيغرق السفينة ومن فيها.
إذ (قَالَ) للخضر، على الفور (أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ) أي : فعلت شيئا إمرا، منكرا؟
وهو هذا الذي فعلت...!!!؟

***

وذكره الخضر بالعهد الذي كان ...

٧٢- (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

أي (قَالَ) له(أَلَمْ أَقُلْ) لك سابقا(إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ) على ما أفعل (صَبْرًا)..؟

***

٧٣- (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا)

يعني: (قال) موسى للخضر... معتذرا (لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ) أي: غفلت عنه، من التسليم لك، وترك الإنكار عليك فيما تفعل ولا افهم له سرًا.
(و) كذلك (لَا تُرْهِقْنِي) وتكلفني (مِنْ أَمْرِي) وصحبتي لك (عُسْرًا) ومشقة بل عاملني بالعفو واليسر.

***

وقبل الخضر اعتذاره..وسارا معا.

٧٤- (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا)

أي: (فَانْطَلَقَا) بعد خروجهما من السفينة، يمشيان (حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا) لم يبلغ حد التكليف ، يلعب مع الصبيان ...أمسك الخضر به (فَقَتَلَهُ) ذبحا.
وهنا ...لم يتمالك موسى نفسه ولم يصبر ..أمام هذا العدوان الظاهر على هذا الغلام ، بإزهاق روحه .
إذ (قال) للخضر، على الفور (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً)أي طاهرة (بِغَيْرِ نَفْسٍ) أي: لم تقتل أحد..؟
ثم قال(لَقَدْ جِئْتَ) فعلت(شَيْئًا نُكْرًا) منكرا، وهو هذا الذي فعلت .
بماذا أجاب الخضر...؟ فأجابه الخضر ..

{ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا }
[الآية ٧٥]

أى : قال له ألم أقل لك مرتين سابقتين إنك لن تستطيع معى على ما أفعل صبراً ..؟

* * *

واعترف موسى أن ما يحدث أمامه فوق طاقته، وأعلى من إدراكه، فوق أنه لا يصبر على عدم معرفة علته، ولا يتحمل صبراً على فعله، ولكنه سيجاهد نفسه ليتعلم.
ولذلك :

{ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا }
[الآية ٧٦]

يعنى : قال موسى عليه السلام ٠٠ للخضر ٠٠ معترفاً بعدم صبره على ما يرى، وموافقاً على تنفيذ اتفاقه السابق ستجدنى إن شاء الله صابراً.

قال : إن سألتك عن شىء بعدها أى : بعد هذه المرة فلا عليك أن تصاحبنى حيث إنك قد بلغت من لدنى من قبلى عذراً فى مفارقتك لى.

* * *

ووافق الخضر ٠٠

{ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا }
[الآية ٧٧]

يعنى : فانطلقا يمشيان حتى إذا أتيا أهل قرية وكان بعد الغروب، فى ليلة باردة ممطرة.
وأحسا بالبرد والجوع، فطلبا الضيافة، واستطعما أهلها.
ولكن أهل هذه القرية ٠٠ كانوا بخلاء فأبوا أن يضيفوهما.
وسارا ٠٠ خارجين من القرية فوجدا فيها أى : فى بيت من بيوتها جداراً يريد أن ينقض أى : مائلاً للسقوط والهدم.
وهنا ٠٠ تقدم الخضر إليه فأقامه ورممه، وأصلحه، حتى لا يسقط.
ولم يتمالك موسى نفسه، ولم يصبر ٠٠ أمام هذا الفعل الحسن، الذى لا يستحقه أهل هذه القرية أن يفعل لهم دون مقابل : إذّ قال للخضر بكل أدب، بعبارة فيها تحميس على أخذ الأجرة ٠٠ لو شئت لاتخذت عليه أجرا.

* * *

وفى هذه اللحظة ، وعلى الفور ٠٠

{ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا }
[الآية ٧٨]

أى : قال الخضر لموسى هذا وقت ٠٠ فراق بينى وبينك.

وكان الفراق ٠٠ وكانت نهاية الصحبة الصالحة.

يقول نبينا صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى موسى ٠٠ استعجل فقال ذلك – أى : إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى – ولو لبث مع صاحبه : لأبصر أعجب الأعاجيب.

وقبل أن يفترقا الخضر وموسى : قال الخضر لموسى سأنبئك بتأويل أى: تفسير ما لم تستطع عليه من الأمور التى حدثت أمامك صبراً، ولم تعرف علة ولا تفسيراً.

* * *

الأمر الأول ٠٠

{ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا }
[الآية ٧٩]

أى : أما أمر السفينة التى خرقتها فكانت لمساكين يعملون عليها، ويرتزوق منها فى البحر فأردت أن أعيبها فقط، وما أردت إغراقها؛ حيث كان وراءهم ملك كافر وظالم يأخذ كل سفينة صالحة عند غيره غصباً عنهم ولو رآها قبل أن أخرقها لأخذها منهم، وحرمهم منها رغماً عنهم.

وكان ذلك ٠٠ بأمر الله تعالى ٠٠

* * *

الأمر الثانى ٠٠

{ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * أَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا }
[الآيتان ٨٠ ، ٨١]

يعنى : وأما أمر الغلام الذى قتلته فكان أبواه مؤمنين وأما هو فقد طبع كافراً فخشينا إن عاش أن يرهقهما أى : يوقعهما، لمحبتهما له، ويكلفهما طغياناً وكفراً.

فأردنا بإذن الله وأمره أن نقتله حتى يبدلهما ربهما ولداً خيراً منه لهما وأقرب منه لهما رحماً أى : براً بهما، وعطفاً عليهما.

وكان ذلك ٠٠ بأمر الله تعالى.

* * *

الأمر الثالث ٠٠

{ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا }
[الآية ٨٢]

يعنى : وأما أمر الجدار الذى أصلحته : فقد توافرت فيه أربعة أمور :

أولا : أنه كان لغلامين يتيمين فى هذه المدينة وهى القرية، التى رفض أهلها ضيافتنا.

ثانيا : أنه كان تحته كنز لهما ولو وقع الجدار : لضاع عليهما ما فى هذا الكنز.

ثالثا : أنه كان أبوهما صالحاً والله تعالى ٠٠ يحفظ العبد الصالح فى نفسه وولده.

رابعاً : أنه أراد ربك لهذين الغلامين أن يبلغا أشدهما أى : قوتهما، ويستخرجا من تحت هذا الجدار بأنفسهما كنزهما.

وذلك رحمة من ربك بهما.

ثم قال له فى النهاية، وتعليقاً على هذه الأمور السابقة، وتعليماً أن الأمر كله لله : وما فعلته أى : كل ما سبق من : خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار عن أمرى واختيارى، بل بأمر ربى، وتكليفه لى بذلك.

ذلك الذى قلت تأويل ونفسير ما لم تسطع عليه صبراً قبل ذلك.

* * *

أيها الإخوة والأخوات ٠٠

أتذكرون ما سبق أن ذكرناه ٠٠ من أن اليهود قالوا للمشركين : اسألوا محمداً عن ثلاثة أشياء، فإن أجاب عن اثنين، ولم يجب عن الثالثة ٠٠ فاعلموا أنه نبى ٠٠ اسألوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول، واسألوه عن رجل طوف البلاد وشرق فيها وغرب، واسألوه عن الروح.

وقد نزل القرآن بإجابة هذه الأسئلة ٠٠

فقال عن هؤلاء الفتية : ما ذكر فى قصة أصحاب الكهف.

وقال عن الروح : ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى [الإسراء: ٨٥].

وأما عن إجابة السؤال الثالث ٠٠

فقد قال تعالى :

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا }
[الآية ٨٣]

يعنى : قل لمن يسألونك عن ذى القرنين سأتلوا وأقص عليكم منه من حاله ذكراً أى : بعض أخباره.

ويلاحظ : أن القرآن الكريم ٠٠ لا يذكر شيئاً عن شخصية ذى القرنين، ولا عن زمانه، ولا عن مكانه، إذّ لا حاجة إلى ذلك.

حيث إن المقصود : هو العبرة من هذه القصة، والعبرة تتحقق بدون ضرورة لمعرفة التفاصيل عن الشخصية، أو الزمان، أو المكان، لها.

* * *

على أية حال : من أخبار ذى القرنين التى يذكرها القرآن.
ما يقوله رب العزة.

{ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا }
[الآيتان ٨٤ ، ٨٥]

يعنى : إنا مكنا له السير فى الأرض حينما يريد وآتيناه من كل شىء يحتاج إليه سبباً أى : طريقاً يوصله إلى تحقيق ما يريد منه، من الجنود، والآلات، وغير ذلك.

فأتبع سبباً أى : أخذ بالأسباب، واستعمل الوسائل التى مكنه الله منها، للوصول إلى ما يريد.

* * *

فلما أراد الوصول إلى مغرب الشمس أخذ فى الأسباب لذلك.

{ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا }
[الآية ٨٦]

أى : سار نحو المغرب حتى إذا بلغ آخر العمران من الأرض عند المحيط، ورأى مغرب الشمس أى : موضع غروبها فيما تراه عينه، ووجدها تغرب فى عين حمئة أى : كأنها تختفى فى عين طينية سوداء.

و فى هذا المكان وجد عندها قوماً أى : أمة من الأمم كافرة.

وحدث بينه وبين هؤلاء القوم ٠٠ ما مكنه الله به منهم، وغلبه عليهم، وحكمه فيهم.

ثم ٠٠ قال تعالى قلنا له :

يا ذا القرنين أنت مخير فيهم بين أمرين إما أن تعذب من ظل منهم على الكفر وإما أن تتخذ فيهم حسناً بالعفو عنهم.

* * *

وكان جواب ذى القرنين على هذا التخيير : أنه ٠٠

{ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا }

[الآيتان ٨٧ ، ٨٨]

يعنى : اختار ذو القرنين المعاملة بالعدل مع الكفار، حيث قال أما من ظلم أى : كفر، وبقى على كفره، وآذى العباد، وأفسد البلاد فسوف نعذبه فى الدنيا ثم يرد إلى ربه فى يوم القيامة فيعذبه عذاباً نكراً أى : فظيعاً.

ثم أضاف قائلاً وأما من آمن بالله وعمل صالحاً موافقاً لشرع ربه، وأسعد العباد، وأصلح البلاد فله عند ربه جزاء الحسنى وهى الجنة وسنقول له نحن من أمرنا أى : من شرع الله الذى أمرنا ربه يسرى أى : ما يناسب طاقته، ولا يشق عليه.

* * *

يقول تعالى :

{ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا }

[الآية ٨٩]

أى : أخذ فى الأسباب، واستعمل الوسائل، التى مكنه الله منها؛ للوصول إلى ما يريد.

* * *

فلما أراد أن يصل إلى مطلع الشمس أخذ فى الأسباب لذلك، وسار ..

{ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا }
[الآيتان ٩٠ ، ٩١]

أى : سار نحو الشرق حتى إذا بلغ مطلع الشمس وهو الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولاً من العمران.

وفى هذا المكان وجدها تطلع أى تشرق على قوم على أمة من الأمم لم نجعل لهم من دونها ستراً أى : بينهم وبين الشمس ما يسترهم من حرها من البيوت، أو الأشجار، أو الملابس.

كذلك أى: حدث بينه وبينهم ما حدث بينه وبين أهل المغرب، وحكم فيهم، كما حكم فى أهل المغرب.

وقد أحطنا بما لديه من الجنود، والآلات، وأسباب : القوة والنصر خبراً معرفة وعلماً، حيث نحن الذين مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شئ سبباً.

* * *

وبعد ذلك – أيها الأحبة فى الله – يقول تعالى :

{ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا }
[الآية ٩٢]

أى : أخذ فى الأسباب، واستعمل الوسائل، التى مكنه الله منها، للوصول إلى ما يريد.

* * *

فلما أراد أن يصل إلى مكان ثالث وهو "بين السدين" أخذ فى الأسباب لذلك.

{ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا }
[الآية ٩٣]

أى : سار نحو الشمال حتى إذا بلغ الموضع الموجود بين السدين وهما جبلان عظيمان متقابلان يسدان الأفق بضخامتهما، بينهما ممر ضيق، ووجد من دونهما يعنى : أمام هذين الجبلين قوماً أمة من الأمم، منعزل أفرادها عن الناس، ولذلك لا يكادون يفقهون قولاً لأحد، ولا يفقه منهم أحد قولاً، إلا بمشقة وعسر، ومترجم.

* * *

فلما اقترب منهم، واختلط بهم، سمع منهم، وفهم بصعوبة عنهم ما يقولون٠٠
ماذا قالوا ٠٠؟

{ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا }
[الآية ٩٤]

يعنى : قالوا له يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج قبيلتان، كبيرتان، تقيمان خلف هذين الجبلين، وهم جميعًا مفسدون فى الأرض بالنهب والبغى عند خروجهم إلينا من هذا الممر الذى بين الجبلين.

فـــ ما رأيك ٠٠ هل نجعل لك خرجاً أجراً ومكافأة على أن تجعل بما أوتيت من علم وقوة وإمكانات بيننا وبينهم سداً يحمينا منهم، ويبعد عنا أذاهم٠٠؟

* * *

تريدون – أيها الأحبة – معرفة ماذا فعل ذو القرنين ٠٠؟

{ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا }
[الآية ٩٥]

يعنى : قال لهم ذو القرنين : لا أريد منكم أجراً؛ حيث إن ما مكنى فيه ربى من المال والقوة خير لى، مما عندكم من أجر.

ومع ذلك : سأجعل بينكم وبينهم سداً، تبرعاً وتطوعاً.

فأعينونى وساعدونى بقوة فيما أطلبه منكم لهذا العمل، وبذلك أجعل بينكم وبينهم ردماً أى : سداً حاجزاً منيعاً.

* * *

ثم وضح لهم مطالبه.
حيث قال لهم :

{ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا }
[الآية ٩٦]

يعنى : قال لهم ثلاثة أشياء :

الأول : آتونى هاتوا لى زبر قطع الحديد فجاءوه بها، وصار يرصها رصاً فوق بعضها البعض، فى هذا الممر الضيق بين الجبلين العظيمين حتى إذا ساوى بها بين الصدفين جانبى الجبلين.
الثانى: أنه أوقد ناراً على قطع الحديد هذه، وقال لهم : انفخوا فى هذه النار، المشتعلة فى قطع الحديد.
وظلوا ينفخون حتى إذا انصهر الحديد وجعله هذا النفخ فيه ناراً أى : كالنار.
كان الأمر التالى، وهو :
الثالث : قال لهم آتونى النحاس المذاب أفرغ عليه أى : على هذا السد المبنى من قطع الحديد، الذى انصهر، قطراً وهو هذا النحاس المذاب، حتى تتماسك قطع الحديد هذه.

* * *

وهكذا بنى السد، على يأجوج ومأجوج.

{ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا }
[الآية ٩٧]

يعنى : لما بنى السد على هذا النحو : ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن يظهروه أى : يصعدوا فوقه؛ لأنه عال جداً، وأملس جداً وما استطاعوا أيضاً له نقباً أى : خرقاً؛ لقوته، وصلابة مادته.
وبذلك : حبسوا وراء الجبلين من جهة، وسدت عليهم الثغرة التى كانت بينهما من جهة أخرى ·· فلا يستطيعون المرور من فوق ولا من تحت.

* * *

وبعد أن تم البناء ··

{ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا }
[الآية ٩٨]

يعنى : قال ذو القرنين هذا التوفيق فى بناء السد رحمة من ربى بالناس، حيث حال بينهم وبين أذى يأجوج ومأجوج لهم.

فإذا جاء وعد ربى بخروج يأجوج ومأجوج جعله سبحانه دكاء أى : مدكوكاً، مستوياً بالأرض، فيخرجون منه.

وكان وعد ربى بخروجهم هذا حقاً لا يتخلف.

وهكذا ٠٠ انتهت قصة ذى القرنين.

* * *

بعد أن قال رب العزة فى أول السورة إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أى : نختبر أهل الأرض أيهم أحسن عملاً ٠٠

وبعد أن ذكر ٠٠ قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، ومثال الدنيا، وقصة موسى والخضر، وقصة ذى القرنين، وكل ذلك ٠٠ يذكر بأمر الدنيا وزوالها، وهوان شأنها ٠٠

يعطينا رب العزة : تصورا عن يوم القيامة ٠٠ وعلو شأن المؤمنين على الكافرين فيه ٠٠ دعوة للاهتمام باليوم الآخر، والاستعداد له، وعدم الانشغال التام بأمر الدنيا وزينتها.

فيقول سبحانه :

{ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا }
[الآية ٩٩]

يعنى : وتركنا أهل الدنيا، بما فيهم يأجوج ومأجوج بعضهم يومئذ يموج فى بعض يتصارعون، ويتنافسون، حتى تقوم القيامة.

ونفخ فى الصور ساعتها، النفخة الثانية فجمعناهم كلهم للحساب جمعاً.

* * *

{ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا }
[الآيتان ١٠٠ ، ١٠١]

يعنى : وعرضنا أى : وقربنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً أى : قرباً واضحاً، لافحاً.

هؤلاء الذين كانت أعينهم وهم فى الدنيا فى غطاء وعمى عن ذكرى وهديى فى القرآن، فلا يهتدون به وكانوا لا يستطيعون سمعاً له من النبى صلى الله عليه وسلم، لعنادهم، واستهزائهم، وبعدهم عن الهداية.
وفى هذا : منتهى التهديد، وقوة الوضوح فى الدعوة للهداية.

* * *

ثم يكون التهديد الأوضح لمن أعرض عن الذكر، واتباع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

{ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا }
[الآية ١٠٢]

يعنى : أ كفر هؤلاء ..فحسبوا أنهم على صواب فى أن يتخذوا عبادى كالملائكة، وعيسى، وعزير من دونى أولياء : وأتركهم دون عقاب ..؟!
أبداً .. أبداً.
إنا أعتدنا جهنم للكافرين هؤلاء وأمثالهم نزلاً ينزلون فيه، ويقيمون، لا يخرجون منها أبداً.

* * *

ثم ينبه ربنا – بمنطق الماديين – على جهل القوم بالمكسب والخسارة.
فيقول لحبيبه صلى الله عليه وسلم :

{ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا }
[الآية ١٠٣]

يعنى : قل لهم هل ننبئكم ونعرفكم بالأخسرين أعمالاً يا من تتعاملون بحساب المكسب والخسارة .. أيها الماديون ..؟

* * *

هؤلاء الأخسرون .. هم الذين وصفهم رب العزة بوصفين، فى قوله تعالى:

{ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا }
[الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥]

أى : الوصف الأول :

هم أولئك الذين ضل ضاع وبطل سعيهم وعملهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون يظنون بمنطقهم أنهم يحسنون صنعاً ويستحقون الجزاء الحسن عليه.

والوصف الثانى : هم أولئك الذين كفروا بآيات ربهم الدالة على توحيده تعالى وقدرته.

الوصف الثالث : هم أولئك الذين كفروا، بـــ لقائه تعالى فى يوم القيامة، وأنكروا البعث والحساب تماماً.

ولذلك : يقول تعالى فحبطت أعمالهم بطلت، وضاع ثوابها حتى لو كانت صنعاً حسناً.

وكذلك فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا قدرا.

* * *

{ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا }
[الآية ١٠٦]

أى : ذلك المذكور، من إحباط أعمالهم، وعدم إقامة وزن لهم ٠٠ هو جزاؤهم وبالتالى : لهم جهنم يدخلونها، بسبب : أنهم كفروا بآيات ربهم ولقائه وأنهم اتخذوا آياتى الدالة على وحدانيتى وقدرتى، و اتخذوا رسلى الداعين إلى الإيمان بى هزواً يسخرون منهم، ويستهزئون بهم.

* * *

وبعد أن ذكر المولى سبحانه : أن الكفار منزلهم جهنم، وهددهم بذلك، وخوفهم منه، يذكر المؤمنين مبشراً لهم بمنزلهم الحسن، وهو الجنة.

فيقول :

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا }
[الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨]

يعنى : إذا كان الكفار كما ذكرنا ٠٠ فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس وهو وسط الجنة وأحسنها.

خالدين فيها لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها.

وكذلك لا يبغون أى : يطلبون عنها حولاً أى: تحولاً عنها، وانتقالاً منها.

* * *

هذا ٠٠ ولما قال القرآن عن اليهود الذين أوعزوا للكفار أن يسألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً [الإسراء : ٨٥].

وقال اليهود : لقد أوتينا التوراة وفيها علم كل شىء ٠٠!!

أنزل الله عز وجل ٠٠ قوله تعالى :

{ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا }
[الآية ١٠٩]

يعنى : قل لهؤلاء وهؤلاء لو كان ماء البحر كله مداداً أى : حبراً، لـــ كتابة كلمات ربى الدالة على آياته، وحكمه، وعجائبه لنفذ ماء البحر أى: انتهى قبل أن تنفد وتنتهى كلمات ربى حتى ولو جئنا بمثله أى : بمثل هذا الماء، مدداً أى : ماءً آخر، وثالث ورابع ٠٠ إلى ما لا نهاية ٠٠ لما نفدت كلمات ربى كذلك.

* * *

وما ذلك ٠٠ إلا لأنها من عند الله، وليست من عند محمد صلى الله عليه وسلم، كما يزعمون.

ولذلك :

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا }
[الآية ١١٠]

أى : قل لهم إنما أنا بشر مثلكم لا أعلم الغيب، ولكن يوحى إلى أنما إلهكم الذى يجب توحيده وعبادته إله واحد.

ولذلك : فمن كان يرجو أجراً حسناً عند لقاء ربه فى يوم البعث فليعمل عملاً صالحاً يسعد به العباد، ويصلح البلاد، ويتوافق مع شرع الله ولا يشرك بعبادة ربه أحداً كذلك.

وعلى ذلك : فكل ما أخبرتكم به ٠٠ فهو من عند الله ٠٠

وكل ما أمرتكم به ٠٠ فهو من الله عز وجل ٠٠

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه هى سورة مريم : التى اشتملت على بعض الأعاجيب الدالة على قدرة الله عز وجل ٠٠ كقصة ولادة يحيى عليه السلام، وقصة ولادة عيسى عليه السلام.
جاءت بعد سورة الكهف : التى ذكر فيها بعض الأمور العجيبة الدالة على ذلك أيضاً، كما سبق أن عرفنا.
وهى تبدأ بقوله تعالى :

{ كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا }
[الآيات ١ – ٣]

{كهيعص} من الحروف المقطعة، التى يلفت الله بها أنظار المعاندين للنبى صلى الله عليه وسلم، الممتنعين عن الإنصات للقرآن الكريم، كما هو فى الرأى الذى نستريح إليه.
ثم يقول ربنا : هذا الذى نتلوه عليك من القرآن ٠٠ مشتمل على ذكر رحمة ربك سبحانه، بـــ عبده زكريا.
وذلك إذْ نادى ربه أى : دعا زكريا ربه نداءً دعاءً خفياً سراً فى جوف الليل؛ ليكون أقرب وأسرع للإجابة.

* * *

ولكن ٠٠ بماذا نادى ربه ٠٠؟

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا }
[الآيات ٤ – ٦]

أى : قال رب وقدم لدعائه ٠٠ بخمسة أشياء :

أولاها : إنى وهن ضعف العظم جميعه منى نظراً لكبر سنى.
ثانيها : و قد اشتعل الرأس منى شيباً.
ثالثها : ولم أكن بدعائك فيما سبق شقياً أى : خائباً، يعنى : لم تخيب دعائى قبلاً، بل كنت تجيبه دائماً، وأنا أريد أن أدعوك.
رابعها : وإنى خفت الموالى الذين يلونى فى النسب، ويأتون من ورائى أى : بعدى ٠٠ على الدين، أن يضيعوه؛ لعدم وجود ولد لى يقوم بحفظه.

خامسها : وكانت امرأتى عاقراً عقيماً لم، ولا تنجب، حتى يتحقق مطلبى.

ومع كل هذا : فإنى أدعوك، ولا أيأس من رحمتك.
فهب لى من لدنك من عندك ولياً ابنا ٠٠ يحقق ما يلى :

أولاً : يرثنى أى : يرث منى العلم، والصلاحية للنبوة.
ثانياً : يرث من آل يعقوب جدى، كذلك : العلم والنبوة.
ثالثاً : يكون مرضياً عندك واجعله رب رضياً.

* * *

وقد أجاب الله دعاءه هذا ٠٠ قائلاً :

{ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا }
[الآية ٧]

قال تعالى يا زكريا قد أجبنا دعاءك، وإنا نبشرك بغلام اسمه يحيى شرفناه بتسمية من عندنا، ولم نجعل له من قبل سمياً أى : لم يسم أحد بهذا الاسم من قبل.

* * *

وفرح زكريا، وتعجب ٠٠

{ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا }
[الآية ٨]

يعنى : قال زكريا، وهو فى غمرة الفرح ٠٠ يا رب أنى يكون كيف يكون لى غلام مع وجود هذين الأمرين :

الأول : كانت امرأتى عاقراً لم تلد قط.
الثانى : وقد بلغت أنا من الكبر عتياً سناً متقدمة.
وكلاهما يتنافيان مع الإنجاب.
وينبغى أن يلاحظ جيداً : أنه لا ينكر قدرة الله على ذلك، بل يسأل عن الكيفية لزيادة الاطمئنان.

* * *

وكانت الإجابة هكذا ..

{ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا }
[الآية ٩]

يعنى : قال جبريل عليه السلام .. الأمر كذلك يتم خلق غلام منكما.. وقد قال ربك هو على وبالنسبة لقدرتى، سهل هين.
و هل نسيت أنى قد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً بالمرة ..؟
إذاً : سيكون لك هذا الغلام، الذى رجوته.

* * *

ولما سمع زكريا هذا الكلام : تاقت نفسه إلى رؤية هذا الغلام الذى بشر به..
ولذلك :

{ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا }
[الآية ١٠]

أى : قال زكريا .. يا رب اجعل لى آية علامة أعرف بها أن امرأتى حامل فى هذا الغلام.
قال له ربه آيتك هى ألا تكلم الناس أى : يحبس لسانك، فلا تستطيع التحدث مع الناس، مع سلامة لسانك ثلاث ليال بأيامها سوياً كاملة.

* * *

وحبس لسانه، وجاء موعد الصلاة.

{ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا }
[الآية ١١]

يعنى : فخرج زكريا على قومه من المحراب وهو المسجد، الذى بشر فيه بالولد، والذى كانوا ينتظرون فتحه للصلاة فيه.

ولم يكلمهم ..

فنظروا إليه ..!!

فأوحى أى : أشار إليهم بدون كلام أن سبحوا ربكم، وصلوا إليه بكرة وعشياً فى هذه الأيام الثلاثة، التى لن يتكلم فيها.

وذلك : شكراً لله تعالى.

* * *

وعلم زكريا بحبس لسانه : أن امرأته حامل.

وولدت امرأته : يحيى.

وبعد مدة من الزمن : قال تعالى ..

{ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا }

[الآيات ١٢ – ١٤]

يعنى : قلنا له يا يحيى خذ الكتاب أى : التوراة، واشتغل به ، حفظاً، وفهماً للمعانى، وعملاً بالأحكام بقوة بجد.

وأنعمنا عليه بستة أوصاف :

أولها : آتيناه الحكم أى : الفقه فى الدين، والقدرة على الفتوى صبياً صغير السن.

ثانيها : آتيناه حناناً رحمة للناس من لدنا من عندنا.

ثالثها : آتيناه زكاة طهارة وصلاحاً من عندنا.

رابعها : وكان تقياً مسلماً، مقبلاً على الله، مطيعاً له.

خامسها : وبراً بوالديه محسناً لهما، قولاً وفعلاً.

سادسها : لم يكن جباراً متكبراً عصياً عاصياً لربه.

* * *

هذا .. وكان جزاؤه منا على هذه الأوصاف الجميلة أن قلنا :

{ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا }
[الآية ١٥]

يعنى : وسلام عليه أمان من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان، ويوم يموت من فتنة القبر ويوم يبعث حياً من أهوال يوم القيامة.

* * *

وبعد أن ذكر ربنا قصة خلق يحيى عليه السلام من شيخين كبيرين، وهى من العجائب : ترقى إلى الأصعب، وهو قصة خلق عيسى من غير أب.
فقال :

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا }
[الآيتان ١٦ ، ١٧]

أى : واذكر فى الكتاب وهو القرآن ‥ هذه القصة الأعجب، الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا.
وهى قصة مريم عليها السلام إذّ انتبذت اعتزلت من أهلها وأخذت للعبادة مكاناً شرقياً بعيداً عنهم، فى الجهة الشرقية من البيت.
وجعلت بينها وبين أهلها حاجزاً فاتخذت من دونهم حجاباً يحول بينها وبينهم.
فأرسلنا إليها حينئذ روحنا وهو جبريل عليه السلام فتمثل لها أى : ظهر لها بشراً سوياً فى صورة بشر تام الخلقة؛ لتأنس به، ولا تنفر منه، وتستمع إليه.

* * *

ولما رأته : فزعت ‥ ثم

{ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا }
[الآية ١٨]

يعنى : قالت له إنى أعوذ وأحتمى بالرحمن الذى يرحم ضعفى. ويحمينى منك ‥ وابتعد عنى إن كنت تقياً تخاف الله.

* * *

فرد عليها ٠٠

{ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا }
[الآية ١٩]

أى : قال لها ٠٠ لا تخافى، فلن أمسك بسوء، ولست بشراً إنما أنا رسول ربك وقد أرسلت لأهب لك عن طريق النفخ بإذن الله غلاماً زكياً طاهراً من الذنوب، نامياً على الخير.

* * *

فتعجبت من هذا الكلام ٠٠ ثم :

{ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا }
[الآية ٢٠]

يعنى : قالت له أنى كيف يكون لى غلام كما تقول، و واقع الحال٠٠ أنه لم يمسسنى بشر عن طريق الزواج ولم أك بغياً تعاشر الرجال فى الحرام.

* * *

وأجابها جبريل عليه السلام

{ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا }
[الآية ٢١]

أى : قال جبريل عليه السلام ٠٠ الأمر كذلك يتم خلق غلام منك دون أن يمسسك بشر.
وقد قال ربك هو على وبالنسبة لقدرتى : سهل هين.
و كذلك لنجعله آية للناس دالة على وحدانيتنا وقدرتنا.
ونجعله أيضاً رحمة منا لمن آمن به.

وكان خلقه على هذا النحو من غير أب أمراً من عندنا مقضياً به، لا يتخلف.

* * *

وتم النفخ بإرادة الله تعالى ٠٠!!
وتم الحمل، بقدرة الله سبحانه ٠٠!!

وأحست مريم عليها السلام بالحمل يتحرك فى بطنها.

{ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا }
[الآية ٢٢]

يعنى : فحملته أى عيسى عليه السلام، وهو فى بطنها فانبتذت اعتزلت به من أهلها مكاناً قصياً أى : بعيداً عنهم، بعداً كبيراً.
يقول ابن عباس : فى أقصى الوادى، وهو : "بيت لحم".
وذلك : فراراً من قومها، أن يعيروها بحملها من غير زوج.

* * *

وفى هذا المكان ٠٠

{فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا }
[الآية ٢٣]

أى : فأجاءها جاءها المخاض وجع الولادة، وألجأها إلى جذع النخلة لتعتمد عليه.
ثم كانت الولادة ٠٠
قالت جزعاً من هذا الذى حدث، وخوفاً من الناس يا ليتنى مت قبل هذا الأمر وكنت نسياً منسياً لا يعرفنى أحد.

* * *

{ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا }
[الآيات ٢٤ – ٢٦]

يعنى : لما قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ..
أنطق الله سبحانه بقدرته عيسى وهو فى المهد فناداها من تحتها قائلاً لها..
ألا تحزنى لما أصابك من آلام الولادة البدنية، ولا من آلام كلام الناس النفسية.
وبعد أن واساها : أرشدها إلى ما حولها من خيرات الله.
حيث قال : قد جعل ربك تحتك سرياً نهراً صغيراً، يجرى به الماء بعد انقطاع.
ثم بين لها ماذا تفعل .. قائلاً :
وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً.
فكلى من هذا الرطب واشربى من هذا الماء وقرى عيناً فلا تخافى أحداً، ولا تحزنى لما حدث.
ثم علمها .. كيف تواجه الناس .. قائلاً :
فإما ترين من البشر أحداً وسألك عنى : فلا تقولى شيئاً، سوى إنى نذرت للرحمن صوماً عن الكلام فى هذا الموضوع وغيره، وابدأ من الآن فلن أكلم اليوم بعد ذلك إنسياً ولكن لا أكف عن ذكر الله.

* * *

وأنست مريم، واطمأنت نفسها، وقويت على ملاقاة قومها ..

{ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا }
[الآيتان ٢٧ ، ٢٨]

أى : فأتت مريم به أى : بعيسى، من المكان البعيد، الذى كانت قد اعتزلت فيه قومها وهى تحمله.
فلما دخلت عليهم ومعها الصبى : بكوا، وحزنوا؛ لأنهم كانوا أهل بيت صالحين.
ثم قالوا لها يا مريم لقد جئت فعلت وارتكبت شيئاً فرياً منكراً كبيراً.
لماذا فعلت هذا يا أخت هارون فى العفة والصلاح ..؟
إن هذا لا يليق بك، حيث ما كان أبوك امرأ سوء يفعل الفاحشة، وما كانت أمك بغياً تطلب معاشرة الرجال فى الحرام .. فكيف فعلت هذا ..؟!!

* * *

ولم تنطق ..

ونظروا إليها، نظرة اتهام، وعتاب وملامة ٠٠

{ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا }
[الآية ٢٩]

يعنى : فأشارت لهم إليه ٠٠ أى : كلموا هذا ٠٠
فغضبوا منها، وتعجبوا لفعلها، وقالوا لها : أتهزئين بنا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً لا يتكلم أصلاً ٠٠؟

* * *

وهنا ٠٠ نطق الذى فى المهد :

{ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا }
[الآيات ٣٠ – ٣٣]

أى : قال لهم عن نفسه ثمانى صفات، كلها تبرئ أمه من هذا الاتهام الذى وجهوه إليها.
وهذه الصفات هى :

الأولى : إنى عبد الله فأثبت لنفسه العبودية، وبرأ ربه عن الولد.
الثانية : آتانى الكتاب أى : قضى بإيتائى الكتاب وهو الإنجيل.
الثالثة : وجعلنى فيما يأتى من الأيام نبياً أبلغ رسالته.
الرابعة : وجعلنى مباركاً نفاعاً للناس، وهادياً لهم أينما كنت.
الخامسة : وأوصانى أى : أمرنى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً.
السادسة : وبراً بوالدتى محسناً لها، قولاً وفعلاً.
السابعة : ولم يجعلنى جباراً متكبراً، ولا شقياً عاصياً لربى.
الثامنة : والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً وهذا تأمين لى من الخوف فى أحرج الأوقات، وأشد الأزمات.
وبهت القوم، وسكت الجميع.

ومرت الأيام، ومضت السنون، واختلف الناس فيه ٠٠!!
فمن قائل : إنه عبد الله، كما قال عن نفسه.
ومن قائل : إنه إله، أو ابن الله، كما سوّل لهم الشيطان.

ولذلك .. قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم وقوله الحق فيه :

{ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ }
[الآيات ٣٤ – ٣٦]

يعنى : ذلك الذى وصف بهذه الصفات المذكورة، هو عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله، وليس كما قالت النصارى : إنه إله، أو إنه ابن الله.

وهذا الذى نقول .. هو قول الحق الذى فيه يمترون ويشكون، ويختلفون، فاليهود يقولون : إنه ابن زنى، والنصارى يقولون : إنه ابن الله، وثالث ثلاثة.

والحقيقة أنه ما كان لله أن يتخذ من ولد حيث يستحيل عليه سبحانه ذلك.

بل هو الواحد الأحد، الذى إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

ثم يحكى ربنا على لسان عيسى عليه السلام قوله لقومه وإن الله ربى وربكم أنا عبده، وأنتم عبيده فاعبدوه ووحدوه، ولا تشركوا معه أحداً.

وهذا الذى أقوله لكم صراط مستقيم فالتزموا به، وسيروا عليه، ولا تنحرفوا عنه.

* * *

ومع هذا الوضوح ..

{ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }
[الآيتان ٣٧ ، ٣٨]

أى : فاختلف الأحزاب وهى الفرق فى شأن عيسى بعد ذلك من بينهم وهم النصارى .. فمن قائل عنه : إنه الله، ومن قائل : إنه ابن الله، ومن قائل : إنه ثالث ثلاثة، ومن قائل : إنه عبد الله ورسوله.

فويل وهلاك للذين كفروا من هؤلاء من مشهد وأهوال يوم عظيم وهو يوم القيامة.

أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا فى هذا اليوم، بعد أن كانوا عمياً عن رؤية الحق، وصماً عن سماعه فى الدنيا.

لكن ماذا يفيدهم السماع للهدى والبصر به يوم القيامة .. إذ كان الظالمون اليوم وهم فى الدنيا فى ضلال مبين واضح.

هذا هو أمر عيسى عليه السلام .. العجيب : الذى يدعو إلى الإيمان بقدرة الله، ووحدانيته، كل عاقل، ومنهم كفار عهدك يا محمد.

* * *

ولذلك : بلغهم به ..

{ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ }
[الآيتان ٣٩ ، ٤٠]

يعنى : وأنذرهم خوف كفار قومك يوم الحسرة وهو يوم القيامة وما فيه من أهوال عظام إذ قضى الأمر لهم فيه بالعذاب وهم اليوم فى الدنيا فى غفلة عن هذا العذاب وهم أيضاً لا يؤمنون به.

إن عذابهم يسير علينا، حيث إنا نرث الأرض كلها ومن عليها جميعهم وإلينا يرجعون لا محالة، فنحاسبهم، ونجازيهم.

* * *

كذلك، وليتأكد الناس أن دعوة الرسل جميعا هى العبودية لله ..

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا }
[الآية ٤١]

أى :و كما ذكرت قصة عيسى لقومك اذكر فى الكتاب وهو القرآن قصة إبراهيم مع أبيه وقومه، حيث إنه كان صديقاً مصدقاً لجميع الأنبياء وكتبهم نبياً فى نفسه، وهو الجد الأعلى لعيسى، وجد العرب، وهو الذى تعترف به وبنبوته جميع الأمم.

ولذلك : ففى قصته مع أبيه .. تذكير لهم بدعوته، وتجديد لهم فى دعوتهم إليها.

* * *

وقصته هذه :

{ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا }
[الآيات ٤٢ – ٤٥]

يعنى : حين قال لأبيه منادياً بكل أدب واحترام هذه الأمور الأربعة :

أولها : قال مستائلاً مشككاً يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً نفعاً أو ضراً، من هذه الأصنام ٠٠؟

ثانيها : قال مخبراً ومرغباً يا أبت إنى قد جاءنى من العلم عن طريق الوحى فى توحيد ربى وعبادته ما لم يأتك منه شيئاً بخصوص عبادة هذه الأصنام ٠٠

لذلك : فاتبعنى وآمن بالله، واترك الأصنام أهدك بهداية الله صراطاً سوياً طريقاً مستقيماً.

ثالثها : قال ناهياً ومنبهاً يا أبت لا تعبد الشيطان بطاعتك له فى عبادة هذه الأصنام؛ فتهلك؛ حيث إن الشيطان كان للرحمن عصياً فلا تطعه.

رابعها : قال مشفقاً ومحذراً يا أبت إنى أخاف عليك أن يمسك عذاب من الرحمن بسبب شركك وعبادتك للأوثان فتكون للشيطان ولياً وقرينا فى النار.

* * *

ماذا قال أبوه ٠٠؟

{ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا }
[الآية ٤٦]

أى : قال معانداً، وساخراً أراغب أنت عن عبادة آلهتى التى أعبدها، وأتمسك بها، ولا أتخلى عنها يا إبراهيم ٠٠؟

ثم هدد قائلاً لئن لمن تنته عما تقول وتدعو إليه لأرجمنك بالقول الفظيع والحجارة القاتلة ٠٠ فاحذرنى واهجرنى ملياً وابتعد عنى نهائياً.

وهذا شأن الطغاة المعاندين الجاهلين : حيث يلجئون إلى التهديد عندما يعجزون عن الحوار والنقاش.

* * *

ماذا فعل إبراهيم ٠٠؟

يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا }
[الآيتان ٤٧ ، ٤٨]

لم يفعل شيئاً ·· سوى أنه قال لأبيه بكل أدب وعطف وحسن معاملة سلام عليك لا ينالك منى مكروه، حتى ولو رجمتنى، وسأستغفر لك ربى أن يغفر ذنبك، وأن يهديك للإسلام ·· حيث إنه سبحانه كان بى حفياً كريماً معى، مجيباً دعائى.

ثم قال : و ليس هذا فقط، بل أعتزلكم أتركهم وما تعبدون من دون الله وأفارق بلدكم.

وأدعو ربى وأعبده وأوحده فى مكان آخر عسى أى : وكلى رجاء أن لا أكون بدعاء ربى وعبادته شقياً مثل شقاوتكم بعبادة الأصنام.

* * *

واعتزلهم بالفعل ·· وهاجر من أرضهم ··

{ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا }
[الآيتان ٤٩ ، ٥٠]

أى :فلما اعتزلهم إبراهيم، وهاجر من بلادهم، وتركهم وما يعبدون من دون الله وذهب إلى بلاد الشام : أبدله الله من هو خير منهم.

حيث يقول وهبنا له إسحق ويعقوب بن إسحق وكلاً منهما جعلناه نبياً.

وجعلنا لهم جميعاً لسان صدق ثناءً حسناً علياً أى : فى جميع الأمم، وكل أهل الأديان.

* * *

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم :

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا }
[الآيات ٥١ – ٥٣]

يعنى : و كما ذكرت قصة عيسى عبد الله ورسوله، وقصة إبراهيم الذى كان يدعو إلى عبادة الله اذكر لقومك كذلك فى الكتاب وهو القرآن، قصة موسى عليه السلام، وأخبر عنه المولى هنا بخمسة أخبار هى :

الأول : إنه كان مخلصاً لله من الدنس والشرك.
الثانى : وكان رسولاً نبياً يدعو إلى عبادة الله وتوحيده، مثل باقى المرسلين.
الثالث : وناديناه من جانب جبل الطور الأيمن وأوحينا إليه.
الرابع : وقربناه منا، فكان نجياً يسمع كلامنا، ومناجاتنا له حين أوحينا إليه.
الخامس : ووهبنا له من رحمتنا وإنعاما أخاه هارون نبياً وزيراً له، يشد أزره، ويشركه فى أمره، ويعينه على ذكر ربه.

* * *

ثم يقول له – صلى الله عليه وسلم – ربنا كذلك ..

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا }
[الآيتان ٥٤ ، ٥٥]

يعنى : و كما ذكرت قصص هؤلاء المرسلين، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده اذكر كذلك، قصة إسماعيل عليه السلام.
وأخبر عنه ربنا بأربعة أخبار .. هى :

الأول : إنه كان صادق الوعد حيث لم يعد بشىء إلا وفى به.
الثانى : وكان رسولاً نبياً يدعو إلى عبادة الله وتوحيده، مثل إخوانه المرسلين.
الثالث : وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة اهتماماً بأهله، واعتناءً بهم.
الرابع : وكان عند ربه مرضياً عنه.

* * *

ثم يقول ربنا معلماً أمة محمد صلى الله عليه وسلم :

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا }

يعنى : واذكر كذلك فى الكتاب لقومك إدريس عليه السلام.
حيث إنه كان صديقاً نبياً مثل إبراهيم عليه السلام.
و أيضاً رفعناه بالنبوة مكاناً علياً ومنزلة كبيرة.

* * *

وتعقيبا على ذكر كل هؤلاء يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا }
[الآية ٥٨]

أى : أولئك المذكورون، هم الذين أنعم الله عليهم كما أنعم على إخوانهم من النبيين وهم :
من ذرية آدم عليه السلام، وهو إدريس عليه السلام.
وممن حملنا مع نوح عليه السلام فى السفينة، وهو إبراهيم عليه السلام ابن ابنه سام.
ومن ذرية إبراهيم عليه السلام، وهم إسماعيل، وإسحق، ويعقوب، عليهم السلام.
ومن ذرية إسرائيل أى : يعقوب عليه السلام، وهم موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، عليهم السلام.
وممن هدينا واجتبينا كذلك من غير من ذكرنا ..
كل أولئك إذا تتلى عليهم آيات الرحمن الدالة على وحدانيته، وقدرته خروا سجداً لله ولعظمته وبكياً من خشيته سبحانه.
وقد أجمع العلماء على شرعية السجود هنا .. اقتداءً بهم عليهم السلام.
وكان عمر رضى الله عنه إذا قرأ سورة مريم فسجد قال : هذا السجود، فأين البكاء، يعنى : يعيب على نفسه عدم البكاء.
أما نحن ..
فأين البكاء ؟ بل .. أين السجود ؟ بل .. أين القراءة ؟
ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

وبعد أن وصف الله هؤلاء الأنبياء بصفات المدح؛ ترغيباً لنا فى التأسى والاقتداء بهم ..
ذكر بعدهم من هوعلى الضد من ذلك، تنفيراً لنا من التأسى والاقتداء بهم.
فقال :

{ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا }
[الآية ٥٩]

يعنى : فخلف وجاء من بعدهم خلف سوء أضاعوا الصلاة بإنكارها، أو عدم فعلها، فهدموا دينهم واتبعوا الشهوات وغرقوا فى الملذات، ورضوا بالحياة الدنيا، واطمأنوا بها.
لهذا فـــ أولئك سوف يلقون جزاء شرهم غيا خسارة، يوم القيامة.

* * *

لكن ..

{ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا }
[الآية ٦٠]

يعنى : من تاب عن كفره، ورجع إلى ربه وآمن بالله ورسله وعمل صالحاً يرضى به ربه، ويسعد به عباده، ويصلح به بلاده.
فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً من جزائهم بسبب ما عملوه قبل توبتهم.

* * *

ثم يصف ربنا تبارك وتعالى هذه الجنات التى يدخلونها .. فيقول :

{ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا }
[الآيات ٦١ – ٦٣]

هذه الجنات وصفها ربنا بعدة صفات :

الأولى : أنها دار إقامة أبدية جنات عدن أى إقامة.
الثانية : أنها وعد من الرحمن التى وعد الرحمن عباده بها، وهم بالغيب أى : غائبين عنها، لم يشاهدوها إنه كان وعده مأتياً متحققاً، لا يتخلف.

الثالثة : أنهم لا يسمعون فيها لغواً من الكلام إلا سلاماً من الملائكة عليهم، أو من بعضهم على بعض.

الرابعة : أنهم لهم رزقهم فيها بكرة وعشياً أى : على مقدار طرفى النهار من الدنيا، إذ لا ليل ولا نهار فى الآخرة.

الخامسة : أنها ميراث الأتقياء تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقياً بطاعة الله تعالى.

* * *

أيها الأحباب ..

ذات مرة، تأخر نزول الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم أياماً، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل: ما منعك أن تزورنا

فأنزل الله تعالى قوله الكريم على لسان جبريل عليه السلام :

{ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا }

[الآيتان ٦٤ ، ٦٥]

أى : وما نتنزل نحن الملائكة بشىء من الوحى إلا بأمر ربك لنا بذلك.

حيث إن له سبحانه ما بين أيدينا من أمور الآخرة وما خلفنا من أمور الدنيا، فهو المالك لكل شىء، المدبر لكل شىء إلى قيام الساعة.

وما كان ربك نسياً أى : ناسياً لك بتأخير الوحى عنك، ولكن كل شىء عنده بمقدار.

هو سبحانه رب السموات والأرض وما بينهما يستحيل عليه النسيان.

إذن .. فاعبده أى : أقبل على عبادته ولا تحزن بإبطاء الوحى عنك، واستهزاء الكفرة بك، وعنادهم لك .. فإنه سبحانه : يراقبك، ويلطف بك فى الدنيا والآخرة.

واصطبر لعبادته أى : اصبر عليها ، وعلى أدائها تامة كاملة.

هلى تعلم له سميا أى : شبيهاً، أو مثيلاً ..؟

أبداً .. أبداً ..

وما دام الأمر كذلك : فلابد من التسليم لأمره، والاشتغال بعبادته، والصبر على مشقاتها.

* * *

هذا .. ولما أمر الله تعالى بالعبادة والمصابرة عليها ..

فكأن كافراً قال : هذه العبادة لا منفعة لها حيث لا بعث، ولا حساب.

ولذلك : حكى الله إنكاره للبعث، قائلاً :

{ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا }
[الآية ٦٦]

يعنى : ويقول الإنسان الكافر أئذا ما مت لسوف أخرج حياً مرة أخرى من القبر، كما يقول محمد، هذا لا يعقل، ولا يكون أبداً.

* * *

ويرد الله عز وجل إنكاره هذا ٠٠ بقوله :

{ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا }
[الآية ٦٧]

يعن : أ نسى، أو تغافل ولا يذكر هذا الإنسان الكافر أنا خلقناه من قبل إذّ كان عدماً ولم يك شيئاً فلم يستدل بالابتداء على الإعادة ٠٠؟

* * *

ثم يهدد ربٌ العزة هذا الكافر وأمثاله ٠٠ بقوله :

{ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا }
[الآيات ٦٨ – ٧٠]

أى : فوربك يا محمد لنحشرنهم يعنى : هؤلاء المنكرين للبعث.
و نحشر معهم الشياطين الذين كانوا يغرونهم بالكفر.
ثم لنحضرنهم جميعا حول جهنم جثيا أى : باركين على ركبهم.
ثم لننزعن من كل شيعة فرقة منهم أيهم أشد على الرحمن عتياً أكثرهم فجوراً وإجراماً، وهم قادتهم فى الضلال، ورؤساؤهم فى الكفر.
ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها أى : أولى وأحق بعذاب جهنم صلياً دخولاً، واحتراقاً، وخلوداً ٠٠ فندخله أولاً، ونضاعف عذابه.

* * *

ولما تحدث ربنا جل ذكره عن جهنم ودخولها عقب عليه بقوله سبحانه :

{ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا }
[الآيتان ٧١ ، ٧٢]

يعنى : وما منكم يا بنى آدم أحد إلا واردها.
وهى : جهنم كان ذلك على ربك سبحانه حتماً مقضياً قضى به، لا يتركه.
ثم ننجى من البقاء والخلود فيها الذين اتقوا ربهم، فلم يكفروا به، ولم يشركوا معه أحداً، وآمنوا به، وأطاعوا رسله، وعملوا بشرعه.
ونذر ونترك الظالمين فيها جثياً باركين على ركبهم يعذبون فيها.

* * *

هذا ..
وإذا كان المولى جلت حكمته قد بين فريقاً من هل النار .. قد كفر بسبب إنكاره البعث.
فهذا بيان لعلة أخرى من علل كفرهم .. وهى : الغرور بالدنيا ومتاعها الزائل.
قال تعالى :

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا }
[الآية ٧٣]

يعنى : وإذا تتلى وتعرض عليهم آياتنا الواضحة، الداعية للإيمان قال الذين كفروا بالله، وأنكروا البعث للذين آمنوا انظروا لحالكم وحالنا، وقولوا لنا أى الفريق منا ومنكم خير مقاما عيشة وسكنا وزينة ومتاعًا وأحسن نديا أى: مجتمعاً وبيئة ..؟
وبالطبع : فنحن – كما ترون – خير منكم مقاماً، وأحسن منكم مجتمعاً.
فكيف نكون على الباطل، وتكونون على الحق ..؟
إن هذا لا يعقل إطلاقاً.

* * *

ويرد الله عليهم غرورهم، ويهدم لهم حجتهم ·· بقوله سبحانه :

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا }
[الآية ٧٤]

يعنى : لا ينبغى أن يغتروا بالدنيا ومتاعها الزائل، ويكفروا بالله، فكم أهلكنا ودمرنا وعذبنا قبلهم من قرن أهل عصر، كانوا هم أحسن منهم وأكثر أثاثاً متاعاً ورئياً ومنظراً.

ولو كان متاع الدنيا، وامتلاكه ·· علامة على أن أصحابه على الحق : ما عذبناهم.

فالأمر إذا على غير ما تدعون، ويفهم الكثيرون.

* * *

ولذلك يأمر الله محمداً صلى الله عليه وسلم فى وحى يتلى ويعمل به إلى يوم القيامة : أن يذكر سنة الله فى التعامل مع الكافرين، ومع المؤمنين كذلك، فى صورة أخاذة.

حيث يقول جل وعلا :

{ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا * وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا }
[الآيتان ٧٥ ، ٧٦]

المعنى : قل لهم من كان فى الضلالة لاهياً، وعلى الكفر معانداً فليمدد له الرحمن مداً فليمهله إمهالاً، ولا يعاجله بالعقوبة، ليزداد طغياناً وعقوبة، ولا يظن أن هذا تكريم له.

حتى إذا جاء الوعد الحق، ورأوا ما كانوا يوعدون به إما العذاب فى الدنيا وإما الساعة وفيها يدخلون جهنم فيسعلمون ساعتها علماً حقيقياً، ولكنه لا ينفعهم من هو شر مكاناً منزلاً وإقامة وأضعف جنداً أى : أعواناً يساعدونه، وأنصاراً يدفعون عنه العذاب·؟

هم، أو المؤمنون ··؟

هذا ··

وكما أعد الله للظالمين؛ ليزدادوا عقوبة : يزيد المؤمنين هداية ومكافأة؛ حيث يقول سبحانه ويزيد الله الذين اهتدوا بالإيمان هدى ثباتاً، ويقيناً، وجزاءً حسناً على هذا الهدى.

ثم يقرر ربنا أن الأمر على خلاف ما يفهم الكفار ··

فيقول : والباقيات الصالحات وهى الأعمال الصالحة، التى تبقى لصاحبها خير عند ربك وأهلها كذلك ثواباً من أعمال الكفار وخير مرداً مرجعاً إليها، حيث يرد أصحابها إلى ربهم، ويدخلون الجنة، وأما الكفار ·· فيردون إلى ربهم، ويدخلون النار.

* * *

أيها الإخوة الكرام ..
بعد أن انتهت قصة أولئك، الذين قالوا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ٠٠!!
يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم أيضاً : أخبر بقصة هذا الكافر العجيبة كذلك.
حيث يقول له متعجباً منها :

{ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا }
[الآية ٧٧]

هذا الكافر ٠٠ أيها الأحبة الكرام يمثل نموذجاً من الناس يغترون بأموالهم وأولادهم، ويسخرون من قضية الإيمان بالبعث واليوم الآخر.
وقد حدث فعلاً : أن قال العاص بن وائل الكافر ساخراً ٠٠ لخباب بن الأرت المؤمن وهو يطالبه بدين له عليه : أنت تزعم أن هناك بعثاً وجزاءً، فإذا كان هذا اليوم حسب زعمك ٠٠ فسيكون عندى أموال وأولاد مثلما هو عندى فى الدنيا، وساعتها: سأرد إليك مالك.

* * *

ويرد الله على هذا الكافر وأمثاله قوله، ويبطل زعمه ٠٠قائلاً :

{ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا }
[الآيات ٧٨ – ٨٠]

والمعنى أ يقول ذلك، لأنه اطلع على الغيب فعرفه ٠٠؟
أم يقول لك، لأنه اتخذ عند الرحمن عهداً بأن يؤتيه مالاً وولداً ؟ فضمن ذلك ٠٠
كلا لا هذا، ولا ذاك، هو مخطئ فى كل ذلك.
وسنكتب عليه فى صحائفه ما يقول من سوء، واستهزاء، وكفر.
ونمد له ونزيد له من العذاب كما زاد فى الاستهزاء، والافتراء مداً.
ونرثه ما يقول ويتباهى به فى الدنيا، من مال وولد، ونسلبه منه ، ونعطيه لغيره، فى الآخرة ويأتينا فرداً كما ولد فرداً، لا مال له، ولا ولد معه.

* * *

أيها الأحبة فى الله ٠٠

لاحظتم معنا – أعزكم الله – أن الآيات السابقة :

أقامت الحجة على وجود اليوم الآخر.

وأبطلت منطق الكفار ٠٠ فى أن الدنيا : هى الميزان، وأن الإكرام الدنيوى دلالة على الإكرام الأخروى، لو كانت هناك آخرة ٠٠!!

تأتى الآن آيات كريمة تنقض على المشركين موقفهم فى اتخاذ آلهة من دون الله تعالى.

حيث يقول العزيز الحكيم :

{ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا }
[الآية ٨١]

أى : اتخذ هؤلاء الكفار ٠٠ من دون الله آلهة وهى الأصنام، وغيرها مما يعبدون ليكونوا لهم عزاً فى الدنيا، ونصيراً من العذاب فى الآخرة لو كانت هناك آخرة، وفيها عذاب لهم.

* * *

لا ٠٠ ليس الأمر كما يزعمون، ولا كما يودون.

{ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا }
[الآية ٨٢]

يعنى كلا لن يكونوا لهم عزاً، بل سيكفرون أى : هذه الآلهة، وينكرون عبادتهم ويكونون فى ذات الوقت عليهم ضداً يبخسونهم، لا عزاً يرفعونهم.

* * *

والعجيب ٠٠ أنهم خضعوا لشياطينهم.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا }

[الآية ٨٣]

أى : ألم تر أنا أرسلنا سلطنا الشياطين على الكافرين تغريهم بفعل المعاصى، وتؤزهم وتدفعهم على فعلها أزاً.

* * *

لا تهتم بهم، ولا تنشغل من أجلهم ٠٠

{ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا * يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا * لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا }
[الآيات ٨٤ – ٨٧]

يعنى : فلا تعجل بطلب نزول العذاب عليهم ولا تحزن لعدم نزول العذاب سريعاً بهم.
إنما نعد لهم أعمالهم للجزاء، وأنفاسهم فى الدنيا عداً ولكل أجل كتاب.
فإذا جاء أجلهم، وآجال الناس جميعاً ٠٠
وجاءت الساعة، وقامت القيامة :
يوم ها ٠٠ نحشر المتقين بسبب إيمانهم، وطاعاتهم إلى الرحمن وفداً مكرمين، راكبين، منعمين.
ونسوق المجرمين بسبب كفرهم، وعصيانهم، وندفعهم رغماً عنهم إلى جهنم وعذابها ورداً ماشين عطاشى متعبين، مهانين لا يملكون الشفاعة من غيرهم لهم، ولا منهم لبعضهم البعض، كما هو الحال عند المؤمنين إلا من اتخذ منهم قبل ذلك عند الرحمن عهداً فآمن قبل قيام الساعة ٠٠ فهذا يُشْفع له، ويَشفعُ لغيره.

* * *

هذا ٠٠
وتأتى آيات كريمة أخرى تنقض على المشركين دعواهم بأن الله يتخذ لنفسه من عباده ولداً.
قال عز وجل :

{ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا }
[الآية ٨٨]

وقالوا أى : المشركون وبعض اليهود، وبعض النصارى اتخذ الرحمن ولداً.

* * *

ويرد الله عليهم قولهم هذا ..
حيث يقول لهم :

{ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا }
[الآيات ٨٩ – ٩١]

يعنى : لقد جئتم وقلتم شيئاً إداً منكراً فظيعاً .. تحدث من هوله أحداث جسام ..

أولها : تكاد السموات يتفطرن يتشققن منه إنكاراً له.
ثانيها : تنشق الأرض أى : تكاد تنخسف الأرض من هوله.
ثالثها : تخر الجبال هدّاً أى : تسقط الجبال قطعاً.
وكل ذلك : بسبب أن دعوا أى : المشركون للرحمن ولداً ونسبوه إليه.

* * *

هذا .. والرد عليهم بمنتهى الإيجاز ..

{ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا }
[الآية ٩٢]

يعنى : و القول الفصل .. أنه ما ينبغى وما يصلح للرحمن سبحانه أن يتخذ ولداً كما يقول هؤلاء وهؤلاء.

* * *

وذلك بسبب ما يقوله رب العزة جل وعلا :

{ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا }
[الآيات ٩٣ – ٩٥]

والمراد من هذه الآيات : أنه ما من معبود لهم فى السموات والأرض كالملائكة والناس إلا وهو أتى الرحمن يوم القيامة عبداً مطيعاً.

لقد أحصاهم الله بعلمه وعدهم بقدرته عداً فهو محيط بهم.

وكلهم العابدون، والمعبودون آتيه يوم القيامة فرداً بلا مال، ولا ولد، ولا معين، ولا مدافع.

فكيف يكون الإله على هذا النحو، ويحتاج إلى اتخاذ الولد كما يزعمون٠٠؟

* * *

وبعد كل هذا ٠٠

تأتى الآيات بثلاثة أشياء ٠٠ وتنتهى هذه السورة.

الأول : البشارة للمؤمنين ٠٠ فى قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا }

[الآية ٩٦]

يعنى : سيجعل الله الود والمحبة فى قلوب الصالحين ٠٠ لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهى بشارة طيبة لهم.

* * *

الثانى : حكمة إنزال القرآن الكريم ٠٠ فى قوله سبحانه :

{ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا }

[الآية ٩٧]

يعنى : سهلنا القرآن، ويسرناه بلسانك يا محمد لتبشر به المؤمنين المتقين العاملين ٠٠ بأن لهم الجنة وتنذر به قوماً معاندين لداً أشداء فى الخصومة بالباطل ٠٠ وتخوفهم بأن لهم عذاب جهنم.

* * *

الثالث : التهديد والتخويف للكافرين ٠٠ فى قوله تعالى :

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا }
[الآية ٩٨]

يعنى : لقد أهلكنا قبلهم أهل قرون كثيرة هل تجد، وتحس منهم من أحد بقى ٠٠؟ أو هل تسمع لهم ركزاً صوتاً خفياً٠٠؟

لا ٠٠ لا هذا ولا ذاك، حيث لم يبق منهم شخص يرى، ولا صوت يسمع، إذّ كلهم هلكوا.

فليحذر هؤلاء، وكل كفار الدنيا، إلى يوم القيامة.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

طه

بسم الله الرحمن الرحيم

وهى : سورة مكية، تبدأ بالخطاب الإلهى مع النبى صلى الله عليه وسلم، وتنتهى كذلك بالخطاب الإلهى مع النبى صلى الله عليه وسلم.

وتهدف إلى ما يهدف إليه القرآن المكى ٠٠ من : ترسيخ قواعد الإيمان، وبيان أصول هذا الدين، من خلال ما تعرض له السورة من قصص ومشاهد.

وتبدأ ٠٠ بقوله تعالى :

{ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى }
[الآيات ١ – ٣]

طه من الحروف المقطعة، التى لفت الله بها أنظار العرب ليسمعوا القرآن؛ فتلزمهم الحجة، وقيل : إنها اسم لمحمد صلى الله عليه وسلم، وقيل غير ذلك.

وقال بعض الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم : إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك إلى ما أنت فيه ٠٠ فأنزل الله تعالى ٠٠

ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد ٠٠ ولذلك من يعمل بالقرآن يسعد.

ثم بين الله بعض الفوائد من إنزاله، قائلاً إلا تذكرة به لمن يخشى ربه.

* * *

وبعد ذلك ٠٠ بين المولى مصدر القرآن ٠٠ فى قوله :

{ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى }
[الآية ٤]

أى : نزل القرآن تنزيلاً من الذى خلق الأرض ومن عليها، وما عليها وخلق كذلك السموات العلى أى : العليا.

وإذا كان القرآن من هذا الإله : فيكف ينزله عليك لتشقى ٠٠؟

أبداً والله، بل لتسعد، ويسعد كذلك كل من يعمل به.

* * *

ثم بين ربنا عز وجل ٠٠ هذا الذى خلق الأرض والسموات العلى.
بقوله :

{ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى }
[الآيات ٥ – ٨]

يعنى : هو الرحمن الذى خلق الأرض والسموات العلى.

وهو :

الذى على العرش استوى استواءً ليس كمثله شىء، من غير تكييف، ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل.

والذى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما ملكاً وتصرفاً، و كذلك ما تحت الثرى وهو القشرة الأرضية، من كنوز وثروات خبأها تحت تراب أرض كل بلد، تكفيهم، بل تسعدهم، لو استخرجوها ٠٠ إلى آخر الزمان.

و الذى إن تجهر بالقول فى ذكر أو دعاء : فهو غنى عنه؛ حيث إنه يعلم السر وأخفى منه، وهو ما حدثت به نفسك، أو خطر ببالك.

وهو :

الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى التسعة والتسعون، التى وردت فى الأحاديث النبوية.

هذا هو الذى أنزل عليك القرآن ٠٠!!

هل يعقل أن ينزله عليك لتشقى ٠٠؟ أبداً ٠٠ أبداً.

* * *

أيها الأحبة فى الله ٠٠

لما عظم الله القرآن الذى أنزله ٠٠

وعظم من أنزله عليه، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠

وبين لماذا أنزله ٠٠؟

وأن ذلك كان للإنذار والتبشير، والدعوة إلى التوحيد ٠٠

أتبع ذلك بذكر قصة موسى عليه السلام؛ تقوية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم، وبياناً لوحدة الرسل والرسالات ٠٠

ولاحظوا : أن القصة تستغرق ٩٠ آية كاملة .

وهى تبدأ بقوله سبحانه :

{ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى }
[الآية ٩]

وما حديث موسى عليه السلام ٠٠؟

{ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى }
[الآية ١٠]

يعنى : وقت أن رأى ناراً وهو فى الطريق عائداً من مدين إلى مصر فقال لأهله امرأته امكثوا فى مكانكم حتى آتيكم؛ حيث إنى آنست أبصرت ناراً موقدة على بعد، وسأذهب إليها لعلى آتيكم منها بقبس شعلة نستدفئ بها من البرد أو أجد على ضوء النار هدى هداية للطريق، الذى تهنا فيه، وغابت عنا معالمه.

* * *

ووافق أهله.
وذهب موسى إلى حيث النار ٠٠

{ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى }
[الآيات ١١ – ١٣]

وهكذا ٠٠ عند النار، عرف موسى : أنه فى الوادى المقدس، وأنه فى حضرة ربه سبحانه، وأنه تم اختياره للرسالة، وعليه أن يستمع جيداً لمضمونها فيما يوحى إليه، وعليه أن يكون متواضعاً.

* * *

فماذا أوحى إليه ٠٠؟
قال تعالى :

{ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى }
[الآيات ١٤ – ١٦]

وفى هذا الذى أوحى إليه، كما هو واضح، كان التركيز على ثلاثة أمور :

الأمر الأول : التوحيد إننى أنا الله لا إله إلا أنا وهو أول واجب على كل مكلف، ولا قبول لأى شىء بدونه.
الأمر الثانى : العبادة فاعبدنى على كل حال، وفى جميع الصور، وأهم شىء فى العبادة، وأبرز شىء الصلاة وأقم الصلاة لذكرى.
الأمر الثالث : الإيمان باليوم الآخر إن الساعة آتية أكاد أخفيها ليعمل الجميع كل بما يجب، ولتجزى كل نفس بما تسعى فيه.

فلا يصدنك عنها إيماناً واستعداداً من لا يؤمن بها واتبع هواه فتتأثر به، ولا تؤمن بها، وتتبع هواك مثله فتردى تهلك.

* * *

وبعد أن بين رب العزة لموسى عليه السلام أصول الدعوة كشف له عز وجل عن قدرته سبحانه.
إذ قال له، وهو العالم بكل شىء :

{ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى }
[الآية ١٧]

وأجاب موسى :

{ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى }
[الآية ١٨]

هذا ما يعرفه موسى عن عصاه ..
ولكن .. ما يعرفه الخالق أكثر وأكثر وأكثر ..
ولذلك :

{ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى }
[الآية ١٩]

أى : ألقها من يدك على الأرض.

{ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى }
[الآية ٢٠]

نعم ‥ استجاب موسى لربه :

فألقاها من يده على الأرض فإذا هى فجأة، وفى الحال، تحولت بقدرة الله تعالى حية تسعى ثعباناً يتحرك ويتلوى.

* * *

موسى بشر ‥

خاف موسى.

{ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى }
[الآيات ٢١ – ٢٣]

أى : قال له ربه خذها بيدك ولا تخف منها؛ حيث إننا سنعيدها مرة أخرى سيرتها الأولى إلى ما كانت عليه.

وهذه آية منا وعلامة على نبوتك.

واضمم يدك اليمنى إلى جناحك تحت إبطك الأيسر، وأخرجها تخرج بيضاء اللون من غير سوء أو أذى من مرض أو خلافه، ولكن تضىء كنور الشمس.

آية أخرى منا، علامة على نبوتك.

هذا ‥

وقد أمرناك بإلقاء العصا وأخذها، وضم يدك وإخراجها لنريك بعضاً من آياتنا الكبرى الدالة على قدرتنا، والدالة على نبوتك، وإرسالنا لك.

* * *

وبعد أن حدث رب العزة موسى عليه السلام عن ذاته العلية، وبين له أصول الدعوة الإلهية، وكشف له عن قدرته ‥

يأمر تبارك وتعالى بتبليغ رسالته ‥

حيث يقول له :

{ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى }
[الآية ٢٤]

هذه هى المهمة ··

نعم ·· هذه هى الرسالة، التى يدربه الله تعالى على استعمال العصا واليد، ويريه الآيات الكبرى، من أجلها.

الذهاب إلى فرعون الطاغية ··

إنها لمهمة شاقة.

إذاً : فليتزود لها ·· بالدعاء، ومعونة الله، وبعض الطلبات.

{ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا }
[الآيات ٢٥ – ٣٥]

يا الله ··!!

لقد طلب ·· من ربه عظيماً ··!!

طلب : شرح الصدر، وتيسير الأمر، وطلاقة اللسان، ووزارة الأخ وشد الأزر، والشراكة فى الأمر، والتوفيق فى التسبيح والذكر ·· ثم أعلن العجز وفوض الأمر لله إنك كنت بنا بصيراً.

* * *

واستجاب الله دعاءه، وحقق له طلباته.

{ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى }
[الآية ٣٦]

ولأن الله يعلم أن موسى يهاب الموقف، ويستعد له غاية الاستعداد، أراد أن يؤنسه، وأن يشعره برعايته له سابقاً.

إذ قال له :

{ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى }

[الآية ٣٧]

أى : كما أنعمنا عليك الآن بتحقيق طلبات، وإجابة سؤالاتك، أنعمنا عليك مرة أخرى سابقة على هذه.

* * *

وكأن سؤالاً طرح ٠٠ متى كان ذلك ٠٠؟
فكان الجواب.

{ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى }
[الآية ٣٨]

يعنى : وقت أن أوحينا إلهاماً، أو مناماً إلى أمك حين ولدتك وكان فرعون يُقتِّل أمثالك ما يوحى فى أمرك وبخصوصك.

* * *

وكأن سؤالاً طرح ٠٠ بماذا أوحيت يا رب إلى أمى ٠٠؟
فكان الجواب :

{ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي }
[الآية ٣٩]

يعنى : أوحينا إليها ٠٠ بأمرين، وخبرين :

الأمر الأول : أن اقذفيه فى التابوت أى : ضعى موسى فى الصندوق.
الأمر الثانى : فاقذفيه فى اليم أى : ضعى التابوت فى البحر.
والخبر الأول : فليلقه اليم بالساحل أى : فسوف يلقيه البحر إلى الشاطئ بقدرتنا.
والخبر الثانى : يأخذه عدو لى وعدو له وهو : فرعون، ويكون تحت رعايتنا.
وفعلت.
وألقيت عليك محبة منى فلا يراك أحد إلا وأحبك.
ولتصنع أى : تتربى فى بيت عدوى وعدوك على عينى علامة على رعايتى لك.

* * *

وأخذوك إلى بيت فرعون ٠٠ وأنعمنا عليك مرة أخرى ٠٠
حيث حرمنا عليك المراضع.

{ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى }
[الآية ٤٠]

وهكذا ٠٠ أعدناك بقدرتنا وعنايتنا إلى أمك كى تقر عينها بك ولا تحزن عليك ٠٠ بموافقة من فرعون، وخوف من عدوك عليك.

و أنعمنا عليك كذلك مرة أخرى ٠٠
حيث قتلت نفساً خطأ وحزنت، وتبت فنجيناك من الغم الذى أصابك بسبب ذلك.
و أنعمنا عليك كذلك مرة أخرى ٠٠
حيث فتناك فتوناً ابتليناك ابتلاءات كثيرة وخلصناك منها، حتى وصلت إلى مدين فلبثت سنين هناك فى أهل مدين.

ثم أخيراً جئت فى الوقت المناسب على قدر أى : فى علمى يا موسى لتحمل الرسالة، وتبلغ الدعوة.

* * *

{ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي }
[الآية ٤١]

وهكذا ٠٠ ومن مراجعة هذه الإنعامات : ترى ٠٠ أنى اصطنعتك اخترتك لنفسى نبياً، ولدعوتى مبلغاً وناشراً.

* * *

وبعد أن أجاب الله موسى فيما طلب آنسه بتعداد النعم الإلهية عليه، وأشعره بالرعاية الربانية له، وثبت قلبه، وطمأن فؤاده.

قال له مرة ثانية :

{ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي }
[الآية ٤٢]

أى : اذهب أنت كما أمرناك سابقاً وأخوك معك، كما طلبت منا بآياتى التى أريتها لك، والتى معك ولا تنيا ولا تفترا فى ذكرى فهو سلاحكما فى مواجهة فرعون.

* * *

فرعون ٠٠؟!!
ولماذا فرعون ٠٠؟!!

{ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى }
[الآية ٤٣]

نعم ٠٠ إنه طغى فى ادعائه الألوهية، وطغى على الناس ظلماً.

* * *

ولكن كيف نكلم هذا الطاغية ٠٠؟

{ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى }
[الآية ٤٤]

أى : فقولا له ليرجع عن كفره، وطغيانه قولاً ليناً هادئاً، سهلاً، لطيفاً لعله يتذكر يتعظ، فيعرف الحق، ويعود إليه أو يخشى الله تعالى فيتوب عن كفره.

* * *

موسى بشر ٠٠
وأخوه بشر ٠٠

ولذلك : خاف موسى، وخاف هارون، من هذا الطاغية، ومن الذهاب إليه، ومن التحدث معه، حتى ولو بالكلام اللين.
ولذلك :

{ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى }
[الآية ٤٥]

ليس عيباً أن يخافا، وليس عيباً أن يعلنا خوفهما ٠٠ حتى يأخذا للأمر عدته، ويحتاطا بما يناسب الموقف.
إننا نخاف من فرعون أن يفرط علينا ويسرع فى عقوبتنا فلا نتمكن من تبليغ رسالتنا أو أن يطغى يتكبر فلا يستمع لنا.

* * *

ولم يعب ربنا عليهما خوفهما، ولا إعلان خوفهما ..
بل : ثبتهما، وكلفهما ..

{ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى }
[الآيات ٤٦ – ٤٨]

يعنى : قال الله لهما لا تخافا من فرعون، حيث إننى معكما برعايتى وعونى لكما، أنا أسمع ما يقول وتقولون وأرى ما يفعل وتفعلون، وأقدر على ما لا يقدر ولا تقدرون.
فأتياه اذهبا إليه، وادخلا عليه فقولا له :
أولاً : إنا رسولا ربك إليك.
ثانياً : فأرسل معنا بنى إسرائيل أى : اتركهم يذهبون معنا إلى الشام.
ثالثاً : ولا تعذبهم بالأذى لهم، والتكاليف الشاقة عليهم، حتى نخرج بهم.
رابعاً : قد جئناك بآية من ربك بعلامة تدل على صدقنا فى رسالتنا من الله لك.
خامساً : والسلام على من اتبع الهدى أى : ومن آمن واهتدى ٠٠ فله السلامة من عذاب الله تعالى.
سادساً : إنا قد أوحى إلينا أن العذاب من الله على من كذب الرسل وتولى وأعرض عن الإيمان ٠٠ فآمن، ولا تعرض عن ربك وتتولى.

* * *

وسمع فرعون ما قالاه ٠٠
ولم يستجب فرعون لما طلباه ٠٠!!
ولم يفكر فيما أوحى به إليهما ٠٠!!
بل :

{ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى }
[الآية ٤٩]

ليس هذا سؤال استفهام؛ ليكون الإيمان ٠٠!!
بل هو سؤال الإنكار ٠٠ يعنى ألكما رب غيرى ؟
فمن هذا ٠٠؟
وأجاب موسى سريعاً :

{ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }
[الآية ٥٠]

يبدو أن فرعون تورط فى السؤال ٠٠ فقد عرف أن ربهما : كما أجابا، يملك ما لا يملك هو، ويقدر على ما لا يقدر هو ٠٠
إذا : فليوقفهما عن إتمام الكلام.

* * *

وأوقفهما ٠٠
إذ صرفهما إلى موضع آخر ٠٠

{ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى }
[الآية ٥١]

إذا كنتم تدعوان الآن إليه ٠٠ فماذا فعلت القرون الأولى، وماذا فُعل معها٠٠؟

* * *

وفهم موسى حيلة فرعون، ورغبته فى صرفهما عن التحدث عن الله تعالى ووحدانيته، وقدرته.
ولذلك : أجاب عن هذا السؤال باختصار.

{ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى }
[الآية ٥٢]

أى : ربى هو العالم بها، ولست أنا، ولا فائدة من سؤالك.

* * *

ثم عاد سريعاً إلى الجواب عن السؤال السابق الذى طرحه فرعون فمن ربكما موسى ؟
حيث قال متمماً الإجابة.

{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى }
[الآيتان ٥٣ ، ٥٤]

أى : قال موسى لفرعون : ربى ..
هو الذى جعل لكم الأرض مهداً أى : ممهدة صالحة للحياة عليها.
و هو الذى سلك سهل لكم فيها سبلاً طرقاً، ووسائل للحياة.
و هو الذى أنزل من السماء أى السحاب ماءً.
ثم قال موسى عليه السلام : يقول ربى ..
فأخرجنا به أى بهذا الماء أزواجاً أصنافاً من نبات شتى مختلفة فى الطعم واللون والشكل والرائحة.
ثم يقول ربى لكم :

كلوا منها وارعوا أنعامكم فيها.
ثم يقول ربى لكم أيضاً :
إن فى ذلك المذكور ٠٠ من : إعطاء كل شىء خلقه، ثم هدايته إلى وظيفته، ومهمته، وجعل الأرض مهداً، وتسهيل السبل فيها، وإنزال الماء من السماء، وإخراج النبات به أزواج شتى، والأكل منه، ورعى الأنعام فيه.
لآيات دالة على توحيد الله، وقدرته الأولى النهى أى : العقول : يفهمونها، ويعتبرون بها، ويؤمنون بخالقها وهو الله.
فهلا آمنت يا فرعون ٠٠؟!!

* * *

ثم يقول ربى أيضاً :

{ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }
[الآية ٥٥]

يعنى : من هذه الأرض خلقناكم أى : خلقنا أباكم آدم من ترابها، وأنتم من أغذيتها وفيها نعيدكم إذا متم ومنها نخرجكم عند البعث تارة مرة أخرى.
ثم يكون الحساب، ثم الجزاء بالجنة أو بالنار ٠٠؟
فهلا آمنت يافرعون ٠٠؟

* * *

ويبدو أن فرعون ٠٠ لم يقتنع بهذا المنطق الواضح، ولم يواصل فيه ٠٠!!
ويبدو أن موسى عليه السلام عرض عليه تدليلاً على صدقه آية العصا، وكذلك آية اليد.
ومع ذلك : لم يؤمن فرعون.
لأن موسى عليه السلام قال :

{ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى }
[الآية ٥٦]

نعم ٠٠ كذب موسى، وأبى أن يؤمن؛ لأنه خشى من موسى أن يحدث انقلاباً سياسياً، وينتزع منه الحكم.
ولذلك : اتهمه بالسحر؛ ليقلب الأمر من دعوى دينية إلى قضية سياسية.
حيث :

{ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى }
[الآية ٥٧]

يعنى : هدفك الاستيلاء على الحكم، بهذا الأسلوب، وهو السحر.
الأمر إذا : سهل ميسور علينا ..

{ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى }
[الآية ٥٨]

يعنى : فلنأتينك بسحر مثل سحرك؛ لنثبت لك أنك ساحر، وتريد أن تخرجنا من مصر، وتستولى على الحكم فيها.
فإذا كنت موافقاً على أن نأتيك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً تختاره أنت، ونلتزم به جميعاً لا نخلفه نحن ولا أنت ويكون مكاناً سوى مستوياً ظاهراً للجميع، يرى الكل ما يجرى فيه، لنكشف أمرك على مرأى ومسمع من الناس جميعاً، فلا ينخدع بك أحد.

* * *

ووافق موسى عليه السلام على الفور.

{ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى }
[الآية ٥٩]

أى : قال لهم .. أنا موافق على ذلك، وموعدكم الذى تطلبونه : هو يوم الزينة يوم العيد، الذى يتزين له الناس، ويخرجون فيه وأن يحشر الناس يعنى : تجمعون الناس فى ضحى هذا اليوم.
ورغب موسى فى ذلك : ليرى الحق أكبرُ عدد من الناس، وأن يكون ضحى ليتحدث الناس بالحق أطول وقت ممكن من اليوم.

* * *

ووافق فرعون على ما قال موسى عليه السلام.
وأرسل أعوانه وجنوده يجمعون السحرة من أنحاء البلاد، وجمعوا له أمهر السحرة فنا، وأكثرهم عدداً.
يقول سبحانه :

{ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى }
[الآية ٦٠]

يعنى : فتولى فرعون انصرف من المجلس فجمع كيده أى السحرة الذين يكيدون له، ويهزمون موسى.
ثم أتى بهم الموعد، زماناً ومكاناً.
وأتى موسى الموعد أيضاً.

* * *

وتواجه الفريقان.
موسى عليه السلام، ومعه أخاه فقط ٠٠ وهما فى معية ربهما.
والسحرة جميعاً، ومعهم فرعون بجنوده، وحاشيته، ووعوده البراقة.
وبدأ موسى :

{ قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى }
[الآية ٦١]

يا الله ٠٠!!
فى هذا الظرف العصيب يمارس موسى دعوته، ويبلغ رسالته، ويدعو الأعداء إلى الإيمان.
لم يبدأ بإظهار الآيات ٠٠ بل بدأ بما من أجله كانت الآيات :
قال لهم موسى آمنوا بالله، ربى وربكم ويلكم وهلاكاً لكم إن لم تؤمنوا بأن ربكم الله وليس فرعون لا تفتروا على الله كذباً فتخيلوا على الناس بما تفعلون لتخدعوهم فيسحتكم يهلككم بعذاب من عنده.
وقد خاب من افترى على الله، فلا تفتروا عليه سبحانه وتكذبون.

* * *

وقد أحدثت هذه الموعظة الوجيزة البليغة القوية ٠٠ تأثيراً فى نفوسهم، وخلخلة فى صفوفهم.

{ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى }
[الآيات ٦٢ — ٦٤]

يعنى : فتنازعوا أمرهم بينهم بعد سماع هذا الكلام بين مصدق ومكذب، و لخوفهم أن ينكشف أمام الجميع نزاعهم أسروا النجوى وتهامسوا بها، وأخفوها عن الناس.

وخشى الحريصون على مرضاة فرعون، والراغبون فى القرب منه ٠٠ أن تتفرق كلمة السحرة، وأن يتمزق صفهم، فتكلموا بلسان فرعون.

قالوا لباقى السحرة : لا تهتزوا هكذا ما هذان إلا ساحران عاديان، يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما، ويستوليا على الحكم فى هذه البلاد ويذهبا بطريقتكم المثلى ويضيع سحركم، وتذهب مكانتكم، وتفقدون مكاسبكم، لأنهم يريدون الاستيلاء على كل هذا.

لذلك فأجمعوا كيدكم من السحر، ولا تختلفوا، ولا يتخلف منكم أحد، ثم ائتوا أى : اظهروا أمام الناس وأمام موسى صفًا واحداً مترابطاً.

وستكون لكم الكلمة العليا وقد أفلح اليوم من استعلى وانتصر بسحره على الآخر.

* * *

وأقبلوا على موسى عليه السلام، أمام هذه الجماهير المحتشدة المترقبة٠٠

{ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى }
[الآية ٦٥]

أى : قالوا لموسى يا موسى إما أن تبدأ أنت، وتلقى ما معك، أمام الجميع، وإما أن نبدأ نحن فنلقى ما معنا، ونكون بذلك أول من ألقى.

* * *

واختار موسى أن يبدؤا هم ٠٠

{ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى }
[الآيتان ٦٦ ، ٦٧]

يعنى : قال موسى لهم بل ألقوا أنتم ما معكم.

فألقوا ما معهم من حبال وعصى ..

فإذا حبالهم وعصيهم تهتز اهتزازاً ظاهرياً، حتى صار يخيل إلى موسى من قوة سحرهم أنها حيات تسعى تتحرك حقيقة، وإذا كان ذلك لموسى ٠٠ فما بالك بجموع الناس ٠٠؟

ولذلك ٠٠ أوجس أحسَّ فى نفسه خيفة موسى أى : خاف على الناس، أن يتأثروا بما رأوا أمامهم، فيظلوا على كفرهم، ولا يؤمنوا.

* * *

وهنا يكون التثبيت الإلهى، والطمأنة الربانية لموسى :

{ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى }
[الآيتان ٦٨ ، ٦٩]

يعنى : قلنا له لا تخف على الناس أن يتأثروا بهذا الذى فعله السحرة، حيث إنك أنت الأعلى منهم بما معك من آيات.

وألق ما فى يمينك أمامهم الآن، وسترى أنها تلقف تبتلع ما صنعوا أمام الناس؛ حيث إنهم إنما صنعوا كيد ساحر أى : مكر من جنس السحر، يكيدون به.

و على كل حال : فإنه لا يفلح الساحر حيث أتى بسحره.

* * *

وألقى موسى عصاه.
وفجأة، وأمام الجميع ٠٠ بلعت كل حبالهم وعصيهم.
وكانت المفاجأة الثانية :
يقول تعالى :

{ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى }
[الآية ٧٠]

خر السحرة ساجدين، لا لفرعون كما كانوا يفعلون، ولكن لله رب العالمين، وأعلنوها صراحة، حتى يعرف الجميع قالوا آمنا برب هارون وموسى.

* * *

ورأى الناس ما فعل السحرة ٠٠!!
وجن جنون فرعون ٠٠!!
وخاف أن تؤمن الجماهير، كما آمنت السحرة.
ونسى فرعون موسى، وما فعل.
وأقبل – شأن الطغاة جميعاً – يهدد السحرة.

{ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى }
[الآية ٧١]

أى : قال فرعون للسحرة آمنتم له بسرعة، وقبل أن آذن لكم بذلك٠٠ منتهى الاستبداد، وحبس الحريات، وكتم الأنفاس.

ثم تلفيق الاتهامات إنه لكبيركم معلمكم الذى علمكم السحر دون أن أدرى، وهذه خيانة عظمى، دبرتموها معه، وتآمرتم بها جميعاً.

ثم التهديد والتوعيد فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف اليد اليمنى مع الرجل اليسرى فى واحد، واليد اليسرى مع الرجل اليمنى فى آخر، وهكذا ولأصلبنكم فى جذوع النخل ليراكم الجميع، وتكونوا عبرة لمن يفكر فيما فعلتم، وقلتم، وعندى الزبانية التى تنفذ ذلك فيكم بلا رحمة ولا هوادة.

ولتعلمن إذاً أينا رب موسى أو أنا أشد عذاباً لكم وأبقى ألماً فيكم.

* * *

إنها تهمة هم منها برآء ٠٠
وتهديد بالعذاب، من الطاغية، شديد ٠٠!!
فهل فتنوا، ورجعوا عن إيمانهم، خوفاً من فرعون وبطشه ٠٠
أبداً ٠٠ أبداً، ولا واحد منهم.
بل :

{ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا }
[الآية ٧٢]

أعلنوا موقفهم صراحة، أمام هذا التهديد، وبكل قوة وثبات.

قالوا لفرعون لن نؤثرك نفضلك على ما جاءنا من الله مع موسى من البينات الدلائل الواضحة على وحدانية الله وقدرته ٠٠ و لن نفضلك أبداً على الله تعالى الذى فطرنا خلقنا.

على كل حال فاقض ما أنت قاض افعل فينا ما بدا لك إنما تقضى هذه الحياة الدنيا يعنى : إن ما تفعله فينا هو فى الحياة الدنيا، وسيجازينا الله على صبرنا، ويجازيك على ما تفعل فى الآخرة.

* * *

ثم واصلوا كلامهم، موضحين أمام الدنيا سبب إسلامهم.
حيث قالوا :

{ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى }
[الآية ٧٣]

يعنى : إنا آمنا بربنا سبحانه وتعالى ليغفر لنا خطايانا من الشرك، والمعاصى كلها، ويغفر لنا كذلك ما أكرهتنا عليه من السحر تعلماً، وممارسة، وكيداً لموسى عليه السلام.
والله عز وجل خير منك ثواباً لمن آمن به وأطاعه وأبقى وأدوم منك عذاباً لمن كفر به، وعصاه.

* * *

ثم واصلوا كلامهم ·· داعين لغيرهم ومنهم فرعون نفسه للدخول فى دين الله.
حيث قالوا :

{ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى }
[الآيات ٧٤ – ٧٦]

يعنى : إن من يأت ربه يوم القيامة مجرماً مشركاً كافراً عاصياً فإن له جهنم جزاءً عادلاً لا يموت فيها ولا يحيى.
ومن يأته سبحانه مؤمناً بالله ورسله قد عمل الصالحات التى ترضى الله، وتصلح البلاد، وتسعد العباد فأولئك لهم الدرجات العلى.
وهى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار ينعمون فيها، لا يخرجون منها، ولا يموتون بها.
وذلك الفضل والثواب العظيم جزاء من تزكى تطهر من الذنوب.

وهكذا ·· انتهى موقف يوم الزينة ··!!
آمن السحرة الذين كانوا فى أول النهار كفرة، ثم صاروا فى آخره، بفضل الله، دعاة بررة.

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

* * *

وأقام موسى بينهم بعد هذا اليوم مدة من الزمن يدعوهم فيها للإيمان، وقد ألقى الله الرعب فى قلب فرعون من موسى ‥ فلم يمسسه بسوء.

وطالت المدة ..

وفرعون فى طغيانه ‥ لا يؤمن.

والناس فى مادياتهم ‥ لا يؤمنون.

وأوحى الله إلى موسى أن يخرج ببنى إسرائيل من مصر، بعد هذه المدة التى عاشوها فيها بين يوسف وموسى عليه السلام.

يقول تعالى :

{ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى }
[الآية ٧٧]

يعنى : ولقد أوحينا إلى موسى قائلين أن أسر أى سر ليلاً بعبادى وهم ذرية بنى إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام.

وذلك : فى اتجاه البحر للخروج بهم من مصر.

فإذا وصلت إلى هناك فاضرب لهم بعصاك البحر وستجد طريقاً فى البحر يبساً يابساً، للسير عليه.

فسر عليه لعبور البحر، وصولاً إلى الشط الآخر لا تخاف دركاً أن يدركك فرعون ليمسك بكم ولا تخشى من البحر غرقاً لكم.

* * *

وخرج موسى ومن معه من مصر ليلاً ‥!!

وضرب البحر بعصاه ‥!! وانفلق البحر ‥!!

وسار فيه موسى ومن معه.

{ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى }
[الآيتان ٧٨ ، ٧٩]

أى : فعلم فرعون بخروجهم فأتبعهم فرعون بجنوده ليمسكوا بهم، ويعيدوهم، فوجدهم فى البحر، فتوهم – بغروره – وأوهم قومه أن البحر قد انشق له، فنزل خلفهم.

ووصل موسى ومن معه إلى البر الآخر، ونجا ومن معه.

وأما فرعون وجنوده فغشيهم وغطاهم من ماء اليم وهو البحر ما غشيهم وغرقوا، وهلكوا.

و هكذا أضل فرعون قومه عن الصواب والنجاة، شأن كل طاغية يتبعه قومه وما هدى إلى الحق والرشاد، كما يدعى ويقول ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد [غافر : ٢٩].

* * *

وخرج بنوا إسرائيل من مصر ..

ونجوا من عدوهم فرعون ..

وأقبل الله بالحديث إليهم يضع لهم منهجاً يسيرون عليه.

حيث قال :

{ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى }

[الآيات ٨٠ – ٨٢]

يعنى : يا بنى إسرائيل اسمعوا ما يلى :

أولاً : قد أنجيناكم من عدوكم فرعون بإغراقه، كما رأيتم .. فاشكروا الله، ولا تعصوه.

ثانياً : وواعدناكم جانب الطور الأيمن لنؤتى موسى التوراة، للعمل بها.. فاعملوا بها.

ثالثاً : ونزلنا عليكم المن والسلوى وأنتم فى الصحراء والتيه؛ إنعاماً منا عليكم .. فاشكروا الله، ولا تعصوه.

رابعاً : كلوا من طيبات ما رزقناكم مما أحل الله لكم، ولا تتدخلوا بالتحليل، والتحريم من أنفسكم لأنفسكم، فهذا تعد على حق الله.

خامساً : ولا تطغوا فيه أى : فيما رزقناكم به، بالإسراف، أو البطر والطغيان، أو المنع عن المستحقين منه، أو عدم الشكر للمنعم.

فاشكروا نعمى، والتزموا بمنهجى ..

وإلا فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى سقط فى النار.

ثم قال وإنى لغفار لمن تاب رجع إليه وآمن به وعمل صالحاً مرضاة لربه ثم اهتدى أى : استمر على الهداية حتى الموت.

* * *

أيها الأحبة فى الله ٠٠
عرفنا أن الله عز وجل قال لبنى إسرائيل وواعدناكم جانب الطور الأيمن٠٠
وفهمنا أن ذلك الموعد ٠٠ كان ليؤتى الله موسى عليه السلام التوراة.
وتعجل موسى للقاء الله هذا ٠٠ رغبة فى مرضاته ٠٠
وسبق قومه لهذا اللقاء، وغاب عنهم.
ووقعت لهم فتنة عقيدية خلال هذه الغيبة ٠٠
وعاتبه ربه ٠٠ قائلاً :

{ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى }
[الآية ٨٣]

يعنى : لم سبقت ٠٠ وتركت أمتك ٠٠؟ لمَ لمْ تظل معها ترعى شئونها٠٠؟

* * *

وأجاب موسى ربه :

{ قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى }
[الآية ٨٤]

أى : هم خلفى آتون حالاً يا رب.
ثم أجاب عن سبب تعجله وسبقه لهم، يقول وعجلت إليك رب لترضى يعنى شوقاً إليك، وحرصاً على رضاك.

* * *

وبين الله تبارك وتعالى لموسى نتائج تعجله، فيما حدث لقومه.
حيث :

{ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ }
[الآية ٨٥]

يعنى : أى اختبرنا مدى إيمانهم؛ إذّ أضلهم (السامرى فعبدوا العجل، خلال غيبتك عنهم، والسامرى ٠٠ واحد من بنى إسرائيل.

* * *

{ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي }
[الآية ٨٦]

أى : فرجع موسى إلى قومه بعد أن أخذ التوراة غضبان عليهم أسفاً شديد الحزن لكفرهم.
ثم خاطبهم قائلاً : يا قوم لم فعلتم ذلك ٠٠؟
ألم يعدكم ربكم على لسانى وعداً حسناً بكل خير فى الدنيا والآخرة، بعد ما أنجاكم من فرعون، ما دمتم مؤمنين به، ملتزمين بشريعته ٠٠؟ فلم أخلفتم وعدكم معى ببقائكم على توحيد الله أفطال عليكم العهد بهذا الوعد، وطالت غيبتى عنكم ..
ونسيتم بسبب ذلك إنعام الله بكم، وعهده معكم ٠٠؟
فأخلفتم وعدكم معى ببقائكم على التوحيد.
أم كان ذلك باختياركم، وأردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فيعاقبكم.
فأخفلتم موعدى معكم، بالمحافظة على إيمانكم، وتوحيد الله تعالى ٠؟

* * *

فاعتذروا إليه بما هو أقبح من ذنبهم ٠٠ حيث :

{ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ }
[الآية ٨٧]

أى : قالوا له ما أخلفنا موعدك وعهدك الذى تركتنا عليه بملكنا برغبتنا واختيارنا.
ولكنا وحدنا أننا حملنا أوزاراً وذنوباً بسبب ما أخذناه من زينة القوم أى : القبط فى مصر.
فقذفناها أى : ألقينا هذه الأشياء، وهى الحلى والمصوغات بعيداً عنا، تخلصاً من أوزارها.
فكذلك ألقى السامرى وهو واحد منا فى نفوسنا، أنها أوزار، وأنه يجب التخلص منها، ففعلنا.

* * *

ثم بين القرآن كيف أضلهم السامرى ·· بعد أن أقنعهم بالتخلص من هذا الذهب، الذى أخذوه بأمر الله لهم.
حيث يقول :

{ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا }
[الآيتان ٨٨ ، ٨٩]

يعنى : فصنع لهم السامرى من هذا الذهب عجلاً جسداً أى : مجسدا، له خوار له صوت يسمع، بسبب دقة الصنع.

فلما رأوا هذا العجل قالوا لبعضهم البعض هذا إلهكم الذى كنتم تطلبون، حيث إنهم لما خرجوا من البحر ·· رأوا قوما يعبدون أصناماً لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال لهم إنكم قوم تجهلون [الأعراف : ١٣٨].

ثم قالوا أيضاً و هو إله موسى الذى ذهب يبحث عنه.

وهكذا كذبوا على أنفسهم وكذب السامرى أيضاً ··

فنسى السامرى، ونسوا أيضاً : ربهم سبحانه وتعالى، وضلوا.

ولكن ·· كيف يعقل ذلك ··؟

أليست لهم عقول يفهمون بها، وعيون يرون بها·· أنه لا يرجع إليهم ويرد عليهم قولاً كما أنه لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ··؟

* * *

لاحظوا – أيها الأحبة الكرام – أن هذه الفتنة حدثت لبنى إسرائيل على عين هارون عليه السلام، الذى لم يقرهم عليها، ولم يسكت لهم عنها.

حيث يوضح ربنا موقف هارون بقوله :

{ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي }
[الآية ٩٠]

أى : بين لهم هارون عليه السلام ·· فساد موقفهم، وسوء فعلهم، وذكرهم بربهم، ودعاهم إلى طاعة الله، ولم يقصر فى ذلك.

* * *

ولكنهم ..

{ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى }
[الآية ٩١]

يعنى : أصروا على موقفهم، وتمسكوا بباطلهم، وقالوا لهارون : اتركنا، ولا تحاول منعنا من عبادته، فنحن لن نبرح سنظل عليه وعلى عبادته عاكفين مقيمين، لا يصرفنا عن ذلك شىء حتى يرجع إلينا موسى فننظر معه فى الأمر.

* * *

وغُلِب هارون معهم على أمره ..
ورجع موسى إليهم من لقاء ربه.
وعرف تفاصيل الموضوع.
وأخذ فى السيطرة على موقف هذه الجماعة المارقة، وعلاج هذه الفتنة الحارقة.
وألقى الألواح من يده؛ لشدة انفعاله وأخذ برأس أخيه يجره إليه [الأعراف : ١٥٠].
ثم ..

{ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي }
[الآية ٩٢ ، ٩٣]

أى : قال يا هارون ما الذى منعك حينما رأيتهم ضلوا طريق الهداية وكفروا بربهم وعبدوا العجل .. أن تلحق بى، وتأتينى فى الجبل، وتخبرنى بما فعلوا، أو تكون حازماً معهم، وشديداً فى منعهم من ضلالهم، كما كنت أفعل أنا لو كنت بينهم.

أفعصيت أمرى يا هارون، الذى قلته لك سابقاً اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين [الأعراف : ١٤٢].

* * *

وأجاب هارون ..

{ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي }
[الآية ٩٤]

أى : قال هارون لأخيه يا ابن آدم أى : يا أخى لا تأخذ وتمسك بلحيتى هكذا ولا برأسى غضباً منى، على ما فعلوه، ولم أستطع منعهم منه.

حيث إنى خشيت إن ذهبت إليك وجاء معى بالضرورة بعض من لم يعبد العجل، وبقى على التوحيد أن تقول لى فرقت بين بنى إسرائيل ففريق معك وفريق مع السامرى ولم ترقب أى : تنتظر بهم مجتمعين، وأبدى فى هذا الموضوع قولى وتصرفى.

* * *

وهكذا انتهت مواجهة موسى مع أخيه، وعتابه له، ومعرفته عذر أخيه.
ثم توجه إلى السامرى صاحب الفتنة ..

{ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ }
[الآية ٩٥]

يعنى قال له فما خطبك ما شأنك وما هذا الذى فعلت يا سامرى ؟ ولم فعلته ..؟

* * *

ورد السامرى على موسى عليه السلام :

{ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي }
[الآية ٩٦]

أى : قال السامرى :
أولاً : بصرت أى : علمت بما لم يبصروا به جميعاً، من أن الذى أنتم عليه ليس بحق.
ثانياً : أخذت قبضة من أثرك وسنتك ودينك كنت أتبعها فنبذتها وألقيتها بعيداً عن فكرى، وتركتها بعيداً عن عملى.
وكذلك سولت وزينت لى نفسى واقنعتنى بهذا.
ولم يكن هذا : اعترافاً بالخطأ، أو اعتذارًا عنه، أو توبة منه، بل كان :
تبريراً له، وإصراراً عليه.

ولذلك :

{ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا }
[الآية ٩٧]

يعنى : قال موسى عليه السلام للسامرى :

أولاً : فاذهب بعيداً عنا، مطروداً منا، وحرم موسى على القوم معاملته، أو مخالطته، أو مساكنته ٠٠ إلخ.
ثانياً : فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس أى : لك طول حياتك أن لا تقرب أحداً ولا يقربك أحد، فإذا ما اقترب منك أحد قلت له لا مساس لا تمسسنى، حيث إنه إذا مسك أصبتما بالحمى معاً.
ثالثاً : وإن لك موعداً لعذابك على ما فعلت، ولم تتب منه لن تخلفه فهو واقع بك لا محالة.
رابعاً : وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً مقيماً على عبادته، كيف أنه لا يدفع الضر عن نفسه لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم البحر نسفاً.
وتفكر ٠٠ وليتفكر الجميع ٠٠ هل هذا يصح إلهاً.
وهكذا ٠٠ انتهت مواجهة موسى عليه السلام، مع السامرى، وطرده وتهديده له.

* * *

ثم توجه إلى بنى إسرائيل الذين وقعوا فى الفتنة.
وقال لهم :

{ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا }
[الآية ٩٨]

يعنى : إلهكم ليس هذا العجل، كما صور لكم السامرى، ولكن إلهكم هو الله سبحانه وتعالى الذى لا إله إلا هو خالق الكون، ومدبر أمره، وسع ربنا كل شىء علماً.

وهكذا أيضاً : انتهت قصة موسى عليه السلام، كما عرضتها سورة طه٠٠

* * *

ويعود الحديث إلى النبى صلى الله عليه وسلم.

حيث يقول له ربنا جل وعلا :

{ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا }
[الآية ٩٩]

كذلك أى : كما قصصنا عليك يا محمد هذه القصة نقص عليك أيضاً من أبناء ما قد سبق من الأمم، والأنبياء.
وقد آتيناك من لدنا أى : من عندنا ذكراً وهو القرآن.

* * *

وهذا القرآن :

{ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا }
[الآيتان ١٠٠ ، ١٠١]

يعنى : من أعرض عنه وجاربه، أو لم يؤمن به، أو أهمله عمداً ولم يعمل به فإنه يحمل بسبب ذلك فى يوم القيامة وزراً حملاً ثقيلاً من الذنب والإثم، والعذاب عليه.
كما يكون خالدين فيه أى : فى عذاب هذا الإثم.
و حقاً حقاً ساء لهم يوم القيامة حملاً يحملونه.

* * *

هذا ..
وكأن سائلاً سأل :
ما يوم القيامة هذا ..؟
فكان الجواب بهذه الصفات :

{ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا }
[الآيات ١٠٢ – ١٠٤]

يعنى : يوم القيامة هذا له عدة صفات منها :

أولاً : أنه ينفخ فى الصور النفخة الثانية فتقوم الخلائق من قبورها.

ثانياً : ونحشر المجرمين الكافرين الطغاة فيه يومئذ تكون عيونهم زرقاً ووجوههم سوداً.

يتخافتون يتهامسون بينهم فى حسرة قائلين لبعضهم البعض ما لبثتم وعشتم وتمتعتم إلا عشراً من الليالى بأيامها فقط.

نحن أعلم بما يقولون فى ذلك، ويتخبطون فيه من هول ما يرون، ونسيان ما كانوا يتمتعون فيه، ويكفرون بسببه.

إذ يقول أمثلهم طريقة أى : أدقهم تخميناً ما لبثتم فى الدنيا إلا يوماً.

وليس الأمر بالطبع كما قالوا، وإنما قالوا ما قالوا من شدة ما يرون من الأهوال والعذاب.

* * *

هذا ..

وكأن سائلاً من هؤلاء المجرمين – لما سمع هذا الكلام عن يوم القيامة – سأل استهزاءً عن الجبال.

يقول ربنا حكاية ذلك، وجوابها، ومكملاً لأوصاف يوم القيامة.

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا }
[الآيات ١٠٥ – ١٠٧]

أى : عندما يسألونك عن الجبال أين تكون يوم القيامة ..؟

فقل لهم : هذا هو الوصف الثالث : أن الجبال ينسفها ربى يوم القيامة نسفاً أى : يفتتها فتصير كالرمل، ثم يطيرها بالرياح.

فيذرها أى : فيترك الأرض التى كانت عليها الجبال قاعاً مستوياً صلباً صفصفاً ملساء لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً لا ارتفاعاً ولا انخفاضاً، ولا شىء بالمرة نهائياً.

* * *

هذا ..

وكأن سائلاً أيضاً يسأل : وما حال الناس فى هذا اليوم ..؟

فيكون الجواب ، وذكر باقى الصفات.

فى قوله تعالى :

{ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا }

[الآية ١٠٨]

يعنى : الوصف الرابع : أنه فى هذا اليوم يقوم الناس من القبور، ويتبعون الداعى لهم إلى المحشر؛ حيث العرض على الرحمن لا عوج له أى : لا تباطؤ ولا انحراف لاتباعهم هذا، ولا لهم عن الاستجابة له إلا استجابة كاملة.

الوصف الخامس : وخشعت الأصوات فى هذا اليوم للرحمن من هيبته وخشيته فلا تسمع منهم إلا همساً فى الكلام، ووطئًا للأقدام.

* * *

هذا ..

وكأن سائلاً يسأل كذلك : هل من شفاعة تنفع فى هذا اليوم ..؟

ويكون الجواب، وذكر باقى الصفات .

فى قوله تعالى :

{ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا }
[الآية ١٠٩]

يعنى : الوصف السادس فى يومها لا تنفع الشفاعة من أحد لأحد إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يَشْفَع، أو يُشْفَع له ورضى الرحمن له قولاً بأن يكون هذا وذاك مسلماً، آمن بالله رباً، وبالإسلام ديناً.

* * *

الوصف السابع :

{ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا }
[الآية ١١٠]

أى : يعلم سبحانه وتعالى ما بين أيديهم من أمر الآخرة، وما ينتظرهم فيها وما خلفهم من أمر الدنيا، وما عملوه فيها، وهم لا يحيطون به أى هذا ولا ذاك علماً إنما العالم بالجميع والمحيط بالكل هو الله جل شأنه.

* * *

الوصف الثامن :

{ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا }
[الآية ١١١]

يعنى : فى ذلك اليوم تعنو الوجوه، أى وجوه المكلفين، وتذل للحى القيوم حيث يصير الملك والقهر لله تعالى وحده.

فى ذلك اليوم خاب وخسر، وحرم الثواب كل من حمل ظلماً وظل على كفره حتى مات، ومن أكل الحقوق مادية أو معنوية ولم يردها حتى مات.

ملحوظة هامة : روى أبو أمامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم: " اطلبوا اسم الله الأعظم فى هذه السور الثلاث : البقرة، وآل عمران، وطه".

قال الراوى : فوجدنا المشترك بين السور الثلاث : قوله تعالى الحى القيوم.

* * *

أيها الأحبة فى الله ..

لما شرح الله سبحانه وتعالى أحوال يوم القيامة، وعدد بعض صفاته : ختم الكلام فى هذا الموضوع .. ببيان أحوال المؤمنين السعداء – جعلنا الله وإياكم منهم – فقال :

{ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا }
[الآية ١١٢]

أى : بشرى للذين يعملون الصالحات، وهم على الإيمان : أنهم لا يخافون ظلماً يقع عليهم، سواء كان بعقاب دون ذنب، أو بحرمان ثواب يستحقونه ولا هضماً أى : ولا نقصاً من ثوابهم.

* * *

أيها الأحبة ..

بعد أن انتهت قصة موسى عليه السلام فى هذه السورة : قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ..

ثم كان الحديث على يوم القيامة.

ثم يعود الحديث مرة أخرى مع محمد صلى الله عليه وسلم.

حيث يقول له المولى :

{ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا }
[الآية ١١٣]

يعنى : وكـــ ما قصصناه عليك ذلك الذى سبق أنزلناه أى : القرآن قرآناً عربياً لتفهمه العرب، ويعرفوا أوامره ونواهيه، ويحسنوا العمل به، ويجيدوا نقل هديه إلى الدنيا كلها.

وصرفنا كررنا فيه من الوعيد على مخالفة أحكامه، والتحذير من إهمالها.

لعلهم يتقون الكفر، والمعاصى، ويبتعدون عنها.

أو يحدث القرآن لهم ذكراً فيعتبرون بمصارع من سبق من المعاندين.

وفى هذا ما فيه من تعظيم القرآن الكريم، والدعوة للاعتناء به.

* * *

ولما عظم ربنا تبارك وتعالى كلامه.

أتبع ذلك بتعظيم نفسه ٠٠ فقال :

{ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا }
[الآية ١١٤]

أى : فتعالى فتنزه وتقدس وتعاظم الله الملك النافذ أمره ونهيه، الذى يرجى وعده ويخشى وعيده الحق فى ملكوته وألوهيته.

وبعد هذا التعظيم : يعلم الله نبيه عليه الصلاة والسلام ٠٠ كيفية تلقى القرآن.

حيث يقول له ولا تعجل بالقرآن قراءة، لشدة حرصك من قبل أن يقضى إليك من جبريل وحيه بل أنصت وقل رب زدنى علماً به وبمعانيه، وبهديه فهمًا.

يقول الإمام النسفى: ما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلب الزيادة فى شىء إلا فى طلب العلم ٠٠ فلننتبه إلى أنفسنا ٠٠!!

* * *

هذا ٠٠

ولما قال ربنا جل وعلا لحبيبه، ومعلماً لأمته وقل رب زدنى علماً : ذكر له صلى الله عليه وسلم قصة آدم عليه السلام، الذى عهد الله إليه، وحذر من العدو ٠٠ فنسى ٠٠!!

تنبيهاً على ضعف القوة البشرية عن التحفظ من النسيان، والحذر من الأعداء ٠٠

ولذلك : فالمرء دائماً محتاج إلى الاستعانة بربه، لتحصيل العلم، وتجنب السهو والنسيان، والحذر الدائم من مكر الأعداء.

يقول تعالى :

{ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا }

[الآية ١١٥]

هذه هى المرة السادسة، التى تذكر فيها قصة آدم عليه السلام.

حيث ذكرت قبل ذلك : فى سور ٠٠ البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف.

وفى كل مرة تساق بأسلوب جديد، ولغرض جديد، يتناسب مع موضعها٠٠ وهذا لون من إعجاز القرآن بديع.

وفى هذه الآية : يذكر الله بعهده إلى أبينا آدم بعدم الأكل من شجرة عينها له فى الجنة ٠٠ ولكن آدم عليه السلام، بحكم تكوينه البشرى نسى هذا العهد، وأكل من الشجرة، بخداع الشيطان له.

يقول المولى ولم نجد له عزماً حزماً وصبراً على ما نهيناه عنه.

ولذلك : تحتاج التكاليف – أيها الأحبة – إلى صبر، وقوة.

* * *

وهذه هى القصة – كما قرأناها فى الآية الكريمة – بإيجاز ٠٠

وتفصيلها ٠٠ فيما يلى :

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى }

[الآية ١١٦]

أى : و اذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم طاعة لنا فسجدوا كلهم إلا إبليس الذى كان معهم فى ذلك الوقت، وشمله الأمر، فإنه أبى رفض، وقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين [ص : ٧٦].

* * *

وحسد إبليس آدم ٠٠

وبدأت العداوة ٠٠

وعرفنا آدم ذلك :

{ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى }
[الآيات ١١٧ – ١١٩]

يعنى : حذرنا آدم، وقلنا له إن هذا اللعين إبليس عدو لك ولزوجك فانتبه إليه، واحذر عداوته فلا تطعه، ولا تتبع وسوسته حتى لا يخرجنكما من الجنة عن طريقها فتشقى وحدك، بعد خروجكما منها، حيث تكون المسئول والعائل والمكلف بكل شىء تحتاجانه.

يا آدم إن لك منى، لو لم تطع إبليس، وتلتزم بما أمرتك به، ونهيتك عنه ألا تجوع فيها أى : فى الجنة ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها من العطش ولا تضحى من حر الشمس، حيث لا شمس فى الجنة.

* * *

وبهذا نبهناه، وحذرناه، ووعدناه ..

{ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى }
[الآية ١٢٠]

وهكذا .. تقابل وعد الله، ووسوسة الشيطان فى عقل آدم ..
وعد الله آدم : بالخلود فى الجنة، والسعادة الأبدية.
ووسوس الشيطان لآدم : بالخلود فى الجنة، ودوام الملك فيها.
والأمر واضح، والفرق بِّين .. بين من يملك التنفيذ ومن لا يملك.

* * *

ومع ذلك : لا راد لقضاء الله ..

{ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى }
[الآية ١٢١]

نعم .. نسيا وعد الله، وفتنا بوسوسة الشيطان.
فأكلا أى : آدم وحواء منها أى : هذه الشجرة.
وهنا : سقطت عنهما حلل الجنة فبدت فظهرت لهما سوآتهما عوراتهما.

وطفقا وصارا على الفور يخصفان عليهما يلصقان على عوراتهما من ورق الجنة رغبة فى الستر.
و هكذا عصى آدم ربه بمخالفة أمره ونهيه فغوى وضل عن طريق الرشاد.
لاحظوا أيها الأحباب ..
لما عصى آدم ربه : ظهرت عورته، وانكشفت سوأته.
مما يدل على أن الستر يصاحب الطاعة، وأن كشف العورات، وهتك المستور يصاحب المعصية.
اللهم استرنا بطاعتك، ولا تفضحنا بمعصيتك يا رب العالمين.

* * *

ولم يترك ربنا عز وجل آدم يغرق فى خطيئته، ويسبح فى بحار المعصية ٠٠
حيث قال :

{ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى }
[الآية ١٢٢]

ثم تعطف المولى على آدم، واجتباه وقربه إليه، وهداه إلى التوبة ٠٠ فتاب إلى الله، وندم على ما كان فتاب الله عليه وقبل منه توبته وهدى الله آدم – كذلك – إلى مداومة التوبة كلما أخطأ هو أو بنوه.

* * *

ومع هذه التوبة من آدم، ومع قبولها من الله : فإن الأمر لم يمر دون عقوبة.
إذّ إن الله تعالى :

{ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى }
[الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤]

أى : قال الله تعالى ٠٠ لآدم وذريته، أو لآدم وذريته من جهة ولإبليس وذريته من جهة أخرى اهبطا منها أى : من الجنة بعضكم لبعض عدو.
وهذ تنبيه واضح على عداوة إبليس وذريته لآدم عليه السلام وذريته، وتحذير أكيد شفوق منها.
ثم يقول ربنا لآدم وذريته فإما يأتينكم منى هدى عن طريق رسلى وكتبى ٠٠ فاتبعوه، ولا تعرضوا عنه.
فمن اتبع هداى هذا فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة.

و أما من أعرض عن ذكرى وهداى فإن له معيشة ضنكاً فى الدنيا : من الهموم، والقلق، والخوف، وفى القبر : من العذاب و فوق ذلك نحشره يوم القيامة أعمى يبعث مبصراً ثم يحشر أعمى.

* * *

هذا الكافر الأعمى فى يوم الحشر يتساءل ..

{ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا }
[الآية ١٢٥]

يعنى : لم حشرتنى يا رب أعمى الآن وقد كنت بصيراً فى الدنيا وعند البعث ..؟

* * *

ويكون الجواب :

{ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى }
[الآيتان ١٢٦ ، ١٢٧]

أى : قال المولى له .. الأمر كذلك لأنك أتتك آياتنا الدالة على وحدانيتنا، ووجوب طاعتنا، مع الرسل وفى الكتب، قبل ذلك فنسيتها أى : تركتها، عمداً أو إهمالاً وكذلك ومثل نسيانك وإهمالك لها قبل ذلك : اليوم فى الحشر تنسى أعمى إهمالاً لك، وانتقاماً منك، وتترك فى النار.

وكذلك أى : ومثل جزائنا لمن أعرض عن ذكرى نجزى كل من أسرف فى الطغيان والمعصية ولم يؤمن بآيات ربه إلى يوم القيامة.

هذا ..

ولعذاب الآخرة له أشد من هذا وأبقى ألماً وخزياً.

* * *

ولما وضح ربنا بعض أحوال من أعرض عن ذكره .. وذلك فى يوم القيامة ..!!
لفت أنظارهم إلى ما حدث لأمثالهم فى الدنيا .. علهم يهتدون، فيؤمنون..

حيث قال :

{ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى }
[الآية ١٢٨]

يعنى : أ غفل هؤلاء المعرضون عن الاهتداء بآياتى ورسلى فلم يهد يتبين لهم فيعرفوا كم أهلكنا قبلهم أى : أهلكنا قبلهم كثيراً من أهل القرون الذين عصوا ربهم وكفروا به، وعاندوا، والذين كانوا يمشون ويعيشون فى نفس مساكنهم هذه.

حقاً ٠٠ إن فى ذلك لآيات واضحات لأولى النهى العقول ٠٠ لو كانوا يفهمون، فيعتبرون، فيؤمنون ٠٠!!

وأيضاً ٠٠ إن فى ذلك لآيات لكفار مكة ٠٠ لو كانوا يعقلون ٠٠!!

* * *

ثم يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم :

{ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى }
[الآية ١٢٩]

يعنى : ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير العذاب عن كفار مكة لكان إهلاكهم لزاماً أى : لازماً لهم فى الدنيا، ولولا أجل مسمى كذلك لكل أمة بهلاكها ٠٠ لكان العذاب والاستئصال لهم فى الدنيا.

وهذه سنتنا.

* * *

وما دام الأمر كذلك :

{ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى }
[الآية ١٣٠]

تحتوى هذه الآية والآيتان بعدها : مجموعة من الوصايا والأوامر للنبى صلى الله عليه وسلم ٠٠ وقت أن كان يعانى من عناد قومه.

الوصية الأولى : الأمر بالصبر فاصبر على ما يقولون لك عناداً، وتجبراً وتكبراً، وكان هذا قبل نزول الأمر بقتالهم.

الوصية الثانية : الأمر بالصلاة وسبح بحمد ربك أى : صل لربك قبل طلوع الشمس وهى صلاة الصبح وقبل غروبها وهى صلاة العصر ومن آناء الليل ساعاته فسبح أى: صل المغرب والعشاء وأطراف النهار أى : ساعة الزوال، وهى صلاة الظهر.

وذلك : الأمر بالصبر والأمر بالصلاة لعلك ترضىْ بما يحدثه الصبر والصلاة، أو لعلك ترضى بما نعطيه لك من الثواب عليهما.

* * *

ثم يقول سبحانه :

{ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى }
[الآية ١٣١]

هذه هى الوصية الثالثة : وفيها النهى عن التطلع إلى متاع الحياة الدنيا، بما يؤدى إلى الافتنان بها ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً أصنافاً منهم زهرة الحياة الدنيا وبهجتها لنفتنهم فيه بطغيانهم.

ورزق ربك فى الجنة خير مما أوتوه فى الدنيا وأبقى أدوم نفعاً واستمتاعاً به.

* * *

ثم يقول تعالى :

{ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى }
[الآية ١٣٢]

وفى هذه الآية : نجد الوصية الرابعة : وهى متابعة الأهل فى طاعة الله وأمر أهلك بالصلاة لتنقذهم من عذاب الله واصطبر أنت عليها أداءً، ومداومة، ومتابعة لأهلك.

الوصية الخامسة : لا تجعل قضية الرزق تشغلك عن حسن عبادة الله، فنحن لا نسألك رزقاً لنفسك، ولا لغيرك، بل نحن نرزقك ونرزق غيرك.

الوصية السادسة : عليك بتقوى الله والعاقبة والنتيجة الحسنة، وهى الجنة لأهل التقوى.

* * *

ويلاحظ : أن هذه الوصايا للنبى صلى الله عليه وسلم، موجهة كذلك لأمته.

* * *

وفى نهاية السورة – أيها الأحبة فى الله – يذكر الله اقتراحاً من اقتراحات الكافرين ٠٠ ويرد عليه.
يقول تعالى :

{ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى }
[الآية ١٣٣]

يعنى : وقالوا أى : هؤلاء الكفار على النبى صلى الله عليه وسلم لولا هلا يأتينا بآية من ربه دالة على صحة نبوته ٠٠ لنؤمن به ٠٠!!

ويرد الله عليهم بقوله أو لم تأتهم آيات على ما يريدون، ومنها وأعلاها القرآن بينة أى : بيان ما فى الصحف الأولى من إهلاك الأمم السابقة لتكذيبها رسلهم.

* * *

هؤلاء يستحقون الهلاك.
ولم نهلكهم، لا إهمالاً، بل إمهالاً.

{ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى }
[الآية ١٣٤]

يعنى : ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله أى : من قبل مجىء محمد صلى الله عليه وسلم إليهم رسولاً لقالوا يوم القيامة لولا أرسلت إلينا يا رب رسولاً يدعونا للإيمان، ومعه آياتك الدالة على صدقه فنتبع هذا الرسول ونصدق آياتك من قبل أن نذل ونخزى فى هذا اليوم، كما هو الحال الآن ٠٠!!

* * *

يا محمد ٠٠ هؤلاء معاندون ٠٠

{ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى }
[الآية ١٣٥]

أى : قل لهم كل منا متربص ينتظر ما يحدث للآخر فتربصوا بنا ما شئتم فستعلمون فى النهاية من أصحاب الصراط السوى الطريق المستقيم ومن اهتدى من الضلالة.
نحن، أو أنتم ٠٠!!

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

المؤمنون

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد ..

فهذه سورة المؤمنون المكية ..

والتى روى عن عمر بن الخطاب بخصوصها أنه قال :

كان إذا نزل على رسول الله الوحى .. نسمع عند وجهه كدوى النحل ، فأنزل عليه يوماً .. فمكثنا ساعة، فسرى عنه، فاستقبل القبلة، فرفع يديه ، فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا.

ثم قال : لقد أنزلت على عشر آيات .. من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ قد أفلح المؤمنون الآيات.

وفيها يقول تعالى :

{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ }

[الآيات ١ — ١٠]

والمعنى : قد أفلح وفاز المؤمنون بالله ورسوله وكتابه، الموصوفون بمجموع هذه الصفات :

الأولى : الخشوع فى الصلاة الذين هم فى صلاتهم خاشعون لله.

الثانية : الإعراض عن اللغو والذين هم عن اللغو من الكلام وغيره معرضون عن المشاركة فيه، والتسبب له، بل عن حضوره أيضاً.

الثالثة : أداء الزكاة والذين هم للزكاة فاعلون أى : مداومون على أدائها.

الرابعة : حفظ الفروج والذين هم لفروجهم عوراتهم، رجالاً كانوا أو نساءً حافظون عن الحرام إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم من الإماء فإنهم غير ملومين فى إتيانهن فمن ابتغى أى : طلب قضاء شهوة وراء ذلك أى فى غير الزوجة والأمة فأولئك هم العادونالمتعدون المعتدون على ما حرم الله.

الخامسة : حفظ الأمانات والعهود والذين هم لأماناتهم جميعها، سواء كانت بينهم وبين الله، أو بينهم وبين الناس وعهدهم أى : وعهودهم، كذلك راعون أى : حافظون، وقائمون عليها، ومؤدون لها.

السادسة : المحافظة على الصلوات والذين هم على صلواتهم يحافظون يؤدونها كاملة، تامة، فى أوقاتها.

يقول ربنا سبحانه عن هؤلاء أولئك الموصوفون بهذه الصفات : هم الوراثون لا غيرهم.

* * *

ولكن ..

الوارثون لماذا أيها الأحبة ..؟

يقول سبحانه :

{ الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
[الآية ١١]

يعنى : هؤلاء هم الوارثون الذين يرثون الفردوس وهو أعلى وأعظم الجنان.
هم فيها فى جنة الفردوس خالدون لا يتحولون عنها، ولا يخرجون منها، ولا يموتون فيها.
اللهم اجعلنا منهم، وأسكنا معهم يا رب العالمين.

* * *

واعلم أيها الحبيب .. أن الله تعالى لما وصف المؤمنين بهذه الصفات : كان ذلك .. طلباً لها منهم، وتكليفاً لهم بها.
والاشتغال بها، والتحصيل لها: عبادة.
ولأن العبادة لا تصح إلا بعد معرفة الإله الخالق.
فقد جاء سبحانه بأربعة أنواع من الدلائل على وحدانيته، ووجوده، وقدرته، وعظمته سبحانه.
حيث قال فى النوع الأول :

[وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ }
[الآيات ١٢ – ١٦]

فى هذه الآيات الكريمة : دليل على وحدانية الله وقدرته وعظمته، من خلال تقلب الإنسان فى أطوار خلقه، وهى تسعة أطوار.
وبيانها على النحو التالى :

الطور الأول : خلق الإنسان من سلالة من طين ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين.
الطور الثانى : جعله نطفة فى قرار مكين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين أى : نطفة من الأب، تصير ثابتة فى رحم الأم.
الطور الثالث : تحويل وخلق النطفة علقة ثم خلقنا النطفة علقة قطعة دم جامدة، تتعلق بجدار الرحم.
الطور الرابع : تحويل وخلق العلقة مضغة فخلقنا العلقة مضغة أى : قطعة لحم، قدر ما يمضغ.
الطور الخامس : تحويل وخلق المضغة عظاماً فخلقنا المضغة عظاماً.
الطور السادس : تكسية العظام باللحم فكسونا العظام لحماً.

الطور السابع : تحويل هذا الخلق خلقاً آخر مختلف عنه تماماً ثم أنشأناه خلقاً آخر حيث صار حيواناً بعد أن كان جماداً، وناطقاً بعد أن كان أبكماً ٠٠ إلى غير ذلك مما هو معروف ومشاهد.

لذلك يقول سبحانه فتبارك الله أحسن الخالقين.
الطور الثامن : الموت بعد ذلك ثم إنكم بعد ذلك لميتون.
الطور التاسع : البعث والإحياء والإعادة مرة أخرى ثم إنكم يوم القيامة تبعثون.

* * *

ثم يقول ربنا عز وجل فى النوع الثانى ٠٠ من الدلائل على : وحدانيته، ووجوده، وقدرته، وعظمته سبحانه :

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ }
[الآية ١٧]

يعنى : ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق أى : سبع سموات، وسميت السموات طرائق ٠٠ لأنها طرق الملائكة.
وما كنا عن الخلق الموجودين تحتها غافلين عنها وعنهم، حتى لا تسقط عليهم فتهلكهم، بل يمسكها الله بقدرته، آية من آياته.
وهى آية تستحق الشكر الدائم لله الواحد القادر سبحانه وتعالى.

* * *

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى فى النوع الثالث ٠٠ من الدلائل على : وحدانيته، ووجوده، وقدرته، وعظمته سبحانه :

{ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ }
[الآيات ١٨ – ٢٠]

يعنى : وأنزلنا لكم من السماء أى : السحاب ماءً تشربون منه، وتنتفعون به بقدر أى : بمقدار تسلمون معه من الضرر، وتصلون به إلى المنفعة، فى الزرع، والغرس، والشرب ٠٠ إلخ.
فأسكناه فى الأرض وجعلناه ثابتاً فى جوفها، وعلى ظهرها.

وإنا على ذهاب به لقادرون فتموتون مع دوابكم عطشاً ٠٠ ولكنا لا نفعل لطفاً بكم، وعطفاً عليكم.
بل أبقينا الماء ساكناً فى الأرض ٠٠
فأنشأنا لكم به جنات بساتين من نخيل وأعناب وكذلك لكم فيها أى فى الجنات فواكه كثيرة تأكلونها.
ومنها أى : من الجنات تأكلون أى : تتخذون حرفاً تتعايشون منها.
وكذلك : أنشأنا لكم بالماء شجرة وهى شجرة الزيتون تخرج من طور سيناء وهو أول مكان ظهرت فيه شجرة الزيتون ثم نقلت إلى غيره ٠٠ تنبت بالدهن الذى هو زيتها و الذى هو صبغ إدام للآكلين.
وكل ذلك آيات ٠٠ تستحق الشكر الدائم لله الواحد، القادر سبحانه وتعالى.

* * *

ثم يقول ربنا جلت حكمته فى النوع الرابع ٠٠ من الدلائل على : وحدانيته، ووجوده، وقدرته، وعظمته سبحانه :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾
[الآيتان ٢١ ، ٢٢]

فى هاتين الآيتين الكريمتين : دليل على وحدانية الله وقدرته ٠٠ من خلال الأنعام ٠٠ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ودلالة على وحدانيته سبحانه.
وذلك : من أربعة أوجه :

الوجه الأول : نسقيكم مما فى بطونها من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين [النحل : ٦٦].
الوجه الثانى : ولكم فيها منافع كثيرة وهى حية.
الوجه الثالث : ومنها تأكلون وهى مذبوحة.
الوجه الرابع : وعليها وعلى الفلك تحملون أى : هى فى البر مثل السفن فى البحر، فى النفع لكم، والحمل لأغراضكم.
وكل ذلك : آيات ٠٠ تستحق الشكر الدائم لله الواحد، القادر، سبحانه وتعالى.

* * *

أيها الأحبة ٠٠
لما بين ربنا دلائل توحيده ٠٠
أتبع ذلك بذكر مجموعة من القصص للأنبياء الداعين لوحدانية الله.
وكانت القصة الأولى ٠٠ قصة نوح عليه السلام.

يقول سبحانه :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ }
[الآية ٢٣]

أى : ولقد أرسلنا نوحاً برسالتنا إلى قومه يدعوهم فيها إلى توحيد الله وعبادته.
فقال لهم يا قوم اعبدوا الله وحده وأطيعوه ما لكم من إله غيره يستحق أن يعبد.
أفلا تتقون غضبه، وعقوبته، حينما تعبدون غيره ٠٠؟

* * *

ماذا كان ردهم عليه، وإجابتهم له ٠٠؟

{ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ }
[الآيتان ٢٤ ، ٢٥]

يعنى : فقال الملأ أي : السادة الذين يتصدرون القوم، ويملئون العيون إبهاراً، والذين كفروا من قومه للعامة منهم، ردَّاً على دعوته لهم ٠٠ خمسة أشياء :

الأول : ما هذا الذى يدعوكم إلا بشر مثلكم وليس ملكاً، وهو يريد بدعوته هذه أن يتفضل عليكم ويصبح رئيساً لكم.
الثانى : ولو شاء الله إيمانكم به لأنزل لكم ملائكة يدعونكم إلى هذا الإيمان، الذى يدعيه.
الثالث : ما سمعنا بـــ مثل هذا وهو أن يكون الرسول بشراً فى آبائنا الأولين.
الرابع : إن هو أى نوح عليه السلام إلا رجل وليس برسول به جنة أى : مجنون، حينما يزعم أن الله اختصه وحده بهذه الرسالة.
الخامس : فتربصوا به أى : انتظروا واصبروا عليه فترة، حتى يفيق من جنونه، وإلا فاقتلوه.
لاحظوا أيها الأحبة ٠٠ أنه ليس فيما ذكروه رد حقيقى على دعواه لهم.
بل كلها استهزاء به، وتكذيب له، وتهديد إليه.
وهى عادة الطغاة مع الدعاة ٠٠ فى كل العصور.

* * *

ولكن ..
ماذا فعل نوح عليه السلام .. ؟

{ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ }
[الآية ٢٦]

أى : لجأ إلى ربه، وطلب عونه، ونصرته.

* * *

أتدرون ماذا كانت نتيجة دعائه ..؟
استجاب الله له ..
يقول سبحانه :

{ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ }
[الآيات ٢٧ – ٢٩]

يعنى : فأوحينا إليه أن اصنع الفلك وهى السفينة بأعيننا تحت رعايتنا وحفظنا لك ووحينا وأمرنا وتعليمنا لك صنعتها.

فإذا جاء أمرنا بالعذاب والإغراق لأعدائك وفار التنور أى تفجر الماء من العيون.

فاسلك فيها أى : أدخل فى السفينة من كل صنف من أصناف المخلوقات زوجين اثنين ذكر وأنثى.

و أدخل فيها كذلك أهلك ومن معك من المؤمنين والمؤمنات إلا من سبق عليه القول من الله بالإهلاك منهم وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله ، فلا تدخلهم.

و بعد ذلك لا تخاطبنى وتسألنى فى نجاة الذين ظلموا وكفروا، حيث إنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر.

فإذا استويت راكباً أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من مصير القوم الظالمين الذين يغرقون.

و أيضاً قل إذا خرجت منها بعد انتهاء الطوفان، وجفاف الماء رب أنزلنا منزلاً مباركاً فيه : كثرة النسل، وتتابع الخيرات وأنت وحدك خير المنزلين فاختر لنا ما تراه خيراً يا رب العالمين.

* * *

حقاً ..

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ }
[الآية ٣٠]

إى : إن فى ذلك الصنيع من نوح للسفينة، والطوفان، وإهلاك الظالمين، ونجاة المؤمنين لآيات دالة على صدق الأنبياء فيما دعوا إليه، ودالة على توحيد الله وقدرته.
و كذلك .. هى اختبارات للعباد إن كنا لمبتلين لنعرف من يؤمن ومن يكفر، فننجى من يؤمن، ونهلك من يكفر.

***

ثم كانت القصة الثانية .. وهى قصة هود عليه السلام.
يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ }
[الآية ٣١]

أى : ثم خلقنا من بعدهم أى من بعد قوم نوح قرنا آخرين أى : أهل قرن آخرين، وهم : عاد قوم هود.

* * *

{ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ }
[الآية ٣٢]

يعنى : فأرسلنا فيهم رسولاً وهو هود عليه السلام منهم وليس من غيرهم ..
فقال لهم أن اعبدوا الله وحده وأطيعوه ما لكم من إله غيره يستحق أن يعبد.
أفلا تتقون غضبه وعقوبته، حينما تعبدون غيره ..؟

* * *

فماذا كان ردهم عليه، وإجابتهم له ٠٠؟

{ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ }
[الآيات ٣٣ – ٣٥]

يعنى : وقال الملأ أى : السادة، الذين يتصدرون القوم، ويملئون العيون إبهاراً من قومه وهم :
الذين كفروا بالله تعالى.
وكذبوا بلقاء الله فى الآخرة وهى يوم القيامة.
وأترفناهم ونعمناهم فى الحياة الدنيا بكثرة الأموال والأولاد ٠٠
قالوا ٠٠ أمرين :
الأول : إنكار النبوة ٠٠حيث قالوا :
ما هذا الذى يدعوكم إلا بشر مثلكم وليس ملكاً، كما أنه يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون منه.
و على هذا لئن أطعتم بشراً مثلكم وآمنتم بإله واحد إنكم إذاً لخاسرون.
الثانى : إنكار البعث.
حيث قالوا : أيعدكم هود أنكم إذا متم وكنتم بعد الموت تراباً وعظاماً بالية أنكم مخرجون مرة أخرى، للحساب والسؤال والثواب والعقاب.
أبداً ٠٠ أبداً

***

{ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ }
[الآيات ٣٦ – ٣٧]

يعنى : وقال الملأ أى : السادة، الذين يتصدرون القوم، ويملئون العيون إبهاراً من قومه وهم :
الذين كفروا بالله تعالى.
وكذبوا بلقاء الله فى الآخرة وهى يوم القيامة.
وأترفناهم ونعمناهم فى الحياة الدنيا بكثرة الأموال والأولاد ٠٠
قالوا ٠٠ أمرين :
الأول : إنكار النبوة ٠٠حيث قالوا :
ما هذا الذى يدعوكم إلا بشر مثلكم وليس ملكاً، كما أنه يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون منه.
و على هذا لئن أطعتم بشراً مثلكم وآمنتم بإله واحد إنكم إذاً لخاسرون.
الثانى : إنكار البعث.

حيث قالوا : أيعدكم هود أنكم إذا متم وكنتم بعد الموت تراباً وعظاماً بالية أنكم مخرجون مرة أخرى، للحساب والسؤال والثواب والعقاب.

أبداً ٠٠ أبداً

هيهات هيهات بعيد بعيد لما توعدون به من البعث والحساب والثواب والعقاب.

ولكن الحقيقة التى نؤمن بها، ولن نحيد عنها.

إن هى ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا أن يموت بعضنا ويولد غيره، يذهب أناس ويأتى غيرهم، هكذا وما نحن إذا متنا بمبعوثين كما يقول.

* * *

ولذلك ٠٠ فحكمنا عليه ٠٠ ما يلى :

{ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ }
[الآية ٣٨]

يعنى : إن هو ما هو إلا مجرد رجل افترى على الله فيما يدعيه، ويدعو إليه كذباً ولم يرسله أحد.

و بالتالى ما نحن له بمؤمنين ولا لدعوته بمتبعين.

ولاحظوا أيها الأحبة ٠٠ أنه ليس فى كل ما ذكروه، وما حكموا به : رد حقيقى على دعواه لهم.

بل كلها : استهزاء به، وتكذيب له، وتهديد إليه.

وهى : عادة الطغاة مع الدعاة ٠٠ فى كل العصور.

* * *

ولكن ٠٠ ماذا فعل هود عليه السلام ٠٠؟

{ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ }
[الآية ٣٩]

أى : لجأ إلى ربه، وطلب عونه ونصرته.

* * *

أتدرون – أيها الأحبة فى الله – ماذا كانت نتيجة دعائه ..؟
استجاب الله دعاءه .. حيث :

{ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ }
[الآية ٤٠]

يعنى : بعد قليل سينزل بهم العذاب، فإذا ما عاينوه، صاروا نادمين.
ولكنه .. ندم عقيم، لا يفيد.

* * *

وبالفعل ..

{ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٤١]

أى : نزل بهم العذاب فأخذتهم الصيحة من جبريل عليه السلام بالحق بالعدل، الذى يستحقونه؛ نتيجة كفرهم وطغيانهم.
فجعلناهم بهذا العذاب غثاءً أى : دمرهم حتى صاروا مثل ما يحمله السيل من الورق الجاف وغيره.
فبعداً وهلاكاً للقوم الظالمين الكافرين.

* * *

ثم كانت القصة الثالثة .. وهى على سبيل الإجمال لعدد من الأنبياء.
يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ }
[الآيات ٤٢ – ٤٤]

يعنى : ثم أنشأنا خلقنا من بعدهم وهم قوم عاد قرونا أى : أهل قرون آخرين مع أنبيائهم.

وكان لكل أمة أجل وموعد تأتى فيه ما تسبق من أمة أجلها بأن تموت أو تهلك قبله وما يستأخرون عنه كذلك.

ثم أرسلنا رسلنا إليهم تترى متتابعة، واحداً بعد واحد؛ يدعونهم إلى توحيد الله، وعبادته.

والعجيب ٠٠ أنه كان كلما جاء أمة منهم رسولها ودعاهم إلى توحيد الله وعبادته كذبوه وعاندوه وحاربوه.

فـ أهلكناهم، وأتبعنا فى الهلاك بعضهم بعضاً.

و كذلك جعلناهم فى أفواه التاريخ أحاديث يرويها الناس لبعضهم البعض.

ولأنهم ظلموا، ولم يؤمنوا، ولم يتبعوا رسلهم.

فبعداً من رحمة الله، وهلاكاً لقوم لا يؤمنون.

* * *

ثم تكون القصة الرابعة ٠٠ وهى قصة موسى وأخيه هارون، عليهما السلام.

يقول الواحد الأحد سبحانه :

{ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ }

[الآيات ٤٥ – ٤٨]

يعنى : ثم أرسلنا من جهتنا موسى وأخاه هارون بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، وهى العصى، واليد، وغيرهما وسلطان مبين أى : حجة واضحة قوية ٠٠

إلى فرعون وملائه الذين يتصدرون الناس، ويملئون العيون إبهاراً ٠٠ يدعوهم إلى توحيد الله، وعبادته، وطاعته.

فماذا فعلوا ٠٠؟

يقول تعالى :

فاستكبروا أى : امتنعوا عن الإيمان، والاعتراف بوحدانية الله، وقدرته ٠٠ تكبراً منهم، وعناداً، وترفعاً.

وكانوا بطبيعتهم قوماً عالين مترفعين على الحق، غير مذعنين له.

ولأنهم كانوا كذلك :

فـقد قالوا لقومه؛ ليصرفوهم عن الإيمان أنؤمن لبشرين مثلنا وليسوا ملائكة، و أيضاً قومهما بنو إسرائيل لنا عابدون خاضعون مطيعون.

فـ على هذا ٠٠ كذبوهما ولم يؤمنوا.

فاستحقوا العذاب.

فعذبهم الله بالإغراق.

فكانوا بهذا من المهلكين.

ونجى الله موسى وقومه من فرعون وقومه.

* * *

ثم يقول تعالى :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ }
[الآية ٤٩]

أى : ولقد آتينا موسى بعد نجاته بقومه من فرعون الكتاب الذى هو التوراة، فيه تشريعات وهداية لبنى إسرائيل.
وكان ذلك لعلهم يهتدون به، فيعبدون الله، ويطيعونه.

* * *

ثم تأتى القصة الخامسة ٠٠ وهى : قصة عيسى ومريم عليهما السلام.
يقول ربنا سبحانه وتعالى :

{ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ }
[الآية ٥٠]

يعنى : وجعلنا ابن مريم عيسى عليه السلام وأمه عليها السلام آية دالة على وحدانيتنا وقدرتنا؛ حيث خلق من غير نطفة؛ وهى ولدت من غير لقاء.
وآويناهما وأوصلناهما إلى ربوة مرتفع من الأرض، يحتميان بها ذات قرار يستقران عليها، ويستريحان فيها، ويعيشان على ثمار أشجارها ومعين ماء طاهر عذب، يشربان منه.

* * *

وبعد ٠٠
فيقول تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ }
[الآيتان ٥١ – ٥٢]

والمعنى : يا أيها الرسل وهذا النداء والخطاب، وإن جاء فى الآية بلفظ الجمع ٠٠ إلا أنه فى التنفيذ نودى كل رسول على حدة، وخوطب بقوله ٠٠

كلوا أنت وقومك من الطيبات الحلال واعملوا صالحاً يرضى الله تعالى، ويصلح البلاد، ويسعد العباد.

ولا تخالفوا أوامرى ٠٠

حيث إنى بما تعملون عليم به، أجازى عليه.

أيضاً ٠٠

وإن هذه أى : ملة الإسلام أمتكم يا معشر الرسل والأقوام أمة واحدة ملة واحدة، وشريعة واحدة.

فاتقون فخافوا عقابى، ولا تختلفوا حولها، ولا تتنازعوا فيها.

* * *

أتدرون أيها الأحبة الكرام ٠٠ ماذا كانت مواقف أقوام الرسل ٠٠ أمام هذا النداء الإلهى ٠٠؟

يقول المولى :

{ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ }
[الآية ٥٣]

أى : فـــ اختلفوا، وتقطعوا أمرهم أى : أمر دينهم بينهم زبراً وجعلوه قطعاً، أى : أدياناً، وصاروا بالتالى فرقاً وأحزاباً.

وحرفوا بهذا : دين الله.

والعجيب ٠٠ أنه كان كل حزب بما لديهم مما فعلوه حسب هواهم من الدين فرحون لأنهم معتقدون أنهم على الحق وحدهم.

* * *

وبذلك ٠٠ عم الضلال، وانتشر الباطل، وتوارى صحيح الدين، فعبدت الأصنام، وحورب التوحيد.

حتى وصل ذلك إلى كفار مكة.

ولذلك يقول ربنا لمحمد صلى الله عليه وسلم :

{ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ }
[الآيات ٥٤ – ٥٦]

هذا الكلام – أيها الإخوة – وإن كان لمحمد صلى الله عليه وسلم، إلا أنه يدخل فيه التوجيه لكل الدعاة المستضعفين أمام الطغاة المعاندين، فى كل العصور.

والمعنى : فذرهم أى : فاتركهم، بعد أن دعوتهم، وأنذرتهم فى غمرتهم أى : جهالتهم وعنادهم حتى حين يقتلوا فيه أو يموتوا.

لقد اغتروا ..

أيحسبون أنما نمدهم به ونعطيهم إياه من مال وبنين فى هذه الدنيا .. نسارع لهم فى الخيرات لحبنا لهم، وكرامتهم عندنا ..؟

كلا .. وألف كلا ..

نحن لا نفعل ذلك لهذا الذى يظنون .. إنما هو استدراج لهم ؛ لزيادة عذابهم على عدم شكرهم، وإيمانهم ..

بل لا يشعرون بذلك ؛ لأنهم بلا عقول يفهمون بها.

* * *

وإذا كان هؤلاء فى غمرتهم يعمهون، ويحسبون أننا نسارع لهم فى الخيرات، وهم فى الحقيقة لا يشعرون، ولا يعرفون الصواب.

فهذه هي صفات الذين يسارعون فى الخيرات حقيقة.

{ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ }
[الآيات ٥٧ – ٦١]

تذكر هذه الآيات الكريمة صفات المؤمنين الذين يسارعون فى الخيرات، وهى أربع صفات :

الأولى : أنهم من خشية عذاب ربهم مشفقون خائفون، دائمون فى طاعته، جادون فى مرضاته سبحانه.

الثانية : أنهم بآيات ربهم الدالة على وحدانيته وقدرته، ومن مسطوره ومنظوره يؤمنون يصدقون.

الثالثة : أنهم بربهم لا يشركون معه أحداً فى خلقه، ولا فى عبادته.

الرابعة : أنهم يؤتون يعطون ما آتوا من الصدقة والأعمال الصالحة وقلوبهم وجلة خائفة أن لا تقبل منهم؛ لأنهم يوقنون أنهم إلى ربهم راجعون وسيحاسبهم، ولن يقبل منهم إلا ما كان خالصاً لوجهه سبحانه.

حقاً .. أولئك هم الذين يسارعون فى الخيرات والأعمال الصالحة مرضاة لله تعالى، وهم لها بالفعل سابقون فى نوال جزائها الطيب من الله تعالى.

* * *

واعلموا جيداً .. أيها الأحبة فى الله .. أن هذه الصفات الأربع التى نرجو الله تبارك وتعالى أن يعيننا على التحلى بها : هى فى مقدور الإنسان، وليست فوق طاقته، كما أن ثوابها لا يضيع أبداً.

يقول تعالى :

{ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ }

[الآية ٦٢]

يعنى : ما كلف به الإنسان، وطولب به من العمل الصالح .. هو فى طاقته وإمكاناته التى أودعها الله فيه؛ حيث لا نكلف نفساً إلا وسعها.

أيضاً : لدينا كتاب تسجل فيه أعمال العبد، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها [الكهف : ٤٩].

هذا الكتاب ينطق بالحق الذى فيه أعمال العباد.

وهم لا يظلمون بضياع شيء منه أو إخفاء شيء فيه، ولا زيادة عليه، ولا نقصان منه.

* * *

وهذا الكلام .. يصدق على المؤمنين، وعلى الكافرين.

والمؤمنون : يعلمونه، ويؤمنون به.

أما الكافرون ..

فيقول عنهم الحكيم الخبير :

{ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ * حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ }

[الآيتان ٦٣ ، ٦٤]

يعنى : بل قلوبهم وهم الكافرون على غير ما عليه قلوب المؤمنين؛ إذ هى فى غمرة غفلة من هذا القرآن وما فيه، مما ينفعهم.

و كذلك لهم أعمال سيئة من دون أى : غير ذلك المذكور من أعمال المؤمنين، ومضادة لها هم لها عاملون وعلى أدائها مستمرون، معاندون.

حتى إذا أخذنا مترفيهم أغنياءهم، ورؤساءهم، المنعمين فيهم بالعذاب إذا هم جميعاً يجأرون يصرخون، ويستغيثون.

* * *

وساعتها .. يقال لهم :

{ لاَ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لاَ تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ }
[الآيات ٦٥ – ٦٧]

أى : لا تجأروا لا تصرخوا ولا تستغيثوا بنا اليوم حيث إنكم منا لا تنصرون ولا من أحد غيرنا.

يا هؤلاء .. قد كانت آياتى فى القرآن، الدالة على وحدانيتى وقدرتى تتلى عليكم رجاء إيمانكم بها، وطاعتكم لربكم فكنتم :

أولاً : لا تؤمنون وعلى أعقابكم أدباركم تنكصون ترجعون بدون إيمان للوراء، لا عن عيب فى هذا القرآن، ولا عن عدم فهم لآياته؛ إذ هو بلسان عربى مبين.

ثانياً : بل كنتم مستكبرين به أى : متكبرين بالواقع الذى كنتم عليه، وهو أنكم أهل البيت والحرم عن قبول الحق الذى فى القرآن.

ثالثاً : وكنتم تتخذون القرآن سامراً لكم تسمرون به وتتحدثون عنه فى مجالسكم وسهراتكم، كما كنتم تهجرون بفحش القول فيه.

* * *

وبعد أن وصف الله حالهم .. من : أنهم كانت تتلى عليهم الآيات، فلا يؤمنون، بل على أدبارهم ينكصون، مستكبرين، وأنهم يتخذون القرآن لهواً وسمراً، فيه يهجرون ويفحشون.

بين عز وجل أن ذلك الموقف .. لابد أن يكون منهم لواحد من هذه الأمور التالية :

حيث يقول :

{ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ }
[الآيات ٦٨ – ٧٢]

يعنى : أ وقفوا هذا الموقف، فكفروا؛ لواحد من هذه الأمور.

أولها : أنهم لم يدبروا القول وهو القرآن، فيستدلون به على صدق النبى صلى الله عليه وسلم ..!!

ثانيها : أم لأنه جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين وطبعاً هم على آثارهم مقتدون ٠٠ فلذلك : ينكرون ٠٠؟

ثالثاً : أم لأنهم لم يعرفوا رسولهم محمداً بالصدق والأمانة والشرف ٠٠ فهم له بناءً على عدم المعرفة المفترض منكرون لرسالته؟

رابعها : أم لأنهم، يكذبون، ويقولون به جنة أى : أصابه مس من الجنون، فهو يهذى بهذا الكلام، وليس برسول.

لا ٠٠ لا.

لا هذا ٠٠ ولا ذاك.

بل قد جاءهم بالحق وهو القرآن، المشتمل على دعوتهم للتوحيد، وطاعة الله، واتباع شرائع الإسلام.

و لكن أكثرهم لهذا الحق كارهون ومتبعون لأهوائهم.

و حقيقة لو اتبع الحق أهواءهم هذه لفسدت السموات والأرض ومن فيهن لتعدد الأهواء، وتعارض الرغبات.

بل الحق الذى لا مرية فيه، ولا خفاء حوله ٠٠ أنا أتيناهم بذكرهم أى القرآن ، الذى فيه ذكرهم وشرفهم وعزهم، لو آمنوا به، وعملوا بما فيه.

فهم عن ذكرهم معرضون منصرفون مبتعدون.

خامس هذه الأمور التى قد يكونون بسببها كافرين ٠٠ ما فى قوله تعالى :

أم لأنك يا محمد تسألهم خرجاً أى : أجراً ومكافأة على دعوتك لهم فهم من مغرم مثقلون [الطور : ٤٠ ، القلم : ٤٦].

إن كانوا يظنون ذلك : فـ أعلمهم أن خراج ربك خير لك من خراجهم، وأنه سبحانه خير الرازقين وليسوا هم برازقين.

طبعاً ٠٠ ليس لهم عذر فى واحد من هذه الأمور التى ذكرت، يجعلهم يقفون من آيات الله هذا الموقف ٠٠!!

ولكنه الجهل، والعناد ٠٠

* * *

{ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }

[الآية ٧٣]

نعم ٠٠ وإنك فى حقيقة الأمر، وواقعه لتدعوهم إلى صراط مستقيم وهو الإسلام؛ لتنقذهم من عذاب أليم، وترشدهم إلى جنات النعيم.

* * *

ولكن ٠٠ ما باليد حيلة كما يقولون.

اقرأ معى ٠٠ يا أخى المؤمن.

{ وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ }
[الآية ٧٤]

يعنى : هم لا يستجيبون، ولا يؤمنون؛ لعدم إيمانهم باليوم الآخر.
وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من بعث وحساب، وثواب وعقاب عن الصراط المستقيم، وهو الإسلام لناكبون لمنحرفون.

* * *

ومن عجائب الأمور ٠٠ ما يقوله رب العزة عنهم :

{ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }
[الآية ٧٥]

يعنى : ولو استجبنا لهم ، ورحمناهم حينما يجأرون ويصرخون من شدة العذاب وكشفنا عنهم ما نزل بهم من ضر حينما يستغيثون بنا ٠٠!!
أتدرون ماذا يفعلون ٠٠؟
الجواب :
للجوا أى : استمروا وتمادوا فى طغيانهم واستكبارهم وعنادهم، وعدواتهم للنبى صلى الله عليه وسلم يعمهون يترددون.

* * *

وفعلاً ٠٠
كما يقول تعالى :

{ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ }
[الآيتان ٧٦ ، ٧٧]

أى : ولقد أخذناهم وابتليناهم فى الدنيا بالعذاب وهو المصائب والنوازل والكوارث؛ ليؤمنوا ٠٠!!

فماذا كان موقفهم ..؟

أتدرون ..؟

إنهم ما استكانوا أى : ما خضعوا لربهم إيماناً وما كانوا يتضرعون له بالدعاء، والسؤال؛ تكبراً وعناداً.

وظلوا كذلك على كفرهم وعنادهم ..

حتى إذا فتحنا عليهم باباً من العذاب ذا عذاب شديد أكثر إيلاماً وإيذاءً إذا هم فيه مبلسون آيسون من رحمة الله ؛ لعدم إيمانهم به سبحانه.

* * *

أيها الفضلاء الأعزاء ..

لما بين ربنا عز جل مبالغة الكفار، فى الإعراض عن القرآن، ورؤية الدلائل على وحدانية الله، والاعتبار بقدرته ..!!

قال لجميع الخلق – تقريعاً وتوبيخاً للكافرين، وتذكيراً بالنعم للمؤمنين.

أولاً :

{ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ }
[الآية ٧٨]

أى : فاستعملوها فيما خلقت له، واشكروا الله عليها .. فإن من لم يستعملها : فقد صار كمن عدمها، ومن لم يشكر : صار كمن جحد فضل خالقها.

* * *

ثم قال ثانياً :

{ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }
[الآية ٧٩]

أى : فاعمروها، وأصلحوا فيها، وأسعدوا عباد الله عليها، وما دمتم إليه تحشرون فى النهاية، فاستعدوا بطاعة الله لهذا اللقاء فى يوم البعث ..

* * *

ثم قال ثالثاً ورابعاً :

{ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ }
[الآية ٨٠]

أى : وهو الذى يحيى ويميت وحده؛ لأنه هو الذى خلق الموت والحياة [الملك : ٢] وهو الذى يبعثكم، ويحاسبكم، ويجازيكم ٠٠ فانتبهوا لذلك واستعدوا له.

كذلك وله وحده القدرة على اختلاف الليل والنهار.

أفلا تعقلون وتتفكرون فى هذه الأشياء، وتعتبرون بها ٠٠!!

فتؤمنون ٠٠ أيها الكافرون ٠٠

وتشكرون ٠٠ أيها المؤمنون ٠٠

هذا ٠٠ ولقد ازداد المؤمنون بها إيماناً ٠٠

وهم يشكرون من فضل الله عليهم.

* * *

وأما الكافرون ٠٠ فيقول عنهم ربنا ٠٠

{ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ }
[الآيات ٨١ – ٨٣]

يعنى : بل انصرف الكافرون عن التفكير، والتعقل، والاعتبار بما فى آيات الله هذه من دلائل توحيده، وخرجوا عن الموضوع إلى موضوع آخر.

حيث قالوا مثل ما قال الأولون من الكافرين الذين سبقوهم.

ولكن ٠٠

ماذا قال الأولون ٠٠؟

قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ٠٠؟

إن هذا لا يعقل، ولن يكون ٠٠!!

يعنى : أنكروا البعث.

وهؤلاء : ينكرون البعث مثلهم إذاً.

وهذه مصيبتهم الأولى :

المصيبة الثانية : أنهم قالوا لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا أى البعث بعد الموت من قبل.

وهذا ليس بحقيقة.
بل الحقيقة ٠٠ أن هذا الكلام ما هو إلا أساطير الأولين وحكاياتهم التى اختلقوها، وليس عليها من دليل.

* * *

ويرد الله عز وجل على هؤلاء الذين ينكرون البعث، ويعبدون الأصنام، ويقولون عنها ٠٠ إنها تقربنا إلى الله : بثلاثة أشياء، يأمر الحبيب صلى الله عليه وسلم أن يقولها لهم.
الأول :

{ قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ }
[الآيتان ٨٤ ، ٨٥]

يعنى : قل لهم واسألهم لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون فأجيبونى؟
وسيجيبونك.
سيقولون لله ٠٠
عظيم.
قل لهم إذا أفلا تذكرون ٠٠ وتعرفون أن من قدر على خلقها من العدم قادر على إعادتها، وبعث من فيها ٠٠؟
أفلا تؤمنون به، وتوحدونه ٠٠؟!!

* * *

الثانى :

{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ }
[الآيتان ٨٦ ، ٨٧]

يعنى : قل لهم واسألهم من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟
إن كنتم تعلمون ٠٠ فأجيبونى ٠٠
وسيجيبونك ٠٠
سيقولون لله ٠٠
عظيم ٠٠

قل لهم إذا أفلا تتقون غضب الله ٠٠ وتقرون أن هذا الرب العظيم قادر على البعث والإعادة، وأنه سيحاسب، وسيجازى.

أفلا تؤمنون به، وتوحدونه ٠٠؟!!

* * *

الثالث :

{ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ }
[الآيتان ٨٨ ، ٨٩]

يعنى : قل لهم واسألهم من بيده وتحت قدرته ملكوت ملك كل شيء ٠٠؟

و قل لهم أيضاً واسألهم من هو الذى يجير يغيث من يشاء ممن يشاء ولا يجار عليه أى : ولا يغيث أحد منه أحداً ٠٠؟

إن كنتم تعلمون فأجيبونى ٠٠!!

وسيجيبونك ٠٠

سيقولون لله ٠٠!!

عظيم ٠٠

قل لهم إذا فأنى تسحرون تخدعون، عن الحق، وعن توحيد الله وعبادته ٠٠!!

أفلا تؤمنون به، وتوحدونه ٠٠!!

* * *

يقول عن هؤلاء ربنا سبحانه :

{ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ }
[الآية ٩٠]

يعنى : بل أكثر من هذا استدلالا على التوحيد والقدرة؛ حيث أتيناهم بالحق الذى هو القرآن، وما فيه من آيات كثيرة.

وإنهم مع كل ذلك لكاذبون مكذبون.

* * *

ثم يرد الله عز وجل على الجاعلين لله شريكاً من ولد أو صنم.
وذلك بالدليل القاطع ..
حيث يقول سبحانه :

{ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }
[الآيتان ٩١ ، ٩٢]

يعنى : لم يتخذ الله لتفسه ولداً، كما يقول القائلون بذلك ..
وما كان معه من إله يشركه فى ملكه وحكمه ..
وما يقوله كل فريق من هؤلاء باطل.
إذّ لو كان ما يزعمونه صحيحاً لذهب كل إله بما خلق واستبد به، وانفرد عن الآخر.
وبالتالى : حدث النزاع بينهما، أيهما المالك القادر ..!!
ولعلا بالضرورة بعضهم على بعض ولغلب بعضهم بعضاً.
وبما أنه لم تظهر آثار هذه المنازعات، والمغالبات : فهو بالقطع إله واحد، وهو الله، الذى بيده ملكوت كل شيء.

سبحان الله المنزه عما يصفون من الأولاد والأنداد عالم الغيب ما يغيب عن المخلوقات والشهادة ما يشاهدونه .. فتعالى وتنزه عما يشركون ويقول الظالمون الجاحدون.

* * *

ثم يخاطب ربنا حبيبه صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب الذى يدخل معه فيه كل مسلم.
حيث يقول له :

{ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي القَوْمِ الظَّالِمِينَ }
[الآيتان ٩٣ ، ٩٤]

أى : رب عن كان ولابد أن ترينى ما تعد به هؤلاء العصاة الطغاة الكافرين من العذاب .. فافعل ما شئت، ولكن لا تجعلنى قريناً لهم، ولا تعذبنى بعذابهم.

* * *

ثم يطمئن المولى حبيبه صلى الله عليه وسلم، بهذا الخطاب – كذلك – الذى يدخل فيه معه كل مسلم ٠٠
حيث يقول له :

{ وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ }
[الآية ٩٥]

يعنى : وإنا على أن نريك ما نعدهم به من العذاب، فى الدنيا أو فى الآخرة، مع نجاتك منهم، وعدم عذابك معهم، كما طلبت لقادرون.

* * *

وبعد ذلك ٠٠

يرشد المولى جلت حكمته وتعالت عظمته، محمداً صلى الله عليه وسلم، ومعه أيضاً كل مسلم إلى ما فيه حسن المعاملة ٠٠

حيث يقول له :

{ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ }
[الآية ٩٦]

أى : ادفع إساءتهم لك بالتى هى أحسن منك، قولاً وفعلاً، حيث إن ذلك مطلوب مع الخلق كلهم ٠٠ ما لم يؤد إلى نقصا دين أو مروءة.

نحن أعلم بما يصفون ويقولون وسنجازيهم عليه.

وهذا بالنسبة لبنى الإنسان.

* * *

وأما لبنى الشيطان : فيقول المولى مرشداً ٠٠

{ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ }
[الآيتان ٩٧ ، ٩٨]

أى : ادفع إساءتهم، ووسوستهم لك باللجوء إلى الله، والاستعاذة به عز وجل منهم وقل رب أعوذ بك من أمرين :

أولهما : همزات الشياطين وهى كيده، ووسوسته.

ثانيهما : أن يحضرون أى : مجرد حضورهم.

كل ذلك : ليسلم من أذاهم، وينجو من شرهم.

لاحظوا أيها الأحبة فى الله أن الإحسان إلى المسيء، ودفع السيئة بالحسنة ٠٠ أمر فيه صعوبة على النفس، والشيطان يستغل هذه الثغرة فى الإنسان.

لذلك : كانت آيات الاستعاذة من الشيطان، بعد آيات الإحسان إلى الإنسان، لنتعلم منها : أن هذا السلوك يحتاج إلى قوة فى النفس، واستعاذة من الشيطان.

* * *

ثم ينبه ربنا جل وعلا إلى ضرورة المسارعة والإكثار من العمل الصالح، قبل فوات الأوان.

حيث يقول :

{ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }

[الآيتان ٩٩ – ١٠٠]

يعنى : يظل المرء فى غفلته ولهوه حتى إذا جاء أحدهم الموت ورأى مقعده من النار، أو مقعده من الجنة، ساعة الاحتضار ٠٠!!

قال رب ارجعون إلى الدنيا مرة أخرى لعلى أعمل صالحاً فيما تركت وضيعت من عمرى.

وهنا ٠٠ يجيبه المولى بقوله كلا أى لا رجوع.

ثم يقول إنها كلمة أى رب ارجعون هو قائلها متحسراً نادماً، لا يسكت عنها، ولا ينال الرجوع بها.

ومن ورائهم أى : أمامهم بعد الموت برزخ حاجز يمنعهم من الرجوع إلى يوم يبعثون أي : يوم القيامة.

* * *

{ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ }

[الآية ١٠١]

يعنى : فإذا نفخ فى الصور يوم القيامة لبعثهم من مرقدهم، وبعثوا فلا أنساب بينهم يومئذ تنفعهم؛ لزوال التراحم والتعاطف، من فرط الحيرة، واستيلاء الدهشة، والفزع، ولا يتساءلون إذّ يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه [عبس : ٣٤-٣٧].

* * *

وساعتها ..
تختلف أحوال الناس، ويختلف مصيرهم.

{ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }
[الآية ١٠٢]

أى : فمن ثقلت موازينه بالحسنات، منهم .. فأولئك هم المفلحون الفائزون بالجنة، ورضوان الله.

* * *

{ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ }
[الآية ١٠٣]

أى : ومن خفت موازينه بسبب السيئات والكفر منهم .. فأولئك الذين خسروا أنفسهم وضيعوها، وأصبح مصيرهم فى جهنم خالدون فيها، لا يخرجون، ولا يموتون.

* * *

وعندما يقتربون منها ويدخلونها :

{ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ }
[الآية ١٠٤]

يعنى : تلفح تحرق وجوههم النار عندما يقتربون منها، و عندما يدخلونها هم فيها كالحون عابسون، حرقت شفاههم، وانكشفت أسنانهم.

* * *

ثم يقال لهم تبكيتاً وتوبيخاً ..

{ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ }
[الآية ١٠٥]

يعنى : أ أهملتكم، ولم تكن آياتى من القرآن تتلى عليكم وفيها دعوتكم لتوحيدى، وتخويفكم من غضبى وعذابى ..؟

لا .. لم أهملكم، بل أرسلت إليكم رسولى بآياتى.

فكنتم له تعاندون، وبها تكذبون.

أليس كذلك ..؟

* * *

أتدرون – أيها الأحبة فى الله – ما جوابهم ..؟

{ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ }
[الآيتان ١٠٦ ، ١٠٧]

أى : أنهم أقروا واعترفوا بأن السيئات كتبت عليهم، وأنهم كذبوا.

ولكنهم تعللوا بقولهم ربنا غلبت علينا شقوتنا أى غلب علينا شقاؤنا بأعمالنا السيئة، التى عملناها.

و بذلك كنا قوماً ضالين عن الحق، ضائعين عن الصواب.

وقد بقى عندنا الأمل فى النجاة مما نحن فيه.

ربنا أخرجنا منها الآن فإن عدنا إلى الكفر والتكذيب والعمل السيء فإنا ظالمون لأنفسنا، فعذبنا.

* * *

فيكون الجواب :

{ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِياً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ }
[الآيات ١٠٨ – ١١١]

يعنى : قال لهم اخسئوا فيها أى : اسكتوا سكوت مذلة وهوان وحقارة ولا تكلمون بعد ذلك فى رفع العذاب عنكم، أو تخفيفه.

وفعلاً .. لا يتكلمون بعدها أبداً، ولا يكون منهم إلا الشهيق والزفير.
ثم يقول لهم القوى العزيز :
إنه كان فريق من عبادى وهم المؤمنون يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين.
فلم تؤمنوا مثلهم، ولم تقولوا قولهم.
بل اتخذتموهم سخرياً أى : مادة لسخريتكم واستهزائكم، وعبثكم حتى أنسوكم من سخريتكم بهم ذكرى.
وكنتم كذلك منهم ومن إيمانهم، ومن عبادتهم تضحكون وتسخرون.
بالطبع أنتم تعرفون أن ما أنتم فيه نتيجة لذلك.
هل تريدون معرفة ما حدث لهؤلاء الذين كنتم تسخرون منهم ..؟
إنى جزيتهم اليوم خيراً بما صبروا بسبب صبرهم عن المعصية، وصبرهم على الطاعة.
حقاً .. أنهم هم الفائزون بالسعادة، والسلامة، والنجاة من النار، والفوز بالجنة.

* * *

أيها الأحبة فى الله ..
بعد أن بين رب العزة استحالة رجوعهم إلى الدنيا، كما سألوا : يذكرهم بما لبثوا فيها على كفرهم.

{ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ }
[الآية ١١٢]

أى : كم لبثتم وعشتم فى الدنيا من السنين ..؟

* * *

{ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العَادِّينَ }
[الآية ١١٣]

أى : قالوا مجيبين : لبثنا ومكثنا وعشنا فى الدنيا، يوماً أو بعض يوم فقط ..
لا .. لا ندرى بالتحديد فاسأل العادين أى : الملائكة الذين كانوا يحصون علينا ويكتبون كل شيء.
وقد قالوا ذلك : من هول ما هم فيه من العذاب، الذى أذهب عقولهم، وطال عليهم.

* * *

وهنا .. يكون الجواب القوى الواضح.

{ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ * وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ }

يعنى : قال لهم : حقاً ٠٠ ما لبثتم فى الدنيا إلا قليلاً بالنسبة لما أنتم فيه مقيمون لو أنكم كنتم تعلمون علماً يفيدكم.

ثم يوبخهم على غفلتهم وكفرهم بالبعث قائلاً :

أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً بلا غاية وأنكم إلينا لا ترجعون للحساب والثواب والعقاب ٠٠؟!!

فتعالى الله الملك الحق عن هذا العبث الذى قد تظنون لا إله إلا هو وحده رب العرش العظيم سبحانه.

لو آمنتم به قبلاً، لنجوتم الآن فعلاً.

و هكذا من يدع مع الله إلهاً آخر ويعبده لا برهان له به ولا برهان لأحد على ألوهية غير الله : فإنما حسابه وجزاؤه عند ربه فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

حقاً ٠٠ إنه لا يفلح الكافرون.

* * *

وفى نهاية السورة يعلمنا ربنا سؤال المغفرة والرحمة ٠٠

قوله :

{ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ }

[الآية ١١٨]

أى : قل ضارعاً رب اغفر لى، وللمؤمنين وارحم نى، والمؤمنين.

أنت أهل لذلك.

وأنت أرحم الراحمين وأفضل الغافرين.

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا إنك رءوف رحيم [الحشر : ١٠].

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النور

هذه سورة : مدنية.
وهى تبدأ بداية فريدة ٠٠ تدل على مدى اهتمام القرآن الكريم بالعنصر الأخلاقى فى الحياة، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته فى العقيدة الإسلامية، وفى فكرة الإسلام عن الحياة.
وذلك فى : إعلانها القوى، وتقريرها الحاسم، وفرضها الواضح ٠٠ لكل ما فيها من : حدود، وتكاليف، وآداب، وأخلاق.
حيث يقول تعالى :

{ سورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }
[الاية ١]

يعنى : هذه سورة من القرآن أنزلناها نحن وفرضناها أى : أوجبنا ما فيها من الأحكام.
وأنزلنا فيها آيات دالة على توحيد الله وقدرته بينات واضحات.
لعلكم تذكرون تتعظون، فتعملون بأحكامها وآدابها.

* * *

وفى بداية أحكامها ٠٠ يقول ربنا سبحانه :

{ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ }
[الاية ٢]

والمعنى : الزنية والزانى البكران اللذان لم يتزوجا فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة حداً لهما على جريمة الزنا.
هذا ٠٠

ولا تأخذكم بهما رأفة أى : شفقة وتهاون فى تنفيذ دين الله أى : حكمه وشرعه .. إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فالتزموا، ونفذوا ما أمرتم به، على الوجه المطلوب.

أيضاً .. وليشهد أى : يحضر عذابهما جلدهما طائفة عدد من المؤمنين المصدقين بالله تعالى.

* * *

حكم آخر :

{ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }
[الاية ٣]

الآية الكريمة : في التنفير من الزنا ، وتبشيع أمره ، والإبتعاد عن أهله .. حيث إن ...

الزاني لا يرغب عادة أن ينكح يتزوج إلا زانية أو مشركة إذ الشرك مثل الزنا.

والزانية كذلك لا ترغب عادة أن ينكحها أي : يتزوجها إلا زان أو مشرك.

وحرم ذلك أي : الزنا على المؤمنيناالأخيار ، كما هو محرم على غيرهم .

***

وبعد أن وضح الله حد الزنا، ونفَّر عنه ..

قال :

{ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }
[الاية ٤]

أى : والذين يرمون يقذفون بالزنا المحصنات العفيفات ثم لم يأتوا على ما قالوه بأربعة شهداء يشهدون أنهم رأوا عملية الزنا هذه : فهى تهمة باطلة، ويترتب عليها لصاحبها ما يلى :

أولاً : جلد القاذف ثمانين جلدة فاجلدوهم ثمانين جلدة.

ثانياً : رد شهادته ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً.

ثالثاً : الحكم عليهم بالفسق وأولئك هم الفاسقون أى : الخارجون عن طاعة الله، المؤذون لعباد الله.

* * *

ثم يقول تعالى :

{ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الاية ٥]

يعنى : إلا الذين تابوا من هؤلاء القاذفين، وذلك بعد إقامة الحد عليهم، بجلدهم ثمانين جلدة وأصلحوا عملهم، وسلوكهم فإن الله غفور لذنبهم رحيم بهم.

حيث : يرد لهم اعتبارهم، ويزول وصفهم بالفسق، وأما شهادتهم : فقد قيل تقبل، وقيل لا تقبل.

وفى هذا : تربية للمسلم ٠٠ على التريث الكامل فى أقواله، والحفاظ على لسانه ؛ صيانة لمجتمعه.

* * *

المؤمنون الكرام، والمؤمنات الفاضلات.

إذا كان ما قلناه فى قذف الأجنبيات، فما الحكم فى قذف الزوجات ٠٠؟

يقول تعالى :

{ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ }
[الآيتان ٦، ٧]

أى : والذين يرمون يقذفون أزواجهم بالزنا ولم يكن لهم شهداء أربعة، يشهدون أنهم رأوا عملية الزنا هذه.

وفى هذه الحالة : لا نقول إنها تهمة باطلة؛ حيث لا شهود، ولا نقول إنها صحيحة وهى بلا شهود.

فما العمل إذن ٠٠؟

يكون اللطف من الله، وتشريع لهذه الحالة جديد، يسمى " باللعان ".

وهو : أن يتلاعن الزوجان، أى : كل واحد يلعن نفسه إن كان كاذباً.

وكيفية ذلك توضحها الآيات الكريمة.

ونبدأ بالزوج.

فشهادة أحدهم على نفسه، ليثبت صدقه، فيما قذف به زوجه، ولا بينة عنده عليه ٠٠ هى أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنا، وذلك ٠٠ بدلاً من الشهود الأربعة.

والخامسة وهى شهادة زائدة، يقول بعدها أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رمى به زوجته من الزنا.

فهل ينتهى الأمر على هذا ٠٠؟
لا ٠٠
لابد أن تتاح الفرصة للمرأة، لتدافع عن نفسها ٠٠ إن كانت مظلومة ٠٠

* * *

حيث يقول سبحانه وتعالى :

{ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ }
[الآيتان ٨، ٩]

يعنى : و الذى يدرأ يدفع عنها العذاب وهو حد الزنا ٠٠ أن تشهد أربع شهادات بالله إنه أى زوجها، الذى رماها بالزنا لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا.
والخامسة وهى شهادة زائدة ، تقول بعدها أن غضب الله عليها إن كان زوجها من الصادقين فيما رماها به من الزنا.

* * *

وبهذا ينتهى اللعان بين الزوجين، وهو حكم جديد خاص بهما، وهو فضل من الله تعالى عليهما، بل فضل من الله تعالى على المسلمين.
حقاً :

{ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ }
[الآية ١٠]

أى : ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم لما كان هذا الحكم، ولفضحكم وأن الله تواب يقبل من التائبين حكيم فى تشريعاته.

***

أيها الأحبة فى الله ٠٠

بعد أن تحدثت الآيات عن أحكام رمى المؤمنات العفيفات بالزنى ..
وبعد أن تحدثت كذلك عن أحكام رمى الأزواج لزوجاتهن إذا حدث ..
نتحدث عن حادثة الإفك والكذب على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ..
حيث يقول تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ }
[الآية ١١]

فى هذه الآية : يقول تعالى ..
إن الذين جاءوا بالإفك أى : اختلقوا هذه الكذبة الشنيعة على السيدة عائشة، حينما سبقها الجيش، دون أن يشعروا بغيابها من مكانها لقضاء حاجتها، ثم لحق بها إليهم رجل من خيار المسلمين .. ولما رآها وهى تلحق بهم ضعاف النفوس، ومنافقو العقيدة : تحدثوا فى شأنها بما لا يليق بمكانها، ولا بمكانتها من العفة والطهارة.
وحدثت الشائعات، التى روج لها شياطين الإنس والجن.
ثم برأها الله تعالى بهذه الآيات الكريمة.
إن الذين جاءوا بالإفك الكذب عصبة جماعة منكم، لا تجزعوا يا مؤمنون، لا تفزعوا، لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم بما نزل معه من أحكام وتشريعات، وبراءات لبيت النبوة، ورب ضارة نافعة.
ولكن لكل امرئ منهم وهم الذين تحدثوا به، وأشاعوه جزاء ما اكتسب من الإثم فى ذلك.
والذى تولى كبره منهم بأن اختلقه أصلاً، وعمل جاداً وبهمة على إشاعته له عذاب من الله عظيم وهو المنافق عبد الله بن أبى بن سلول.

***

وهكذا .. انتهت قصة الإفك إجمالاً.
ولكن دروسها وعبرها، وتربياتها لم تنته.
حيث يقول تعالى :

{ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ }
[الآية ١٢]

أى : هل ظننتم خيراً .. حين سمعتم هذا الكذب، ونفيتموه، وكذبتموه ؟
وفى ذلك درس للأمة كلها : أن يحسن المؤمنون والمؤمنات الظن بأنفسهم، ولا يدعوا للشيطان مدخلاً لديهم، ولا للظن السيئ طريقاً إليهم.
وفى الحديث : إياكم والظن .. فإن الظن : أكذب الحديث [رواه البخارى.

وفيه كذلك : حسن الظن : من حسن العباده [رواه أبو داود].

* * *

ثم يقول تبارك وتعالى :

{ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ }
[الآية ١٣]

يعنى : هلا جاءوا عليه، قبل إشاعته بأربعة شهداء كما علمتهم هذه السورة فى آياتها السابقة ..!!
فإذ لم يأتوا بالشهداء وبالفعل لم يأتوا؛ لأنه ليس عندهم شهود؛ لأنه لم يحدث شيء أصلاً .. فأولئك عند الله هم الكاذبون المستحقون عذابه.
وفى ذلك : تنبيه للمسلم أن لا يهدف بما لا يعرف، ولا يتهم إلا ببينة.

* * *

ثم يقول سبحانه :

{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ }
[الآية ١٤]

أى : لولا فضل الله عليكم يا من أخطأتم، ورحمته بكم فى الدنيا بإمهالكم لتتوبوا والآخرة بالعفو عنكم : لمسكم فى ما أفضتم فيه من هذا الكذب عذاب عظيم يهون بجانبه التوبيخ لكم، وإقامة الحد عليكم.
وفيه : دعوة للتعرض لفضل الله ورحمته، بحسن الأدب، وكثرة الطاعات.

* * *

ثم يقول :

{ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ }
[الآية ١٥]

يعنى : اذكروا حين كنتم تستقبلون هذا الكذب ٠٠ لا بأسماعكم، ولا بعقولكم، ولكن بألسنتكم ولم تفكروا – بالتالى – فيه، ولو فكرتم لعرفتم أنه كذب محض.

و لذلك كنتم، تقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وأنتم – فى ذات الوقت – تحسبونه هيناً وهو فى واقع الأمر عند الله عظيم.

وفى ذلك : دعوة لكل مسلم ٠٠ أن يستعمل عقله، وأن يحفظ لسانه إلا من ذكر الله، أو قول صادق فيه.

ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً [الإسراء : ٣٦].

وفى الحديث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقى لها بالاً : يهوى بها فى جهنم [رواه البخارى].

* * *

ثم يقول :

{ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ }
[الآية ١٦]

يعنى : حينما سمعتم هذا الكلام ٠٠ هلا قلتم فوراً ما يكون لنا أن نتكلم بهذا الكلام، على ساحة بيت النبوة.

وقلتم سبحانك هذا بهتان عظيم لا ينبغى أن يسمع، ولا أن يقال.

وفيه : دعوة لأن ينزه المؤمن ساحة أخيه المؤمن من كل ما يسيء إليه، وأن لا يتكلم عليه إلا بخير، بل عليه أن يرد غيبته.

ففى الحديث : من رد عن عرض أخيه : رد الله عن وجهه النار يوم القيامة . [رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن].

* * *

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }
[الآيتان ١٧ ، ١٨]

أى : لا تعودوا لمثل هذا الذنب ٠٠ قذفاً، أو استماعاً، أو نشراً وإشاعة أبداً ما دمتم أحياء إن كنتم مؤمنين حريصين على مرضاة الله.

والله عز وجل يبين لكم الآيات الواضحات ‥ بالأحكام والشرائع والآداب ؛ ليقيكم شر الوقوع فى المهالك.
والله عليم بما ينفعكم حكيم فى شرعه لكم.
وهذا : يدفع المسلم إلى البحث فى شرع الله، عن الحكم والأسرار، التى تعينه على طاعة الله.

* * *

ثم يقول جل ذكره :

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }
[الاية ١٩]

يعنى : إن الذين يحبون أو يرغبون، أو يساعدون أن تشيع الفاحشة إخباراً عنها، أو دعوة لها، أو ممارسة ‥ فى الذين آمنوا، أو فى مجتمعاتهم.

لهم عذاب أليم فى الدنيا بحقارة القدر، وهوان النفس، وإقامة الحد عليه لو كان شهود.

ولهم كذلك عذاب أليم في الآخرةإن لم يتوبوا قبل موتهم.

وفي ذلك : أن من يحب إشاعة الفاحشة ، فضلا عن من يشيعها فعلا أو يأمر بإشاعتها ، أو يساعد على ذلك ، أو يرضى – على الأقل – بإشاعتها ‥ في الذين آمنوا، وبين صفوفهم، وفى بيوتهم، وفى شوارعهم، ومنتدياتهم، ومجتمعاتهم، بنفسه، أو بأية وسيلة من الوسائل : فجرمه كبير، وعقابه عند الله عظيم.

* * *

ثم يقول تبارك وتعالى :

{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ }
[الاية ٢٠]

أى : ولولا فضل الله عليكم يا مؤمنون ورحمته بمن أخطأ منكم حيث تاب على من تاب، وطهر بالحد من أقيم عليه الحد ‥ لكان أمر آخر لا تحمد عقباه لكم.

وأن الله بذلك رءوف بعباده رحيم بهم.

وبهذا ‥ انتهت قصة الإفك تفصيلاً.

ولكن بقيت دروس منها ‥ على قدر كبير من الأهمية للمسلمين ومجتمعاتهم.

* * * ثم يقول تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٢١]

يعنى : يا أيها الذين آمنوا إن هذه الكذبة التى كانت والفتنة التى تربت عليها – إنما هى من عمل الشيطان : فاحذروا ولا تتبعوا خطوات أى : وساوس الشيطان ويأمر به من أقوال السوء والأفعال الذميمة.

لأنه من يتبع خطوات الشيطان : يقع فى الضلال والعصيان ثم يهلك.

حيث إن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر.

هذا ٠٠ ولولا فضل الله ورحمته بتحذيركم منه، وتنبيهكم لعدواته وخطره ما زكى منكم من أحد أبداً.

ولكن الله بفضله ورحمته يزكى من يشاء من خلقه، وينقذه من الضلال والهلاك.

والله سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم ، ونواياهم، ومن يستحق الهداية منهم، ومن يستحق الإضلال.

وفى هذا : تنبيه لعداوة الشيطان، وتحذير واضح منه ٠٠ مشفوع بدليله.

لذا ٠٠ يجب : الامتثال له، والإفادة منه.

* * *

ثم يوجهنا رب العزة إلى : الصفح، والعفو، والإحسان ٠٠ تقوية للمجتمع المسلم، وإشاعة للحب بين أفرده.

حيث يقول :

{ وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُوا الفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي القُرْبَى وَالمَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية ٢٢]

نزلت هذه الآية – أيها المؤمنون والمؤمنات – بخصوص ما حدث من أبى بكر الصديق، لما حلف بعد نزول آيات براءة السيدة عائشة، أن يمنع النفقة عن قريبه الفقير، الذى تحدث وساهم فى نشر الإفك بين المسلمين.

ولم يُقِرُّه القرآن على ما فعل ٠٠ حتى لا يكون سبباً فى شيوع القطيعة والعداوة بين الأقارب.

ومعنى الآية : ولا يأتل ولا يحلف أولوا الفضل فى الدين منكم والسعة فى المال أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ولو أساؤا إليكم.

وليعفوا أى : أولوا الفضل منكم والسعة، عنهم، ويستروا عليهم إساءتهم، وليصفحوا فلا يعاقبوهم ، بل يحسنوا إليهم .

ألا تحبون أن يغفر الله لكم ٠٠ إذن فافعلوا معهم مثل ما تحبون أن يفعل الله معكم من العفو والصفح.

والله غفور رحيم يغفر ويرحم ·· فتأدبوا بأدب الله، واغفروا وارحموا.
وعند ذلك : استجاب أبو بكر رضى الله عنه فوراً، وأعاد النفقة، وقال : والله إنا نحب يا ربنا أن تغفر لنا.
فهلا كنا ·· كذلك لنكون من المفلحين فى الدنيا والآخرة ··!!

* * *

ثم تبين الآيات عاقبة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى المجتمع المسلم، ويرمون المؤمنات المحصنات الفاضلات بما هن منه بريئات.
حيث يقول ربنا عز وجل :

{ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ }
[الآيات ٢٣ – ٢٥]

هذه الآيات الثلاث ·· تبين : أن الذين يرمون بالفاحشة، النساء المؤمنات المحصنات العفيفات، البعيدات عن كل فتنة وموطن شبهة الغافلات السليمات الصدور، النقيات القلوب، اللائى ·· ليس فيهن دهاء ولا مكر.
الذين يرمون هؤلاء بالفاحشة زوراً وبهتاناً :
لهم من العقوبات ثلاثة أشياء.
الأول : لعنوا فى الدنيا والآخرة أى : يكونون ملعونين، مطرودين من رحمة الله فى الدنيا والآخرة ·· إن لم يتوبوا، وتقبل توبتهم.
حيث إن من كان ملعوناً فى الدنيا : فهو ملعون فى الآخرة.
ومن كان ملعوناً فى الآخرة : فإنه لا يكون من أهل الجنة .
الثانى : لهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.
أى : لهم عذاب شديد، يوم القيامة، يوم ينكرون ما كانوا يعملون، فتشهد عليهم أعضاؤهم، ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم وجلودهم.
فيقولون لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون [فصلت : ٢١].
الثالث : يوفيهم الله يوم القيامة جزاءهم، لا ينقص منه شئ.
يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق أى : جزاءهم العادل، الذى يستحقونه، بلا زيادة ولا نقصان، بسبب ما أشاعوه من سوء فى المجتمع المسلم، وما رموا به زوراً عفيفات المسلمين.

* * *

ثم يكون الدرس الأخير من دورس قصة الإفك فى الآية التالية :

{ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }
[الآية ٢٦]

وفى هذه الآية : تقرير لسنة إلهية يوضحها الحديث الشريف "الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف" [رواه : مسلم].

والمعنى : الخبيثات من النساء، ومن الكلمات للخبيثين من الناس.

والخبيثون من الناس للخبيثات من النساء، ومن الكلمات.

والطيبات من النساء، ومن الكلمات للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من الناس، ومن الكلمات.

وعلى هذا : فالطيبون ٠٠ يدخل فيهم وعلى رأسهم محمد صلى الله عليه وسمل وآل بيته الكرام بمن فيهم أم المؤمنين السيدة / عائشة رضى الله عنها.

ولذلك يقول رب العزة ٠٠ فى شهادة إلهية واضحة، وتبرئة علنية، لبيت النبى صلى الله عليه وسلم وآله الكرام أولئك الطيبون والطيبات الذين جمعهم الله بعنايته، وحفظهم برعايته مبرؤن مما يقولون عليهم.

وفضلاً عن ذلك : فإن لهم مغفرة ورزق كريم عند الله فى جنات النعيم، جزاء إيمانهم، وعملهم الصالح، وصبرهم على الأذى.

والآية : تعزز ثقة المسلم بأهله، وبإخوانه المسلمين.

وتعزز – كذلك – ثقة الرجل المسلم بزوجته، وثقة المرأة المسلمة بزوجها.

* * *

ويلاحظ – أيها الأحبة الكرام – أن الأحكام – التى سبق الحديث عنها من أول السورة إلى هنا : هى ما يسمى بالأحكام العلاجية، لأمراض وقعت وتقع.

ثم يليها – ابتداءً من هنا – حديث عن الأحكام الوقائية، التى تحول عند الإلتزام بها إلى عدم الوقوع فى الأخطاء السابقة.

ومن هذه الأحكام ٠٠

أداب الاستئذان فى دخول البيوت.

يقول تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ }
[الآيتان ٢٧ ، ٢٨]

يعنى : يا أيها الذين آمنوا
عليكم فى موضوع الاستئذان بثلاثة أشياء:

الأول : لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم أى : بيوتاً لا تملكونها، وتقيمون فيها، أو لا تستأجرونها، وتقيمون فيها أيضاً.

حتى تستأنسوا أى : تستأذنوا، وتجدون الأنس بكم من الآذن لكم فى الدخول وتسلموا على أهلها.

ذلكم الدخول بهذا الشكل خير لكم من الدخول بغير استئذان، أو مع إذن لا أنس بكم فيه.

وكان ذلك التشريع لعلكم تذكرون هذه الخيرية، فتعملون بهذا الحكم، وتداومون عليه.

الثانى : فإن لم تجدوا فيها أى فى البيوت التى تريدون دخولها أحداً بالمرة، أو أحداً ممن يملك الإذن لكم بالدخول : فلا تدخلوها حتى ولو كانت لكم بها مصلحة، ما دام أهلها غير موجودين، أو ما دام من يملك الإذن منهم غائباً.

وهذا المنع : مستمر حتى يؤذن لكم ممن يملك الإذن، فادخلوها إذاً، ولا حرج عليكم.

الثالث : وإن قيل لكم بعد الاستئذان، أو قبله ارجعوا ولا تدخلوا فارجعوا وانصرفوا فوراً، ولا تلحوا فى الاستئذان، ولا تصروا على الانتظار، حتى يؤذن لكم ..

إنّ للناس أعذار، فكونوا أهلاً لقبولها.

ذلك الرجوع؛ استجابة لأمر الله هو أزكى لكم أى أطيب وأطهر؛ لما فيه من سلامة الصدور، والبعد عن الإحراج.

هذا ..

والله بما تعملون استجابة لحكم الله، أو عناداً، أو إهمالاً لتنفيذ هذا الحكم عليم فيجازى كل امرئ بما يناسب موقفه.

* * *

أيها الأحباب ..!!
لما نزلت هذه الآيات : سأل الصحابة عن حكم الاستئذان فى دخول الأماكن العامة ..
فنزل قوله تعالى :

{ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ }
[الآية ٢٩]

يعنى : لا حرج عليكم ولا إثم فى أن تدخلوا بيوتاً بدون استئذان فى دخولها، إذا توافر فيها شرطان :

الأول : أن تكون غير مسكونة أى : ليست سكناً خاصاً، مثل : الفنادق ودور العلم، ودور العبادة .. إلخ.
الثانى : أن يكون فيها متاع لكم أى : مصلحة ومنفعة لكم، مادية كانت أو معنوية.

هذا ..

ولما كان هذا الإذن العام، بدخول هذه الأماكن العامة .. قد يستتبعه دخول بعض الناس لأغراض غير مشروعة : فقد ذيل المولى سبحانه هذا التصريح العام فى الدخول .. بتحذير من عواقب سوء استعمال هذه المرافق العامة، وعدم مشروعية نوايا الداخلين إليها، بقوله تعالى والله يعلم ما تبدون من أسباب غير حقيقة فى دخولها وما تكتمون من أسباب حقيقية خبيثة ..

وهذا .. تهديد : يضمن لهذه المرافق العامة .. حسن استعمالها، ودوام نفعها، والبعد عن أن تكون بؤر إفساد، ومراكز إضرار بالمسلمين ومجتمعاتهم.

* * *

ثم تعرض السورة الكريمة لنوع آخر هام من الأحكام الكلية الوقائية الموجّهة للمؤمنين جميعاً، والتى يندرج تحتها حكم المستأذنين فى دخول البيوت كذلك.

ألا وهى

أحكام غض البصر وحفظ الفروج.

يقول تعالى :

{ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }
[الآية ٣٠]

أى : قل يا محمد للمؤمنين ما يلي :

أولاً : يغضوا من أبصارهم عما حرم الله، ويقتصروا بالنظر إلى ما أحل الله.

ثانياً : ويحفظوا فروجهم من الزنا، ومن النظر إلى غير زوج أو زوجة ومن التعرية لها.

ذلك الغض من البصر، والاكتفاء به على ما يحل، وأيضاً : حفظ الفروج أزكى أطهر لهم من دنس الإثم، وأنقى لدينهم.

إن الله سبحانه خبير بما يصنعون بالبصر، وبالفروج، فعليهم : أن يكونوا على تقوى وعلى حذر.

* * *

ويلاحظ : أن هذا الحكم ليس خاصاً بالرجال فقط .. بل هو للنساء أيضاً ..

يقول العليم الخبير :

{ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

[الآية ٣١]

أى : و كما قلت للمؤمنين قل للمؤمنات ما يلى :

أولاً : يغضضن من أبصارهن حيث إنه : لا يحل للمرأة أن تنظر إلى الرجل الأجنبى عنها، كما يحرم عليه ذلك، سواءً بسواء.

ثانياً : ويحفظن فروجهن عما لا يحل لهن فعله بها، وفيها.

ثالثاً : ولا يبدين أى : ولا يظهرن زينتهن أى : شيئاً من أجسادهن إلا ما ظهر منها وهو : الوجه، والكفين، والقدمين للفقيرات.

رابعاً : وليضربن أى : يغطين ويسترن بخمرهن أى : بالخمار، وهو الذى يغطى به على جيوبهن يعنى : رؤسهن، وأعناقهن، وصدورهن.

خامساً : ولا يبدين زينتهن الخفية، وهى ما عدا الوجه والكفين إلا لهؤلاء : –

لبعولتهن أى : أزواجهن .

وهؤلاء : يباح لهن النظر إلى كل شئ منها.

أو آبائهن ويدخل فى هؤلاء، الأجداد.

ويلاحظ : أن دائرة النظر لهؤلاء ٠٠ تختلف عن دائرة النظر المباح للأزواج.

وكذا : من يأتى من الأصناف الباقية.

أو آباء بعولتهن حيث صاروا محارم للمرأة، وهم آباء الأزواج فقط.

أو أبنائهن من نسب أو رضاع.

أو أبناء بعولتهن من زوجات أخريات، حيث صاروا محارم لها.

أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن من نسب أو رضاع.

ويدخل فى ذلك : سائر المحارم ٠٠ كالأعمام، والأخوال.

أو نسائهن أى : النساء المسلمات، ويرى بعض العلماء : أنهن النساء المختصات بهن بصحبة أو خدمة فقط، من النساء المسلمات.

أو ما ملكت أيمانهن من النساء فقط ٠٠ مسلمات، أو كافرات .

وأما العبيد: فهم كالأجانب من الرجال ، سواءً بسواء.

أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أى : غير أولى الحاجة من النساء، ولا شهوة لديهم نهائياً، كمقطوع الآلة مثلاً.

أو الطفل أى : الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء أى : لا يفهمون الفرق بين الرجل والمرأة، ولا يعرفون العورات.

سادساً : ولا يضربن بأرجلهن لينتبه لها الرجال ويعلم ما يخفين من زينتهن.

وفى هذا : نهى للمرأة وتحريم لأى شئ تفعله، يلفت إليها أنظار الرجال، من زينة، وثياب، وتعطر ٠٠ إلخ.

هذا ..

ولأن هذه الأوامر والنواهى : يدور عليها .. صلاح الفرد، وصلاح المجتمع ..!!

ولأن المرء : لا يخلو من سهو أو تقصير، فى أوامر الله ونواهيه، مهما اجتهد فى حسن التنفيذ ..!!

ولأن توبة العبد : مطلوبة فى كل حال ..!!

فقد أمر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين جميعاً .. قائلاً :

وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون عما بدر منكم من الأخطاء، وافعلوا ما أمركم الله به من الصفات الجميلة، واتركوا ما نهاكم عنه من الصفات الرذيلة لعلكم تفلحون .

حيث إن الفلاح كل الفلاح، فى الدنيا والآخرة : فى فعل ما أمركم الله ورسوله به، وترك ما نهاكم الله ورسوله عنه.

* * *

وبعد الكلام عن غض البصر وحفظ الفرج : يكون الحديث عن حكم وقائى شامل للمؤمنين جميعاً ..

وهو الحث على الزواج.

يقول تعالى :

{ وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

[الآيتان ٣٢ ، ٣٣]

هذا أمر من الله للأمة والمسئولين فيها وعموم أفرادها : بهذه الأشياء ، من باب الستر والإصلاح للأفراد، والطهر والفلاح للمجتمع.

وهذه الأشياء .. هى :

أولاً : وانكحوا وهو أمر بتزويج غير المتزوجين .

وهما صنفان :

الصنف الأول الأيامى منكم أى : غير المتزوجين عموماً.

الصنف الثانى والصالحين من عبادكم وإمائكم ليحصن دينهم، ويحفظ عليهم صلاحهم.

إن يكونوا أى : أفراد هذين الصنفين فقراء يغنهم الله من فضله وجوده وكرمه.

والله واسع الفضل عليم بمن يستحقه.

ثانياً : وليستعفف الذين لا يجدون مالاً، يستطيعون به نكاحاً أى زواجاً حتى يغنيهم الله من فضله بمال يتزوج به، أو زوجة ترضى باليسير، أو بكسر شهوته بالصيام، كما فى الحديث الشريف.

ثالثاً : مساعدة العبيد على نوال حريتهم .

والذين يبتغون يريدون الكتاب أى : المكاتبة على مال لينال حريته مما ملكت أيمانكم رجالاً أو نساءً فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً أى أمانة، وصلاحاً، وقدرة على الكسب الحلال.

وليس هذا فقط ٠٠ بل يأمر ربنا بمساعدة هؤلاء.

حيث يقول :

وآتوهم وساعدوهم فى تحقيق غرضهم، ونوال حريتهم من مال الله الذى آتاكم وأنعم عليكم به .

رابعاً : عدم الإكراه على البغاء .

ولا تكرهوا فتياتكم أى إمائكم على البغاء الذى هو الزنا بأجر.

وذلك لتبتغوا وتريدون بهذا الإكراه عرض الحياة الدنيا من المال، أو الأولاد الذين يولدون منهن فيباعون بمال.

وهذا : نهى عن ذلك، وتحريم له.

ومن يكرهن عى الزنى، بعد هذا النهى والتحريم : فإن الله من بعد إكراهنن وعجزهن عن الامتناع ٠٠ غفور لهن رحيم بهن.

* * *

ثم يختم القسم الأول من السورة، وهو الخاص بالأحكام والتشريعات بقوله تعالى :

{ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ }
[الآية ٣٤]

يعنى : ولقد أنزلنا إليكم القرآن، فيه آيات مبينات واضحات، موضحات، لما فيه نفعكم وفلاحكم.

وكذلك : أنزلنا إليكم مثلاً خبراً وقصصاً من الذين خلوا سبقوا من قبلكم تبين حسن عاقبة المتقين، وسوء نهاية الطغاة العاصين.

وكذلك : أنزلنا إليكم موعظة للمتقين ينتفعون بها، ومن أراد النفع بها معهم.

* * *

وبعد هذه التشريعات، وهذه التوجيهات، التى عالج الله بها الكيان البشرى ٠٠ حتى أشرق بالنور، واستشرف النور، وأصبح على استعداد لتلقى الفيض الإلهى فى عالم كله نور ٠٠!!

يقول سبحانه :

{ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }

يعنى : الله نور هادى أهل السموات والأرض.

مثل نوره وهداه، الذى يقذفه فى قلب المؤمن كمشكاة وهى الكوَّة أى : الفتحة غير النافذة فى الحائط، والتى تكون أجمع للضوء فيها أى : فى المشكاة مصباح سراج منير، ضخم ثاقب.

و هذا المصباح فى زجاجة أى فى قنديل من زجاج صاف.

و هذه الزجاجة التى فيها المصباح : مضيئة ضوءاً باهراً كأنها كوكب دُرِّى أى : كوكب من لؤلؤ عظيم كبير.

وهذا المصباح، كذلك يوقد ويستمد وقوده وضوءه من شجرة مباركة كثيرة المنافع زيتونة.

هذه الشجرة الزيتونة، التى يستمد المصباح وقوده منها :لا شرقية ولا غربية بل فى مكان وسط يكاد زيتها من صفائه ونقائه : (يضيىء ولو لم تمسسه نار) أي : يضيىء ويتلألأ من غير نار .

يقول ابن عباس رضى الله عنه : هذا مثل نور الله تعالى وهداه فى قلب المؤمن، ما يكاد الزيت الصافى يضئ قبل أن تمسه النار ..

فإذا مسته النار : راد ضوؤه.

كذلك قلب المؤمن : يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم .

فإذا جاءه العلم : زاده هدى على هدى، ونوراً على نور.

نعم .. هذا النور، الذى شبه به الحق سبحانه وتعالى نور على نور أى: نور مضاعف.

ثم يهدى الله لنوره ويوفق لإصابة الحق، والسير على هداه من يشاء من عباده، إما بإلهام منه سبحانه لعبده، أو بنظر من العبد فى الأدلة.

هذا ..

و من فضل الله على عباده يضرب الله بهذا الشكل الأمثال للناس تقريباً لعقولهم، ليفهموا، فيعتبروا، فيؤمنوا، ويزدادوا هدى.

والله بكل شئ عليم.

* * *

أيها الأحباب فى الله ..

لما ضرب المولى سبحانه .. المثل لقلب المؤمن، وما فيه من الهدى والعلم، بالمصباح فى الزجاجة الصافية، والمتوقد من زيت طيب :

ذكر محل هذا المصباح .. وهى : المساجد، التى هى أحب البقاع إلى الله فى الأرض، وهى بيوته .. التى يعبد فيها ويوحد.

فقال سبحانه :

{ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ }

[الآية ٣٦]

أى : هذه القلوب المؤمنة ٠٠ مظنة وجودها فى بيوت أذن الله أى : أمر ٠٠
أن ترفع أن تبنى وتعظم، وتُبعد عن الفحش فى القول، وتطهر من النجاسات والأقذار.
و أن يذكر فيها اسمه سبحانه، بالصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، ودروس العلم ٠٠ إلخ.
وهذا يفيد ٠٠ أن مدد الإيمان : وجوده فى المساجد.
و أن يسبح له فيها بالغدو والآصال وآناء الليل وأطراف النهار.

* * *

ولكن ٠٠
من هم هؤلاء الذين يسبحون له بالغدو والآصال ٠٠؟
الجواب :

{ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ }
[الآية ٣٧]

يعنى : هم رجال موصوفون بصفات ثلاث :
الصفة الأولى : أنهم يسبحون الله فى بيوته، وهى المساجد، بالغدو والآصال ٠٠
أصبحت همتهم سامية، وعزائمهم عالية، تعلقت قلوبهم بالمساجد، وتطهرت أرواحهم، وزكت نفوسهم من المساجد.
وكان من أثر ذلك : أن صلحت بهم البلاد، وسعدت بهم العباد، وصار خيرهم عميماً، وشرهم عديماً.
الصفة الثانية : أنهم لا تشغلهم الدنيا بزخارفها عن طاعة الله، وحسن عبادته، والاستعداد للقائه.
ولذلك لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة حيث إنهم : يؤدون لله حقه، وللمجتمع المسلم حقه، أفراداً وجماعة.
الصفة الثالثة : أنهم لا يغترون بعبادتهم، ولا بتجارتهم، عن طلب مرضاة الله، حيث تراهم دائماً يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار من شدة الفزع، وعظمة الأهوال.

* * *

وما كل ذلك ٠٠ إلا :

{ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }

يعنى : أنهم يفعلون ما يفعلون ليجزيهم الله أحسن ما عملوا فضلاً منه وكرماً.

و أيضاً يزيدهم من فضله ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما فى الحديث الشريف الذى [رواه : أحمد، والدارمى]

والله من فضله وجوده يرزق من يشاء ما يشاء بغير حساب.

* * *

وبعد أن بين الله فضله على الذين يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار: ذكر المحرومين من هذا الفضل ..

فقال :

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ }

[الآيتان ٣٩ ، ٤٠]

هذان مثلان : ضربهما الله لأعمال نوعين من الكفار.

فأما الأول : فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم، الذين يحسبون أنهم على صواب فى الأعمال والمعتقدات .. وهم ليسوا كذلك.

فمثلهم فى ذلك : كالسراب، الذى يُرى فى الأرض عن بعد، كأنه ماء جار يترقرق.

وأما الثانى : فهو للكفار أصحاب الجهل المركب، المقلدون لأئمة الكفر، الصم البكم الذين لا يعقلون.

فمثلهم فى ذلك : كظلمات فى بحر لُجّىّ .. إلخ.

والمعنى : و أعمال الذين كفروا كهذين المثلين :

المثل الأول : كسراب وهو ما يرى فى ضوء الشمس وقت الظهيرة فى الصحراء، كأنه ماء جار بقيعه وهو المكان المنبسط المستوى من الأرض.

وهذا السراب يحسبه الظمآن العطشان ماءً فيذهب إليه؛ ليشرب حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً أى : ماءً، بل سراباً.

وهذا مثال عمله الضائع، وعقيدته الفاسدة، ودعوته الهدامة.

وليس هذا فقط .. بل وجد زبانية الله عنده فيأخذونه، ويلقونه إلى جهنم فوفاه الله فيها حسابه.

والله سريع الحساب لا يشغله حساب عن حساب.

المثل الثانى : أو كظلمات فى بحر لجى عميق، كثير الظلمات، أحواله مظلمة .. المصدر، والهدف، والمصير.

ومع ذلك يغشاه يغطيه موج من فوقه موج.

موج فوق موج ٠٠ !! ؟

نعم : ولقد اكتشف علماء البحار حديثاً أن هناك نوعين من الأمواج، ظاهرية، وباطنية، فى بعض البحار العميقة.

وهذا من الإعجاز الإلهى العلمى فى القرآن ٠٠

ثم يقول ربنا من فوقه أى : هذا الموج الأعلى الظاهرى سحاب.

حقاً ٠٠ إنها ظلمات متعددة ٠٠

ظلمة البحر .

وظلمة الموج .

وظلمة السحاب .

بعضها كما هو واضح فوق بعض.

حتى إذا أخرج المرء يده وهو فى هذه الظلمات لم يكد يراها.

وهذا : مثال عمله الضائع؛ لخلوه عن نور الحق، ولأنها ليست على هدى من الله، ولا يراد بها وجهه سبحانه ولا رضاه.

وهكذا ٠٠

من لم يجعل الله له نوراً من عنده، يهديه به فما له من نور بأى حال من الأحوال.

وهؤلاء : هم المحرومون حقاً.

* * *

وبعد أن تحدث ربنا عز وجل عن المهتدين بنوره وهديه ٠٠!!

وبعد أن تحدث – كذلك – عن الأشقياء المحرومين من هذه الهداية ٠٠!!

يوجه الأنظار، ويلفت البصائر ٠٠ إلى آيات الله، ودلائل التوحيد فى الخلق؛ دعوة للاهتداء، وحثاً على الإيمان ٠٠

فيقول :

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ }

[الآيتان ٤١ ، ٤٢]

يعنى : ألم تر ألم تعلم أيها الإنسان، علم اليقين أن الله تعالى يسبح له من فى السموات والأرض من الملائكة، والإنس، الجن، والحيوان، حتى الجماد ٠٠؟

والطير كذلك تسبحه، وهى صافات لأجنحتها فى الهواء.

كل من فى السموات والأرض، وما فيهما قد علم من الله صلاته وتسبيحه.

والله وحده عليم بما يفعلون جميعاً، لا يخفى عليه شئ من طاعتهم، وتسبيحهم.

وفى ذلك : وعد للطائعين بالحسنى، ووعيد للعصاة ٠٠ بسوء الجزاء.

وفى ذات الوقت : دعوة لمزيد الطاعة من أوليائه، ومراجعة النفس، للبعيدين عن آياته.

ثم يقول ولله ملك السموات والأرض فهو الحاكم وحده، وهو المتصرف وحده، وهو الذى لا تبغى العبادة إلا له وإلى الله المصير فى يوم القيامة، يوم الحساب.

وذلك تأكيد ٠٠ لأن يستعمل الإنسان عقله، ويستقرئ آيات الله فى كونه ونفسه ؛ ليزداد إيماناً وهدى.

* * *

دعوة أخرى للإيمان بالله ٠٠ أيها المحبون لهداه ٠٠!!

يقول تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ }

[الآية ٤٣]

يعنى : ألم تعلم أيها الإنسان، علم اليقين أن الله تعالى يزجى أى : يسوق بقدرته سحاباً فى السماء ثم يؤلف بينه أى : يجمعه بعد تفرق، ويضم بعضه إلى بعض ثم يجعله بقدرته ركاماً متراكماً فوق بعضه البعض.

فترى حينئذ الودق المطر يخرج من خلاله أى : من بين هذه السحابات المتراكمة، بعضها فوق بعض.

أيضاً ٠٠

ألم تر أيها الإنسان ٠٠ أن الله تعالى ينزل من السماء أى : السحاب : من جبال أى : كتل مثل الجبال فيها من بَرَد حبات الثلج الصغيرة.

فيصيب به أى بهذا البرد، ينزله رحمة منه على من يشاء من عباده، ومن بلاده.

ويصرفه أى : هذا البرد، ويمنعه امتحاناً منه عمن يشاء من عباده، ومن بلاده.

وفوق ذلك :

يكاد سنا ضوء برقه الذى يحدث من احتكاك كتل السحاب يذهب بالأبصار يخطفها من شدة هذا الضوء.

وهذا : لا يمكن إلا بقدرة قادر حكيم ، وهو الله وحده.

فهلا آمنتم به ٠٠!!؟

* * *

ثم ٠٠

دعوة – ثالثة – للإيمان بالله ٠٠ أيها الراغبون فى نوره وهداه.

حيث يقول سبحانه :

{ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ }
[الآية ٤٤]

أى : يقلب الله بقدرته الليل والنهار فيأخذ من هذا، ويزيد فى هذا مرة، والعكس مرة أخرى.
كل ذلك : لحكم يعرفها، وغايات يقدرها سبحانه.
نعم إن فى ذلك لعبرة وعظة، ودليل على وحدانية الله لأولى الأبصار.
فهلا ٠٠ اعتبرتم واتعظتم وآمنتم ٠٠!!؟

* * *

ثم ٠٠
دعوة رابعة لنفس الغرض ٠٠
حيث يقول جل وعلا :

{ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ٤٥]

وهنا ٠٠ يذكر الله تعالى : قدرته التامة، وسطانه العظيم، فى خلقه أنواعَ المخلوقات – على اختلاف أشكالها، وألوانها، وحركاتها، وسكناتها – من ماء واحد.
يقول تعالى :
والله القادر خلق كل دابة من ماء، والدواب أنواع :
فمنهم من يمشى على بطنه بغير آلة مشى من أرجل أو قوائم ٠٠ كالحية وما شاكلها ٠٠
وهذا هو أعجب المخلوقات مشياً.
ومنهم من يمشى على رجلين كالإنسان والطيور.
ومنهم من يمشى على أربع كالأنعام وسائر الحيوانات.
إن الله على كل شئ قدير لا يتعذر عليه شئ من هذه المخلقوات ولا غيرها.
وما دام هو القادر ٠٠ فهو الهادى.
فهلا اعتبرتم، وطلبتم الهداية وآمنتم ٠٠!!؟

* * *

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى معقباً على هذه الآيات الواضحات ٠٠ الدالة على وحدانيته سبحانه وقدرته :

{ لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }
[الآية ٤٦]

نعم ٠٠ أنزل الله فى القرآن آيات بينات مبينات، لا خفاء فيها ولا إبهام، لهداية الناس.

وهكذا يهدى الله بلطفه ومشيئته من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم وهو دين الإسلام، الذى يوصل إلتزاماً به، وعملاً بأحكامه إلى رضوان الله.

* * *

أيها الكرام ٠٠ المتابعون معنا حديث القرآن الكريم .

بعد أن اتضحت الآداب والأحكام، التى يقوم عليها وينهض بسببها المجتمع المسلم ٠٠!!

وبعد أن قُدِّمت دلائل التوحيد، وآيات القدرة، التى تدعوا إلى الإيمان، وتعمل على زيادته ٠٠!!

وكل ذلك : لبناء الشخصية الإسلامية السوية، التى كلفها الله بقيادة الكون والحياة والأحياء.

بعد كل هذا ٠٠

تعود آيات السورة ٠٠ إلى :

الآداب والتعاليم والأحكام، التى يربى القرآن عليها الجماعة المسلمة .

من خلال : إعداد الفرد المسلم، ورعاية البيت المسلم .

وصولاً بها إلى : تحقيق الغاية المنشودة من الإنسان وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[الذاريات ٥٦]

ومن ثم : النجاح فى قيادة الدنيا وأهلها إلى السلام والعدل والحرية.

نعم – تعود آيات السورة : لتطهر قلوب المسلمين من النفاق.

حيث تكشف عن بعض صفات المنافقين لنحذرهم.

يقول تعالى :

{ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }
[الآيات ٤٧ – ٥٠]

والمعنى : أن المنافقين يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا الله فيما يأمر به، والرسول فيما يحكم به.

وبعد إعلان إيمانهم، وإظهار طاعتهم : يتولى ويمتنع عن حكم الله ورسوله فريق منهم بعد ذلك.

هؤلاء : يحكم الله عليهم بقوله وما أولئك بالمؤمنين كما يَدَّعون.

بدليل : أنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم بحكم الله ٠٠ تكون المفاجأة العجيبة، التى تكشف نفاقهم.

وهى إذا فريق منهم معرضون عن هذه الدعوة.

و أما إن يكن لهم الحق ويريدون الوصول إليه يأتوا إليه أى إلى الرسول، وإلى شرع الله مذعنين طائعين.

تسألونى ٠٠ ما السبب فى تصرفاتهم هذه ٠٠؟

يقول تعالى أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله.

يعنى : لا يخرج هذا السبب عن واحد من ثلاثة :

أن يكون موقفهم : لمرض فى قلوبهم.

أو أن يكون ذلك : لشك عندهم فى الله ورسوله.

أو أن يكون ثالثاً : لأنهم يخافون أن يجور عليهم محمد فى الحكم ويظلمهم.

على كل حال : ليس السبب هذا، ولا ذاك.

بل أولئك هم الظالمون لأنفسهم، فى موقفهم هذا.

* * *

أيها الأحبة ٠٠

إذا كان المنافقون يرفضون ٠٠

فهناك المستجيبون.

اسمعوا معى :

{ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ }

[الآيتان ٥١ ، ٥٢]

أى : إنما المؤمنون على عكس ذلك .

فهم طائعون .

ولذلك : فهم المفلحون الفائزون.

و كذلك كل من يطع الله ورسوله ويخش غضب الله عليه ويتقه بامتثال أمره واجتناب نهيه فأولئك هم الفائزون برضوانه.

اللهم اجعلنا منهم، واحشرنا معهم يا رب العالمين.

* * *

وبعد أن عرض الله تعالى الصورة المقابلة للمنافقين، وهى صورة المؤمنين: إعلاءً لشأنهم، وبياناً لحسن امتثالهم، وتشويقاً للاقتداء بهم، وكشفاً للمنافقين ، وتعرية لموافقهم ٠٠!!

تعود الآيات – مرة أخرى – إلى المنافقين : لتحكى بعضاً من مواقفهم السيئة، وأكاذيبهم الواضحة، والتى يؤكدونها بأيمانهم المغلظة.

حيث تقول هذه الآيات :

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }
[الآية ٥٣]

لما قال المنافقون للنبى صلى الله عليه وسلم : أينما كنت نكن معك ٠٠!!

لئن خرجت : خرجنا .

ولئن أقمت، أقمنا.

وإن أمرتنا بالجهاد ، جاهدنا".

نزلت هذه الآيات الكريمة : تكشف كذبهم، وتفضح نفاقهم.

والمعنى : وأقسموا بالله على ما يقولون لك جهد أيمانهم فى تأكيد كلامهم هذا لئن أمرتهم بالخروج للجهاد معك ليخرجن.

فرد الله عليهم بقوله :

قل لهم يا محمد لا تقسموا أى : لا تحلفوا على ذلك؛ فـــ طاعة منكم معروفة واقعة، فعليه، يشاهدها الجميع، ويعرفها منكم الكل ٠٠ أولى من هذه الأيمان المغلظة، إن كنتم صادقين.

حيث إن الله خبير بما تعملون يعرف الصادق من الكاذب، والمطيع من العاصى، خبير بضمائر عباده وما فيها، حتى وإن أظهروا خلاف ما فيها.

* * *

ثم أكمل سبحانه الرد عليهم بقوله :

{ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ }
[الآية ٥٤]

أى : قل لهم يا محمد أطيعوا الله واتبعوا كتابه وأطيعوا الرسول واتبعوا سنته، بالفعل والقول معاً ، وليس بالقول فقط، إن كنتم صادقين.

ثم يقول عز وجل لهم هم :

فإن تولوا أى : تتولوا وتعرضوا، ولا تستجيبوا ٠٠ فما أضررتم إلا أنفسكم فقط.

فإنما عليه أى : ما على محمد – صلى الله عليه وسلم – إلا ما حُمِّل من أداء الرسالة، وتبليغ الأمانة وعليكم أنتم ما حملتم وكلفتم به من العمل بما بلغتم به.

فإن أدى محمد – صلى الله عليه وسلم – وكل داعية ما عليه : فقد خرج من عهدة التكليف والبلاغ.
وإن تطيعوه أنتم فيما يأمركم به، وينهاكم عنه : تهتدوا وتفلحوا.
وإن أعرضتم، ولم تفعلوا ما أمركم به، وبلغكم إياه : فقد عرضتم أنفسكم لسخط الله ..!!
وما على الرسول إلا البلاغ لكم، وليس له ولاية على قلوبكم، ولا عليه محاسبة لإعراضكم.

* * *

أيها الأحباب فى الله ..
استعدوا لتلقى هذه البشارة الربانية .. لأهل الإيمان، الذين يحتكمون – ويقدمون الطاعة الكاملة – لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ..
وهى فى صورة وعد إلهى منه سبحانه.
إذ يقول :

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ }
[الآيات ٥٥ – ٥٧]

هذه الآيات الثلاث الكريمة : تتضمن تسعة أشياء :
ثلاثة منها : مطلوبة .
وثلاثة منها : موعودة .
وثلاثة منها مرفوضة.
فإذا ما حققت الأمة .. الأمور المطلوبة، ونجت وتخلصت من المرفوضة : نالت الموعودة.
وتوضيح الكلام .. فيما يلى :
المطالب الثلاثة .. هى :
الإيمان : وعد الله الذين آمنوا أى : وثقوا فى هذا الدين، ونصرَ الله منكم المؤمنون.
وكذلك .. العمل الصالح وعملوا الصالحات وهى : كل ما يسعد العباد، ويصلح البلاد، ويكون فى إطار شرع الله.
وثالثاً : العبادة يعبدوننى بالمفهوم الشامل الكامل للعبادة لا يشركون بى شيئاً.
من تحلى بهذه الثلاثة : حقق الله تعالى له .. أمورا ثلاثة ..
هى :
الاستخلاف ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم من المؤمنين عليها ، بعد إهلاك الظالمين.
وكذلك : التمكين للدين وليمكنن لهم دينهم الذين ارتضى لهم وهو الإسلام بأن يعلى شأنه، ويقوى أركانه، وينصر أتباعه.

وثالثاً : الأمن بعد الخوف وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً أى : يرزقهم الأمن والأمان فى الدنيا ، على أنفسهم وأهليهم وأوطانهم ومبادئهم ٠٠إلخ.

ومن المعلوم : أن هذه الموعودات الثلاثة ٠٠ لا تُنال ولا تتحقق إلا بعد الحذر، والبعد عن هذه المخاطر الثلاثة ٠٠

وهى :

خطر العصاة المنهزمين فى الصف الإسلامى ٠٠ ومن كفر بوعد الله، ولم يصدق به، وفقد الثقة فى هذا الدين بعد ذلك التوضيح، وهذا البيان :فأولئك هم الفاسقون الخارجون عن رحمة الله، ونوال نصره.

وكذلك : خطر الغرور ٠٠ حال الاتصاف بالمطلوب، أو بعد تحقق الموعود ٠٠ وأقيموا الصلاة خضوعاً لله، وطاعة له وآتوا الزكاة رفقاً بالمحتاجين من عباد الله، وطاعة له وأطيعوا الرسول ولا تقدموا قولكم على قوله، ولا فعلكم على فعله لعلكم ترحمون فى الدنيا والآخرة، بسبب هذه الطاعة، والبعد عن الغرور.

وثالثاً : خطر الحرب النفسية ، والتى هى أسرع بالهزيمة إلى من تصوب إليه، من فعل أحدث آلات الحرب فيه ولا تحسبن الذين كفروا معجزين لكم فى الأرض، وسابقين عليكم ومأواهم النار وبئس المصير.

أيها المستمعون الكرام ٠٠

هذه الأشياء التسعة : فهمها المسلمون الأوائل؛ فعملوا بها ٠٠!!

فحققوا ما طلب منهم، وتجنبوا ما خوفوا منه: فنالوا ما وعدوا به.

وحقق الله لهم وعده.

وهذه البشرى : باقية إلى يوم القيامة ٠٠!!

فهلا فهمناها، وعملنا بها ٠٠ لنخرج من أزماتنا ٠٠!!

أدعوا الله أن يكون ذلك .

* * *

هذا ٠٠

وبعد ثمان وعشرين آية مرت علينا، كلها تمهيد يوجب الامتثال للأوامر، والابتعاد عن النواهى ٠٠

يعود الحديث إلى آداب الاستئذان مرة أخرى ٠٠

ولكن فى هذه المرة : عن الاستئذان داخل البيت الواحد.

يقول تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

[الآية ٥٨]

المعنى : يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم فى الدخول عليكم الذين ملكت أيمانكم من العبيد والإماء .

و كذلك الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا الحلم منكم.
وذلك : ثلاث مرات فى اليوم والليلة .
وهى :

الأولى : من قبل صلاة الفجر لأنه وقت القيام من المضاجع.
الثانية : وحين تضعون ثيابكم للراحة والقيلولة من وقت الظهيرة
الثالثة : ومن بعد صلاة العشاء لأنه وقت النوم، والتجرد من ثياب اليقظة.
هذه : أوقات ثلاث عورات لكم ولابد من الاستئذان فيها صيانة لهذه العورات.

ليس عليكم ولا عليهم أى : العبيد والإماء، والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم منكم جناح حرج وإثم فى عدم الاستئذان فى أى وقت بعدهن أى بعد هذه الآقات الثلاثة.

والعلة فى رفع الإثم لعدم الاستئذان فى غير هذه الأوقات الثلاثة : أنهم طوافون عليكم فى الحركة اليومية المعتادة داخل البيت الواحد، ودخول بعضكم على بعض من أجل المصالح الحياتية.

كذلك البيان الواضح المفيد : يبين الله تعالى لكم الآيات والأحكام، التى تحتاجون إليها والله عليم بمصالح عباده حكيم فى بيان مراده.

* * *

هذا ..

{ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }
[الآية ٥٩]

يعنى : ما سبق ، وهو حكم العبيد والإماء، والأطفال دون الحلم، فى الاستئذان داخل البيت وعلى من فيه من الآباء والأمهات.

و الحكم الآن : أنه إذا بلغ الأطفال الصغار منكم الحلم أى سن الاحتلام : فقد تغير حكمهم عما سبق قبل الاحتلام.

يقول المولى : فليستأذنوا إذا أرادوا الدخول عليكم، فى أى وقت من الأوقات، دون استثناء.
وذلك كما استأذن الرجال، الذين بلغوا الحلم من قبلهم صيانة للعورات، وحماية للحريات.
كذلك البيان الواضح المفيد : يبين الله تعالى لكم آياته وروائع تشريعه، التى تنتفعون بها والله عليم بمصالح عباده حكيم فى بيان مراده.

* * *

أيها الأحبة فى الله .. من الرجال والنساء.

القواعد من النساء ٠٠ وهن الكبيرات المسنات : لهن أحكام خاصة بهن.
ومن هذه الأحكام : ما يتعلق بالتستر والاستئذان؛ حيث إن أكثر ما يدخل عليهن الأقارب.
ولذلك يقول المولى سبحانه :

{ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآية ٦٠]

يعنى : والقواعد من النساء الكبيرات اللائى قعدن عن النكاح، أو عن الحيض، أو عن الاستمتاع، وأصبحن لا يرجون نكاحاً ولا رغبة لهن فيه، ولا تطلعا إليه.
ما حكمهن ٠٠؟
يقول ربنا تبارك وتعالى فليس عليهن جناح إثم، أو حرج، فى أن يضعن ثيابهن الظاهرة؛ تخففاً منها.
وهذا ٠٠ من باب التيسير عليهن.
ولكن : بشرط أن يكن غير متبرجات أى : مظهرات، أو متعرضات للغير بزينة لينظر إليهن.
ومع هذا ٠٠ وأن يستعففن عن وضع ثيابهن، وخلعها؛ من باب المحافظة والستر والاحتياط خير لهن فى الدنيا ٠٠ بالبعد عن مواطن الفتنة، وفى الآخرة ٠٠ بثواب حسن الامتثال.
هذا ٠٠ والله سميع لما يقلن، ويقال لهن عليم بما فى نفوسهن من الرغبة فى طاعة الله، وعدم ذلك.

* * *

وما دام الأمر فى الحكم السابق مع القواعد من النساء : هو من باب التيسير عليهن، ورفع الحرج عنهن ٠٠!!
فإن الله تعالى يبين حكماً آخر : هو – كذلك – من باب التيسير ورفع الحرج.
يقول سبحانه :

{ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }
[الآية ٦١]

هذه الآية الكريمة : أفادت الأحكام والآداب التالية :

أولاً : رفع الإثم عن أصحاب الأعذار ٠٠ فى التخلف عن الجهاد، وفى تناول الطعام مع الأصحاء، وفى تناول الطعام من البيوت المذكورة فى الآية.

ثانياً : رفع الإثم عن المسلمين ٠٠ فى الأكل مجتمعين مع بعضهم البعض، أو منفردين، دون قيد بهذا أو ذاك.

ثالثاً : الأمر بالسلام والتحية عند دخول البيوت.

والمعنى : ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج أى : ليس على أى واحد من هؤلاء ٠٠ إثم ولا مؤاخذة، فيما ذكر، من التخلف عن الجهاد، أو تناول الطعام مع الأصحاء، أو تناول الطعام من البيوت المذكورة.

ولا حرج كذلك عليكم أيها الأصحاء، فى الأكل أيضاً من البيوت المذكورة فى الآية.

وكذلك ليس عليكم أيها المسلمون جناح أى : إثم وذنب، فى أن تأكلوا مع بعضكم البعض مجتمعين على طعام واحد أو أشتاتاً متفرقين.

وكل ذلك : من باب الرخصة لكم، والتيسير عليكم.

ولكن مع الأدب الذى ينبغى مراعاته عند تنفيذ ذلك.

يقول تعالى :

فإذا دخلتم بيوتاً من البيوت المذكورة فسلموا على أهلها، الذى هم من أنفسكم ديناً وقرابة.

وذلك السلام : تحية من عند الله ثابتة بأمره، مشروعة من لدنه سبحانه مباركة طيبة يرجى بها من الله زيادة الخير، وطيب الرزق.

كذلك البيان الواضح المفيد : يبين الله تعالى لكم الآيات والأحكام، والرخص لعلكم تعقلون أحكامه، وتفهمون تشريعه، وتشكرون على رخصه وتيسيره.

أيها الأحبة فى الله ٠٠

أتذكرون أن السورة الكريمة بدأت بقوله تعالى ٠٠ وأنزل فيها آيات بينات لعلكم تذكرون ٠٠!!

وها هى تختم – كما سمعنا – بقوله تعالى كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون.

والخطاب فيهما واضح أنه للمؤمنين.

لذا ٠٠ فقد بين الله أهل هذا الإيمان ٠٠ الذين يتذكرون ويعقلون هذه الآيات، بقوله :

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

[الآية ٦٢]

يعنى : إنما المؤمنون الكاملون فى إيمانهم ٠٠ من وصفوا وتحققوا بهذه الأمور الثلاثة.

أولاً : الذين آمنوا بالله ووثقوا فى دينه، وخضعوا لأحكامه.

ثانياً : والذين آمنوا بـــ رسوله صلى الله عليه وسلم، واقتدوا به، واتبعوا هديه وسنته.

ثالثاً : و الذين إذا كانوا معه مجتمعين على أمر جامع أى : يجمع له الناس، كالجهاد، والجمعة، والعيدين لم يذهبوا بعيداً عنه صلى الله عليه وسلم حتى يستأذنوه ويوافق لهم على الذهاب والانصراف.

وهذا الوصف الثالث على درجة كبيرة من الأهمية ..

حيث إن الذين يستأذنونك ولا ينصرفون من عندك إلا بإذنك .. أولئك هم المؤمنون الكاملون، الصادقون الذين يؤمنون بالله ورسوله.

هؤلاء .. عليك أن تأذن لهم .

فإذا استأذنوك لبعض شأنهم الذى يعرض لهم : فالأمر مفوض لرأيك فأذن لمن شئت منهم أن تأذن له، ولا تأذن لمن شئت منهم أن لا تأذن له.

واستغفر لهم الله حيث اضطرتهم ظروفهم أن يقدموا بعض أمور الدنيا على أمر الآخرة.

* * *

وبعد هذا التوجيه للأمة ..!!

وكذلك : بعد هذا التشريف لمحمد صلى الله عليه وسلم ..!!

يعلم الله المؤمنين كيفية الاستئذان وأدبه مع النبى صلى الله عليه وسلم ..

حيث يقول لهم :

{ لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

[الآية ٦٣]

أى : لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم عند مناداتكم عليه، أو استئذانكم منه كدعاء كمناداة بعضكم بعضاً بل عظموه، ووقروه.

وهذا لمن يستأذنون منه.

وهناك فريق .. لا يستأذن بالمرة، بل ينصرف متسللاً، دون إذن منه صلى الله عليه وسلم، وهم المنافقون.

وهؤلاء : يهددهم الله عز وجل بقوله قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فى خفية وتستر ..

وهذا : مخالفة لأمره، الذى جمع الناس عليه، ومخالفة لأمرنا فى وجوب طاعته، وعدم الانصراف دون إذنه صلى الله عليه وسلم.

لذلك :

فليحذر الذين يخالفون عن أمره من شيئين :

أن تصيبهم فتنة من الدنيا.

أو يصيبهم عذاب أليم فى الآخرة.

* * *

أيها الأحباب ٠٠

إذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك ٠٠!!

فالواجب : الامتثال، وعدم المخالفة.

حيث إن هذا الأمر والتشريع من الله تعالى : الذى يهدد المخالفين ٠٠ قائلاً:

{ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }

[الآية ٦٤]

نعم ٠٠

لله ما فى السموات والأرض من الموجودات بأسرها، خلقاً، وملكاً، وتصرفاً.

قد يعلم ما أنتم عليه أى : يعلم يقيناً ما أنتم عليه فى جميع أحوالكم.

وهذا خطاب للجميع ٠٠

ثم يكون تهديد المنافقين بقوله ويوم القيامة يرجعون إليه مع الخلائق كلها فينبؤهم بما عملوا كله، ظاهراً، وباطناً، من سوء أعمالهم، ويجازيهم عليها بأسوأ منها.

خاصة والله بكل شئ عليم لا يخفى عليه شئ من الأشياء، كبيراً كان أو صغيراً.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النمل : سورة مكية .
نزلت بعد سورة الشعراء ، وقبل سورة القصص، كما ترتيبها فى المصحف الشريف.
وهى تبدأ بقوله تعالى :

{ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }
[الآيتان ١ ، ٢]

{طس} من الحروف المقطعة التى تحدثنا عنها سابقاً.
تلك أى : هذه الآيات، التى فى هذه السورة ٠٠ هى آيات من القرآن الكريم و هى آيات كتاب مبين لما فيه من العلوم والحكم، كما أنه مظهر للحق من الباطل.
وهذا الكتاب هدى من الضلال وبشرى بالجنة للمؤمنين به.

* * *

أتحبون أيها الكرام معرفة هؤلاء المؤمنين به ، المبشرين بالجنة ٠٠؟
إنـهم

{ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ }
[الآية ٣]

يعنى : الموصوفون بهذه الصفات الثلاث.

الأولى : إقامتهم للصلاة .
فهم الذين يقيمون الصلاة يحافظون عليها، ويؤدونها تامة، كاملة.
الثانية : إيتاؤهم للزكاة .
و هم الذين يؤتون الزكاة من أموالهم.
الثالث : تصديقهم باليوم الآخر .
وهم كذلك بالآخرة هم يوقنون وله بالعمل الصالح يستعدون.

* * *

وبالنسبة لهذه الصفة الثالثة ..
فإن من لم يؤمن باليوم الآخر : فإن الله عز وجل يهدده، قائلاً :

{ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ }
[الآيتان ٤ ، ٥]

أى : إن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة لأنهم لا يؤمنون بالغيب أصلاً، قد زينا لهم أعمالهم القبيحة، وذلك بتركيب الشهوة فيهم، حتى رأوها حسنة.
لذلك : فهم يعمهون يستمرون عليها، وينهمكون فيها.
أولئك لهم الجزاء التالى :

أولاً : سوء العذاب أى : العذاب الشديد فى الدنيا والآخرة.
ثانياً : الخسارة الفادحة وهم فى الآخرة هم الأخسرون وذلك : لمصيرهم إلى النار، المؤبدة عليهم.

* * *

ثم يوضح الله مصدر هذا القرآن فى خطاب إلهى للنبى صلى الله عليه وسلم .. حيث يقول له :

{ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ }
[الآية ٦]

يعنى : وإنك يا محمد لتلقى وتؤتى ويوحى إليك هذا القرآن من الكريم من لدن من عند حكيم عليم.

* * *

بالمناسبة ..!!
ما دام مصدره .. هو الحكيم العليم، سبحانه وتعالى: فخذ من آثار حكمته وعلمه هذا القصص، الذى نؤنسك به، ونعلمك وأمتك من خلاله.
وهذه : هى القصة الأولى ..
وهى قصة موسى عليه السلام.

{ إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ }
[الآية ٧]

اذكر إذ قال موسى عليه السلام لأهله لزوجته، عند عودته من أرض مدين إلى مصر إنى آنست رأيت من بعيد ناراً سأذهب إلى أهلها، وسآتيكم منها أى : من عندها.
إما بخير عن الطريق الذى يوصلنا إلى مصر.
أو آتيكم منها بشهاب قبس شعلة منها لعلكم تصطلون تستدفئون بها من هذا البرد الشديد.

* * *

وذهب موسى إلى النار ..

{ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآيتان ٨ ، ٩]

فلما وصل موسى إلى هذه النار :
نودى أى سمع نداءً يقول :
يا موسى أن بورك من فى النار أى : بارك الله من فى مكان النار، وهو: أنت ومن حولها أى : بارك حول مكانها، وهى : البقعة المباركة.
و يقول أيضا سبحان الله رب العالمين.
ويقول ثالثا يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم الذى يخاطبك ويناجيك.

* * *

وكان هذا الحديث الإلهى : مقدمة وتمهيداً لما سيظهر الله على يده من المعجزات.
حيث قال له :

{ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآيتان ١٠ ، ١١]

وبالفعل : ألقى موسى من يده عصاه.
مفاجأة ٠٠!!
العصى تهتز .
إنها تتحرك .
لقد انقلبت حية.
خاف منها موسى ولى مدبراً رجع موسى للخلف ولم يعقب ولم يرجع إليها.
وهنا ٠٠ قال له ربه : يا موسى لا تخف منها.
حيث إنى لا يخاف لدى عندى المرسلون من حية، أو غيرها.
إلا من ظلم فهو الذى يخاف.
بل إن من ظلم ثم بدل فعله وقوله حسناً بعد سوء كان منه فإنى غفور له رحيمبه .

* * *

واطمأن موسى، وثبت ، ووقف يستمع لما يوحى إليه.
فكان الأمر الثانى :

{ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ }
[الآية ١٢]

ونفذ موسى الأمر ٠٠
موسى يده فى جيبه .
وأخرجها ٠٠
فخرجت لا سمراء كما كانت، بل بيضاء، من غير مرض، لها شعاع مثل شعاع الشمس.
ثم قال له ربه : هذه آية وعلامة على نبوتك ضمن تسع آيات تدل على وحدانية الله وقدرته نرسلك بها إلى فرعون وقومه فى مصر، تقنعهم بها فى دعوتك إياهم إلى الإيمان بالله.
حيث إنهم كانوا قوماً فاسقين.

* * *

وعرف موسى : أنه نبى.
وذهب موسى : إلى فرعون وقومه يبلغهم رسالة الله.
وبلغهم رسالة الله .
وأراهم آيات الله ومعجزاته.

{ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }
[الآيتان ١٣ ، ١٤]

يعنى : فلما جاءتهم آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا مع موسى مبصرة واضحة مقنعة، و لم يؤمنوا بها، بل جحدوا ولم يقروا ويعترفوا بها كفراً وعناداً و قد استيقنتها أنفسهم أنها صادقة، وأنها من عند الله، وذلك ظلماً منهم وعلواً وتكبرا على الله وآياته ..!!

عاقبناهم بالإغراق فى البحر، وأهلكناهم.

فانظر كيف كان عاقبة المفسدين بهذا الإهلاك : نظرة اعتبار وتدبر ..!!

* * *

وبذلك .. انتهت .. قصة موسى عليه السلام.

* * *

وإليك القصة الثانية ..

وهى : قصة داود وسليمان عليهما السلام.

يقول تعالى :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآية ١٥]

يعنى : ولقد آتينا داود وسليمان ابنه علماً بالقضاء بين الناس، ومنطق الطير، وغير ذلك : فعملا به، وأفادا منه.

وقالا بلسان الحمد الحمد لله الذى فضلنا بما آتانا من علم على كثير من عباده المؤمنين الذى لم يؤتَ علماً، والذى لم يؤتَ مثل علمنا.

* * *

ثم يقول سبحانه :

{ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ }
[الآية ١٦]

أى : وورث سليمان أباه داود فى النبوة والعلم ، دون باقى أولاده.

وقال سليمان عليه السلام ــ منادياً ومُعَلِّماً بما أفاض الله عليه من خير وإنعام، ولافتاً أنظار الناس إلى هذه المعجزات ــ يأيها الناس علمنا من ربنا منطق الطير ما يفهم من أصواته وأوتينا من كل شئ أوتى منه الأنبياء والملوك.

إن هذا أيها الناس لهو الفضل المبين الواضح من الله تعالى.

* * *

ثم يبين الله بعض هذا الفضل ..
فيقول :

{ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ }
[الآية ١٧]

وذات مرة جمع الله لسليمان عليه السلام جنوده التى سخرها له من الجن والإنس والطير من كل مكان.
فهم يوزعون يجعلون صفوفاً لا يتقدم أحد منهم على أحد، فى نظام بديع، وتناسق محكم.

* * *

وصاروا يطوفون بأنحاء المملكة ..

{ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ }
[الآية ١٨]

أى : سار سليمان وجنوده حتى إذا أتوا : مروا على وادى النمل.

وهنا : قالت نملة لقومها من باب النصيحة ، وقد رأت جند سليمان قادمون يا أيها النمل ادخلوا فوراً مساكنكم حتى لا يحطمنكم سليمان وجنوده الكثيرون وهم لا يشعرون بكم؛ لصغر حجمكم.

* * *

وسمعها سليمان، وفهم قولها :

{ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ }
[الآية ١٩]

فتبسم سليمان عليه السلام ضاحكاً متعجباً من قولها الواعى، المحذّر لقومها، الناصح لهم٠٠
وقال لربه داعياً :
يا رب أوزعنى ألهمنى أن أشكر نعمتك على بالنبوة والملك والعلم وعلى والدى فهما سبب وجودى.
و يا رب أعنى أن أعمل عملاً صالحاً يسعد العباد، ويصلح البلاد، وترضاه أنت.
وادخلنى يا رب برحمتك فى عبادك الصالحين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء [النساء : ٦٩].

* * *

وسار سليمان وجنوده، بعد ذلك ٠٠

{ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ }
[الآيتان ٢٠ ، ٢١]

يعنى : وتفقد سليمان الطير، أى : نظر إليها، وتمَّم عليها ؛ معرفة لأحوالها، واطمئناناً على أمورها، شأن القائد الصالح الناجح.
ولم ير سليمان الهدهد ٠٠!!
فقال لمن معه ما لى لا أرى الهدهد بين الطيور ٠٠؟
أهو هنا ٠٠ ولكنه مستتر عن عينى أم كان من الغائبين عنى، وعن تواجده مع جنودى٠٠؟
وعرف سليمان عليه السلام، أن الهدهد غائب.
فقال :
لأعذبنه عذاباً شديداً على غيابه بدون إذن منى.
أو لأذبحنه عقاباً على هذا الغياب.

أو ليأتينى على غيابه هذا بسلطان مبين عذر واضح، وفى هذه الحالة ٠٠ لا أعذبه، ولا أذبحه.

* * *

ولما علم الهدهد بهذا التهديد الملكى : عاد سريعاً.
يقول تعالى :

{ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ }
[الآية ٢٢]

فمكث غير بعيد أى : غاب الهدهد قبلاً، وجاء إلى سليمان.
وسأله سليمان – بالطبع – عن سر غيابه.
فقال الهدهد أحطت بما لم تحط به أى : أطلعت على شئ لم تطلع عليه أنت، ولا جنودك.
وكأن سليمان سأل :
أين كنت ٠٠؟
وما هذا الذى علمت به وحدك ٠٠؟
فقال وهو أنى جئتك من عند سبأ وهى قبيلة كبيرة باليمن، بنبأ يقين أى: بخبر صادق.

* * *

قال سليمان وما هذا الخبر ٠٠؟
قال الهدهد :

{ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ * أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ }
[الايات ٢٣ – ٢٦]

يعنى : إنى وجدت امرأة فى سبأ أمرها عجيب.
ثم أخبر الهدهد سليمان عنها بهذه التفاصيل ٠٠
قال :

أولاً : تملكهم أى : ملكة على قومها.

ثانياً : أوتيت من متاع الدنيا، وما يحتاجه الملوك كل شئ.
ثالثاً : ولها عرش عظيم كبير فخم مزخرف.
ثم أخبر عنها وعن قومها بقوله :
وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله الذى نوحده ونعبده ونسجده.
وهذا من عمل الشيطان.
و قد زين لهم الشيطان أعمالهم هذه، وهى عبادة الشمس فصدهم بذلك عن السبيل الحق فى معرفة الله فهم لا يهتدون بسبب ذلك ألا يسجدوا لله سبحانه .
ثم وصف ربه تعالى قائلاً :
الذى يخرج الخبء المختفى فى السموات من مطر والأرض من نبات .
و هو سبحانه الذى يعلم ما تخفون فى قلوبكم وما تعلنون بألسنتكم.
وهو الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

* * *

وسمع سليمان من الهدهد أخباره ..
أتدرون ماذا فعل .. ؟

* * *

{ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ }
[الآية ٢٧]

قال سليمان سننظر فيما قلت ؛ لنعرف أصدقت فيما أخبرتنا بهأم كنت فيه من الكاذبين لنتخلص مما نريد أن نفعله بك من العذاب أو الذبح ..؟

* * *

ولكن كيف يعرف ذلك ..؟
انظروا ..
قال له :

{ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ }
[الآية ٢٨]

يعنى : كتب سليمان كتاباً إلى هذه الملكة التى أخبره بها الهدهد .
وأعطى هذا الكتاب للهدهد ٠٠
وأعطاه – أيضا – تعليمات واضحة .
حيث قال له :
اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم أى إليها وقومها هؤلاء.
ثم تول عنهم يعنى : ابتعد عنهم قليلاً بحيث تراهم وتسمعهم ؛ لتعرف ما يكون فى أمرهم.
فانظر ماذا يرجعون أى : ماذا يكون ردهم على كتابنا إليهم.

* * *

وأخذ الهدهد كتاب سليمان عليه السلام.
وطار به إلى سبأ باليمن، ودخل على الملكة، واسمها بلقيس، وحولها جندها، وألقى إليها الكتاب.
وفوجئت بذلك.
ولكنها .. أخذت الكتاب، وقرأته، وعرفت ما فيه.
ثم..

{ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ }
[الآيات ٢٩ – ٣١]

يعنى : اتجهت إلى من فى مجلسها، وأخبرتهم بهذا الأمر العجيب الذى حدث أمامهم ٠٠
قالت لهم يا أيها الملأ إنى كما رأيتم ألقى إلى كتاب.
ثم وصفت الكتاب قائلة كريم أى أن ما فيه كلام طيب، ولا عيب فيه.
ثم بينت مصدر الكتاب ومن الذى أرسله بقولها إنه أى الكتاب ٠٠ من سليمان.
ويبدو أن سليمان عليه السلام كان معروفاً لها ولقومها ٠٠ ولذلك لم يسأل واحد منهم عن سليمان .. بل سكت الجميع.
ثم قرأت مضمون هذا الكتاب.. وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا على وأتونى مسلمين.
منتهى الاختصار ..
استفتاح للخطاب باسم الله، ونهى عن التكبر والاستعلاء، وأمر بالحضور إليه خاضعين مؤمنين بالله.

* * *

وفكرت بلقيس، وكانت حكيمة ذكية ..

الأمر ليس سهلاً ..
إن الخطاب من سليمان .. وهو ليس بالشخص العادى.
وحامل الخطاب هدهد .. وهو ليس بالحامل العادى لمثل ذلك.
وهذا الخطاب : ليس عادياً ..فهو خطاب كريم، من ملك كريم، ومضمونه يتعق بأمر عظيم، وهو أمر العقيدة.
إذاً الأمر يحتاج إلى مستشارين.
لذلك :

{ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ }
[الآية ٣٢]

أفتونى يعنى : أشيروا على فى أمرى هذا، ودلونى ماذا أفعل، فأنا ما كنت قبل ذلك، كما تعرفون عنى قاطعة أمراً برأى فيه وحدى حتى تشهدون وتحضرون، وتبدون فيه رأيكم ٠٠؟
وبذلك : أشركتهم معها ؛ تطيباً لخاطرهم، وضماناً لاجتماع كلمتهم، ووحدة صفهم، أمام هذا الأمر الخطير.

* * *

فماذا قالوا لها، وهى تستنجد بهم :

{ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ }
[الآية ٣٣]

وفهم القوم منها : أنها تريد الحرب .
أو أنهم اغتروا بقوتهم التى كانوا عليها، وسلاحهم الذى كانوا يملكونه ٠٠
إذّ :
قالوا لها نحن أولوا قوة فى أجسادنا وأسلحتنا وأولوا بأس شديد قوة وخبرة عالية فى حروبنا.
فاطمئنى من جهتنا.
و لكن الأمر إليك ونحن مطيعون لك.
فانظرى ماذا تأمرين ونحن ننفذ ما تشائين، وما تأمرين به.

* * *

ولأنها حكيمة .. لم تفتن بهذه القوة ..!!

ولأنها عاقلة .. لم ترد لشعبها الهلاك، ولا لبلادها الدمار.
حيث قالت لهم :

{ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ }
[الآيتان ٣٤ ، ٣٥]

لم تسترح بلقيس لفكرة الحرب، وبينت لهم أضرارها على البلاد والعباد.
واقترحت أسلوب الهدايا والمراسلات والمفاوضات ..
قائلة وإنى مرسلة إليهم أى : إلى سليمان وجنوده بهدية نخطب بها وُدَّه، وندفع بها ضرره، ونختبر بها قصده.
فناظرة بم يرجع المرسلون وعلى ضوء ما يرجعون به نفكر ماذا نفعل فى الخطوة التالية .. ؟
ووافقها القوم.

* * *

وجهزت الهدية.
وأرسلتها إلى سليمان عليه السلام.

{ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ }
[الآيتان ٣٦ ، ٣٧]

يعنى : فلما جاء رسولها سليمان بالهدايا ..
قال له سليمان : أتمدونن بمال من عندكم، لأتركم على شرككم وكفركم بالله ..!!
هذا ..لا يمنعنى أبداً من دعوتكم للإيمان فما آتانى الله من النبوة، والملك والمال خير مما آتاكم من متاع الدنيا وزينتها.
فضلاً عن أنى لا أفرح بما حملتموه إلى بل أنتم بهديتكم هذه تفرحون لأنكم حصرتم اهتمامكم ولذاتكم فى اتباع أهوائكم.
لذلك : لا أقبل هديتكم ورشوتكم هذه، ولا آخذها منكم.
ثم قال له :
ارجع إليهم بهديتهم هذه.
ثم كاشفه بما سيفعل معهم؛ حتى لا يأخذهم على غِرَّة ؛ لعلهم بهذه المكاشفة يفكرون، ويعرفون الصواب، فيهتدون.

قال له : قل لهم فلنأتينهم لنحاربهم بجنود كثيرة قوية لا قبل لهم ولا طاقة عندهم بها.
و كذلك : سننتصر – بعون الله – عليهم ولنخرجنهم منها أى من بلادهم أذلة بسبب كفرهم وهم صاغرون بسبب أسرهم.

* * *

وخرج رسول بلقيس بهداياها من عند سليمان : عائداً لبلاده.
وفوراً كان قرار سليمان ٠٠ أن يحضروا عرشها عنده ، قبل حضورها هى.
لذلك :

{ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ }
[الآية ٣٨]

يعنى : من منكم يستطيع أن يأتينى بعرش بلقيس، قبل أن تأتينى هى وقومها مأسورين مستسلمين؛ ليكون ذلك دليلاً لها على نبوته ..؟

* * *

وفى الحال :

{ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ]
[الآية ٣٩]

قال عفريت مارد من الجن وهو واحد من جنود مملكة سليمان أنا آتيك به كما تريد، وذلك قبل أن تقوم من مقامك أى : مجلسك هذا.
وإنى عليه وعلى احضاره، ونقله، وحمله لقوى وعلى ما فيه، وما يحتويه أمين.

* * *

لكن يبدو أن سليمان عليه السلام أراد من هو أسرع فى تحقيق هذه المهمة.
لذلك ..

{ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ }
[الآية ٤٠]

وبالفعل .. قبل أن يغمض سليمان عليه السلام عينيه : وجد عرش بلقيس بين يديه.
فلما رآه مستقراً عنده : لم يحطمه، ولم ينتقل إليه، ويستولى عليه .
بل قال لنفسه ؛ اعترافاً بالنعمة، ولمن حوله ؛ تعليماً لهم واجب الشكر : هذا الذى حدث ٠٠ هو من فضل ربى على.
وكان هذا الفضل : ليبلونى ليختبرنى أأشكر إنعامه هذا أم أكفر فلا أشكر ٠٠؟
ثم قرر الحقائق قائلاً :
ومن شكر الله على نعمه فإنما جزاء ما يشكر عليه لنفسه.
ومن كفر بترك الشكر على النعم فإن ربى سبحانه غنى عن الشكر كريم بالإنعام، حتى على من لم يشكره.

* * *

ثم التفت إلى من حوله ، و :

{ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ }
[الآية ٤١]

أراد سليمان أن يختبر ذكاءها، وقوة ذاكرتها، قبل أن يحادثها فى شئ بعد حضورها.
إذّ قال نكروا غيروا لها عرشها بتغيير بعض صفاته.
ثم ننظر إلى ما يكون منها ..
أتهتدى إليه، وتعرفه بعد التغيير الذى حدث ؟
فندرك ذكاءها، وقوة ذاكرتها.
أم تكون من الذين لا يهتدون إلى معرفته.

* * *

ونفذوا ما طلب سليمان، ونكروا عرش بلقيس، قبل أن تحضر من بلادها.

{ فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ }

[الآية ٤٢]

أى : فلما جاءت بلقيس من مملكة سبأ باليمن إلى سليمان عليه السلام ببلاد الشام : أطلعوها على عرشها، الذى كانت قد تركته باليمن، دون إعلامها أنهم أحضروه من هناك.

وقيل لها أهكذا عرشك يعنى : أمثل هذا عرشك؟

وكان فيها ثبات وعقل وفطنة.

إذّ لم تقل إنه هو ٠٠ لأنها تركته هناك باليمن.

ولم تقل لا .. لأنها رأت فيه من أوصاف عرشها الكثير.

لذلك قالت : كأنه هو .

وكان هذا أبلغ رد، وأحسن جواب.

ولما سمع سليمان جوابها : عرف ذكاءها، وعلمها.

ثم قال : مبيناً فضل العلم ، وشاكراً نعم الله عليه.

و أما نحن فقد أوتينا العلم من قبلها إنعاماً من الله علينا وكنا له مسلمين أمرنا.

* * *

ثم أضاف قائلاً :

{ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ }

[الآية ٤٣]

يعنى : و الذى صدها ومنعها عن الإسلام أنها كانت من قوم كافرين بالله، يعبدون غيره، فصارت مثلهم، تشاركهم كفرهم، مع علمها وذكائها.

ولذلك : لم تكن رؤية العرش منقولاً هكذا ٠٠ كافية لأن تعلن إسلامها.

* * *

ومن هنا قرر سليمان عليه السلام أن يريها معجزة أخرى، لتكون دليلاً لها على نبوته.

إذّ ..

{ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

[الآية ٤٤]

أى : قيل لها ادخلى الصرح وهو القصر.
وكان بناءً عظيماً بناه سليمان بجنوده ، وجعل أرضيته زجاجاً ، تحته ماءً.
فلما رأته هكذا حسبته لجة من الماء.
و لما أرادت الدخول تنفيذاً لأمر سليمان كشفت عن ساقيها للخوض فى هذا الماء الذى حسبته ماءً.
وهنا ..
قال لها : إنه ليس ماءً، بل هو صرح بناء مجرد أملس بنى من قوارير زجاج.
وفى الحال : أدركت أن سليمان نبياً .
وعرفت أن الذى أعطاه القدرة على هذه الأشياء، وسخر له من يفعلها : هو الله سبحانه وتعالى، الذى يستحق أن يعبد وحده.
لذلك :
قالت رب إنى ظلمت نفسى بالكفر، وعبادة غير الله.
وأسلمت الآن نفسى ووجهى وأمرى مع سليمان لله رب العالمين.

* * *

وبهذا ..
انتهت قصة سليمان عليه السلام بما تضمنته من قصص ٠٠ النملة، والهدهد، وبلقيس ملكة سبأ.

* * *

وتبدأ القصة الثالثة ..
وهى قصة صالح عليه السلام.
يقول تعالى :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }
[الآيتان ٤٥ ، ٤٦]

يعنى : ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً نبياً، يقول لهم أن اعبدوا الله وحده.
فإذا هم فريقان بالنسبة لما دعاهم إليه ٠٠
فريق آمن معه .
وفريق كفر بدعوته ورسالته .
وصاروا يختصمون مع بعضهم البعض، بسبب ذلك.

قال صالح .. لمن كفر يا قوم لم تستعجلون بالسيئة وهى العذاب قبل الحسنة وهى إيمانكم : يعنى : لم تكفرون فتستحقون العذاب، بدلاً من إيمانكم، الذى بسببه تنعمون، ولا تعذبون، بل تدخلون الجنة ٠٠ ؟

يا قوم لولا هلا تستغفرون الله من ذنوبكم وتقلعون عن كفرهم، وتؤمنون به لعلكم ترحمون من غضبه وعذابه ٠٠ ؟

* * *

ماذا كان موقفهم من دعوته هذه ٠٠ ؟

{ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ }
[الآية ٤٧]

أى : قالوا له اطيرنا تشاءَمْنا بك وبمن معك ولم نعد نرى من وجوهكم إلا كل سوء ومصيبة تنزل بنا ٠٠!

وأجابهم بكل قوة ووضوح.

قال لهم طائركم أى ما ينزل بكم من سوء وغيره، هو قدركم المكتوب لكم عند الله، وليس بسببنا كما تدعون.

بل أنتم فى حقيقة الأمر قوم تفتنون تختبرون بالنعمة لتشكروا فتؤمنوا، أو لتطغوا فتكفروا، وتختبرون بالنقمة لتصبروا وتؤمنوا، أو لتجزعوا وتكفروا٠٠!!

* * *

وظل صالح يدعوهم، وهم على هذا الحال ٠٠

{ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ }
[الآيتان ٤٨ ، ٤٩]

يعنى : وكان فى هذه المدينة أى مدينة ثمود تسعة رهط نفر يفسدون فى الأرض ولا يصلحون طبيعتهم كلها الفساد، وفعلهم كله الفساد، لا صلاح عندهم، ولا أمل فيه لديهم.

هؤلاء التسعة قالوا وقد تقاسموا بالله وتعاهدوا فيما بينهم قائلين لنبيتنه أى : صالحاً وأهله قتلى بأيدينا، لنستريح منه، ومما يدعوننا إليه.

ثم لنقولن بعد قتله وأهله لوليه أى : لأقاربه الباقين، حتى لا يطالبون بدمه : ما شهدنا مهلك أهله أى ما نعرف من الذى قتل أهله، فضلاً عن معرفة قاتله هو، فكيف نتهم بقتلنا لهم؟

هذا لم يحدث منا إطلاقاً.
وإنا لصادقون فيما قلناه لكم.

* * *

يقول تعالى:

{ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ }
[الآية ٥٠]

أى : و مكروا مكراً حيث أخفوا ما بيَّتوه من نية القتل لصالح عليه السلام وأهله.
ومكرنا نحن مكراً بهم، وهو إهلاكهم وهم لا يشعرون بنا، ولكنا نشعر بهم، ونحيط بكل أحوالهم.

* * *

ثم يقول تعالى مبيناً ما فعله بهم نتيجة كفرهم، وإفسادهم، وسكوت قومهم على ظلمهم.

{ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ }
[الآيات ٥١-٥٣]

الأمر فى قوله تعالى فانظر لكل الناس، وهو أمر بالنظر للتدبر والاعتبار والاتعاظ.
وقد دمرهم الله أجمعين، المفسدين، والساكتين عليهم، الراضين بفعلهم.
وذلك بالصيحة، كما هو موضح فى مواضع أخرى من كتاب الله.
يقول تعالى فتلك بيوتهم خاوية خالية مُخَرَّبَة بما ظلموا.
إن فى ذلك الذى حدث لقوم صالح لآية مفيدة لقوم يعلمون قدرة الله ويوحدونه.
وهذا بالنسبة للكافرين.
وأما هو عليه السلام والمؤمنين به : فيقول تعالى وأنجينا الذين آمنوا بالله ورسوله وكانوا يتقون غضب الله وعذابه، من هذا الهلاك والدمار.

* * *

وبهذا .. انتهت قصة صالح عليه السلام، كما حكتها هذه السورة الكريمة.

* * *

ثم يقص المولى على حبيبه تثبيتاً له ولمن معه، وتعليماً لنا وللمسلمين إلى يوم القيامة القصة الرابعة ..
وهى قصة لوط عليه السلام.
يقول تعالى :

{ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ }
[الآيتان ٥٤ ، ٥٥]

أى : و اذكر لوطاً إذ قال لقومه وهو يدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده أتأتون أتفعلون الفاحشة وهى اللواط وأنتم تبصرون تنظرون إلى بعضكم البعض علانية.
يا قوم أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء وهذا لا يليق بكم كبشر.
بل أنتم يا قوم قوم تجهلون عواقب فعلكم هذا، وعقوبته عند الله عز وجل.

* * *

فماذا كان جوابهم له ..؟
يقول تعالى:

{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ }
[الآية ٥٦]

أى : فما كان جواب قومه له، على دعوتهم للإيمان، ونهيه لهم عن إتيان الفاحشة إلا أن قالوا لبعضهم البعض أخرجوا آل لوط مع لوط من قريتكم وأبعدوهم عنكم.
ثم قالوا استهزاءً بلوط عليه السلام والمؤمنين معه إنهم أناس يتطهرون منكم، ويبعدون أنفسهم عنكم، بل يريدون منكم ترك لذاتكم.

* * *

يا ألله .. على هؤلاء الطغاة ..!!

يرفضون الدعوة إلى الطهر ..!!
ويسخرون من أهلها ..!!
ولذلك : يقول تعالى :

{ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ المُنذَرِينَ }
[الآيتان ٥٧ ، ٥٨]

يعنى : فأنجيناه وأهله الذين آمنوا معه، من الهلاك إلا امرأته التى لم تنكر عليهم فعلهم قدرناها وحكمنا عليها أن تكون من الغابرين الهالكين.
و أهلكناهم، بأن أمطرنا عليهم مطراً من حجارة من سجيل فساء مطر المنذرين مطرهم.

* * *

وبذلك : انتهت قصة لوط عليه السلام.

* * *

وبعد أن ذكر له أحوال هؤلاء الأنبياء، الذين أهلك الله عز وجل مكذبيهم تماماً ..
ثم يعود الخطاب الإلهى المباشر مع محمد صلى الله عليه وسلم ،الذى قال له ربه فى مطلع هذه السورة :وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ..!!
ليقول له :

{ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ }
[الآية ٥٩]

يعنى : قل يا محمد
أولاً الحمد لله الذى أهلك المكذبين من الأمم السابقة، ولم يفعل ذلك مع المكذبين من أمتى، بل أنعم عليهم بالقرآن.
وثانياً : قل سلام على عباده الذين اصطفى واختار لرسالته من الأنبياء، فصبروا على ما أوذوا فى تبليغهم أقوامهم دعوة الله.
وثالثاً : قل للكفار الله خير لكم وأنفع أم ما تشركون معه غيره، مما لا ينفع ولا يضر ..؟
ويلاحظ : أن هذا الخطاب الإلهى للنبى صلى الله عليه وسلم : يعتبر تمهيداً لما يأتى بعده من الدلالات على وحدانية الله وقدرته سبحانه، من خلق أصول النعم وفروعها على عباده.

* * *

يقول تعالى أولاً :

{ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ }
[الآية ٦٠]

وهذا دليل يتعلق بالسموات.

والمعنى : أآلهتهم التى يبعدونها غير الله خير، أم هذا الإله الذى خلق السموات والأرض بهذا النظام البديع الفريد ..!! ؟

وأنزل لكم من السماء ماءً مطراً فأنبتنا به يعنى بهذا المطر، لكم حدائق بساتين ذات بهجة منظر جميل بهيج النفوس، ويريح العيون .

وما كان لكم وما تستطيعون أنتم أن تنبتوا شجرها على هذا النحو، المتعدد الأصناف، والألوان، والطعوم ..؟

أيهما إذاً خير ...؟

خبرونى بربكم .. أإله مع الله أى غيره، يستحق أن يعبد، فى هذه الحالة ..؟

بل هم قوم يعدلون عن الحق إلى الباطل .. وعن الصواب إلى الخطأ.

* * *

ثم يقول تعالى .. ثانياً :

{ أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ }
[الآية ٦١]

وهذا دليل على قدرة الله ووحدانيته .. يتعلق بالأرض.

والمعنى : أآلهتهم التى يعبدونها غير الله .. خير ، أم هذا الإله الذى :

جعل الأرض قراراً مستقرة، لا تميل ولا تضطرب، مع حركتها السريعة الدوَّارة ؛ لتطيب لكم الحياة عليها.

وجعل خلالها أنهاراً عذبة، تشربون منها.

وجعل لها جبالاً رواسى تمنعها من الاهتزاز.

وجعل بين البحرين العذب والمالح حاجزاً بحيث لا يطغى المالح على العذب فيفسده.
أيهما إذا خير ..؟
خبرونى بربكم أإله مع الله أى : غيره، يستحق أن يعبد فى هذه الحالة ..؟
بل أكثرهم لا يعلمون وحدانيته وقدرته على ذلك.

* * *

ثم يقول تعالى .. ثالثاً :

أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ
[الآية ٦٢]

وهذا دليل يتعلق باحتياج الخلق إليه سبحانه.
والمعنى : أآلهتهم التى يعبدونها غير الله .. خير ، أم هذا الإله الذى :
يجيب المضطر الذى نزل به وأحوجه .. مرض، أو فقر، أو كارثة، إلى اللجوء إلى الله إذا دعاه ليرفع عنه ذلك ويكشف السوء الذى نزل به.
ويجعلكم كذلك خلفاء الأرض أى : يخلف بعضكم بعضاً فيها بالسكنى، والمنفعة، والملك.
أيهما إذاً خير ..؟
خبرونى بربكم أإله مع الله أى : غيره، يستحق أن يعبد فى هذه الحالة ..؟
حقاً .. قليلاً ما تذكرون فتعرفون قدرة الله، وتوحدونه.

* * *

ثم يقول تعالى رابعاً.

{ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }
[الآية ٦٣]

وهذا دليل على قدرة الله ووحدانيته باحتياجات خاصة للخلق فى أوقات خاصة كذلك.
والمعنى: أآلهتهم التى يعبدونها غير الله .. خير ، أم هذا الإله الذى :
يهديكم يرشدكم إلى ما تريدون الوصول إليه فى ظلمات البر بعلامات الأرض والبحر بالنجوم ليلاً.
ومن يرسل الرياح بشراً مبشرات بالخير بين يدى رحمته بإنزال المطر، تنتفعون به، وتحيون عليه.
أيهما إذاً .. خير ..؟

خبرونى بربكم أإله مع الله أى : غيره، يستحق أن يعبد فى هذه الحالة ..؟
تعالى الله وتنزه عما يشركون معه من آلهة.

* * *

ثم يقول تعالى ..خامساً :

{ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية ٦٤]

وهذا دليل على قدرة الله تعالى ووحدانيته .. يتعلق بالبعث والإعادة.
والمعنى : أآلهتهم التى يعبدونها غير الله .. خير ، أم هذا الإله الذى :
يبدأ الخلق فى الأرحام من نطفة ثم يعيده خلقاً آخر بعد الموت، وقد قامت لهم الأدلة والبراهين على ذلك.
ومن يرزقكم من السماء بالمطر والأرض بالإنبات .
ومن المعلوم : أن الرزق به يحيا الخلق، وبدونه تنقطع الحياة؛ ولذلك ذكره الله.
أيهما إذاً .. خير ..؟
خبرونى بربكم أإله مع الله أى : غيره، يستحق أن يعبد فى هذه الحالة ..؟
قل لهم إن كان عندكم دليل بهذا هاتوا إذا برهانكم أى : دليلكم الذى بسببه تكفرون إن كنتم صادقين أن عندكم دليلاً على أن معى من الآلهة من يقدر على شئ من ذلك.
وبالطبع فهم غير صادقين ..!!

* * *

هذا ..
وبعد أن بين الله من الأدلة على وحدانيته : أنه مختص بالقدرة على كل شئ ..
استدل على وحدانيته : بأنه مختص بعلم الغيب.
حيث يقول :

{ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ }
[الآية ٦٥]

نزلت هذه الآية .. لما سألوه ، صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة ..
فقال له ربه :

قل لهم لا يعلم من فى السموات ومن فى الأرض شيئاً من الغيب.
ولكن الله وحده .. هو الذى يعلم الغيب كله.
وما يشعرون جميعاً، سكان السموات والأرض أيان متى يبعثون؟
ولذلك : ليست الفائدة فى معرفة وقتها.
بل الفائدة : فى الاستعداد بالعمل الصالح لها.

* * *

ثم يستهزئ بهم رب العزة قائلاً :

{ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ }

[الآية ٦٦]

يعنى : هم لا يسألون للمعرفة بل ادراك وتلاحق علمهم فى الآخرة وشئونها، حتى سألوا عن وقتها .. ؟
ليس كذلك ..
بل هم يؤمنون بها ولكنهم منها فى شك حتى سألوا عن وقتها .. ؟
ليس كذلك أيضاً ..
بل الحقيقة أنهم منها عمون أى : عميت قلوبهم، ولا فائدة منهم، ولا رجاء فيهم.

* * *

وبالنسبة لسؤالهم عن وقت الساعة : فهم أصلاً يستبعدونه وينكرونه.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ }
[الآيتان ٦٧ ، ٦٨]

يعنى : وقال الذين كفروا بالله، وينكرون قدرته أئذا كنا تراباً بعد الموت وآباؤنا كذلك ٠٠ أئنا لمخرجون من قبورنا للبعث والحساب والسؤال والجزاء ..؟
هذا ..٠ لا يكون أبداً.
لقد وعدنا هذا الكلام نحن وآباؤنا من قبل أى : من قبل محمد، ولم يحدث شئ منه.

ولذلك :

ما هذا الكلام إلا من أساطير وحكايات الأولين التى ليس لها أساس من الصحة.

ولأجل هذا .. فنحن لا نصدقه، ولا نؤمن به.

* * *

وبالتالى ..

فإن الله تعالى يهددهم على هذا التكذيب، ويخوفهم بما حدث للمكذبين من قبلهم ..

حيث يقول :

{ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ }

[الآيتان ٦٩ ، ٧٠]

أى : قل يا محمد لهؤلاء المعاندين لك، المنكرين للبعث سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين على تكذيبهم؛ إذّ مشاهدة آثار ما نزل بهم من العقاب .. كفاية لأولى الألباب.

هذا ..

ولا تحزن عليهم لعدم إيمانهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون به، ويدبرون لك من الأذى، فإنا ناصروك عليهم.

* * *

ثم يحكى ربنا بعض ما يستهزءون به .. فى قوله :

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ }

[الآيات ٧١ – ٧٥]

يعنى : ويقول هؤلاء الكافرون متى هذا الوعد بالعذاب إن كنتم صادقين أنه آت ..؟

لِمَ لَمْ يأتِ ..؟

قل لهم عسى أن يكون ردف قرب لكم مجئ بعض هذا العذاب الذى تستعجلون مجيئته.

و مع ذلك إن ربك لذو فضل على الناس فى تأخير العذاب عنهم ولكن أكثرهم لا يشكرون لأنهم لا يؤمنون بوقوعه أصلاً.

هذا ..

وإن ربك سبحانه ليعلم عنهم ما تكن صدورهم وتخفيه من الاستهزاء بك، والإنكار لك وما يعلنون منه بألسنتهم.

و ذلك : لأنه ما من غائبة صغيرة ولا كبيرة إلا هى مسجلة فى كتاب مبين وهو اللوح المحفوظ.

* * *

ثم تنتقل الآيات للحديث عن القرآن، الذى هو دليل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.
فتقول :

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ }
[الآيتان ٧٦ ، ٧٧]

أى : إن هذا القرآن من عند الله تعالى :
لأنه يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون مما لا يعلمه محمد صلى الله عليه وسلم.
و أيضاً إنه هدى ورحمة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة، إن عملوا به.

* * *

وبعد أن بين الله تعالى : أن القرآن من عنده، وأنه معجز، وأنه دال على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ..!!
وضح أنه سبحانه : هو الذى يفصل فى أمر هؤلاء المعاندين
فقال :

{ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ }
[الآية ٧٨]

يعنى : إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة، كغيرهم بحكمه العادل فيهم وهو العزيز الغالب العليم بما يحكم به.

* * *

لذلك :

{ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ* وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ }
[الآيات ٧٩ – ٨١]

يعنى : فتوكل على الله أى : ثق به وبنصره لك.
حيث :

أولاً : إنك على الدين الحق المبين الواضح.
ثانياً : إنك قد بلغتهم، ولكنك لا تسمع الموتى وهم موتى القلوب، لا يسمعون.
ثالثاً : إنك قد بلغتهم، ولكنك لا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وهم صم، قد تولَّوْا عنك، وانصرفوا مدبرين، لا يسمعون.
رابعاً : إنك قد بلغتهم، ولكنك لا تهدى العمى عن ضلالتهم وهم عمى، قد ضلوا .. فهم لا يهتدون.
يا محمد ..
إن تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون.

* * *

ولأن الكفار كانوا يستعجلون العذاب الذى يهددهم به محمد صلى الله عليه وسلم : لعدم إيمانهم ..!!
ولأن العذاب الأكبر ينزل بهم فى يوم القيامة ..!!
فإن الله عز وجل : يذكر بعض علامات مجئ يوم القيامة.
فيقول :

{ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ }
[الآية ٨٢]

يعنى : وإذا وقع القول عليهم يعنى : حق العذاب، وجاء وقته أخرجنا لهم بقدرتنا دابة من الأرض كعلامة على قيام الساعة تكلمهم حين خروجها.
ومن جملة كلامها الذى تقوله أن الناس كانوا بآياتنا أى : آيات الله لا يوقنون.

* * *

ثم يذكر الله بعض مشاهد يوم القيامة .. فيقول :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ ﴾
[الآيات ٨٣-٨٥]

يعنى : فى يوم القيامة يحشر الله ويجمع بعد الحشر العام من كل أمة فوجاً أى : جماعة من الذين يكذبون، وهم كثيرون .

حتى إذا اجتمع جمعهم وتكامل عددهم .. قال لهم ربهم أكذبتم بآياتى وأنتم لم تحيطوا بها علماً أى : من غير فهم لها أم ماذا كنتم تعملون.. ؟

خبرونى .. ماذا كان عملكم، الذى دفعكم إلى كفركم ..؟

إنه .. لا شئ سوى العناد.

و بذلك وقع القول وحق العذاب عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون.

لأنه لا عذر لهم يبدونه، ولا كلام لهم ينطقونه.

* * *

وهذا دليل على يوم القيامة .. الذى ينكرونه.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
[الآية ٨٦]

ألم يروا أنا جعلنا ذلك لمنفعتهم، وليس عبثا .

ومن قدر ذلك : فهو قادر على البعث والإعادة فى يوم القيامة.

إن فى ذلك أى : خلق الليل والنهار لآيات كلها دلائل على وحدانية الله وقدرته لقوم يؤمنون فيستعدون بالعمل الصالح ليوم القيامة.

* * *

ثم يعود السياق إلى ذكر بعض مشاهد يوم القيامة .. فيقول :

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾
[الآية ٨٧]

يعنى : ويوم القيامة ينفخ فى الصور النفخة الأولى، ففزع فزعاً يفضى إلى الموت، كل من فى السموات ومن فى الأرض ثم يموتون إلا من شاء الله من الملائكة.

وهذه النفخة: هى الأولى المذكورة فى قوله تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون [الزمر: ٦٨].

وكل أتوه طوعاً لأمره سبحانه داخرين أى صاغرين.

* * *

وهذا دليل آخر على يوم القيامة .. الذى ينكرونه.

{ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ }
[الآية ٨٨]

أى : وترى الجبال الآن تحسبها جامدة واقفة وهى فى الحقيقة تمر وتسير مر السحاب الذى تراه يسير.

وذلك صنع الله تعالى الذى أتقن كل شئ صنعه.

حقاً إنه خبير بما تفعلون ولم يخلق هذه الأشياء عبثاً، ولم يخلقكم عبثاً.

وهذه كلها : دلائل على وحدانية الله وقدرته ..

فعلى العقلاء : أن يستعدوا بالعمل الصالح ليوم القيامة.

* * *

فى هذا المقام : يكون الحديث عن الجزاء فى يوم القيامة.

فيقول تعالى :

{ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }
[الآيتان ٨٩ ، ٩٠]

أى : أن كل من جاء بالحسنة وهى كل ما يرضى الله تعالى من الأقوال والأفعال .. فله فى هذا اليوم خير منها وهو : الجنة.

وهم كذلك من فزع يومئذ آمنون لا يخافون.

و أن كل من جاء بالسيئة وهى كل ما يخالف شرع الله تعالى من الأقوال والأفعال .. فكبت وجوههم فى النار جزاءً عادلاً لهم.

ويقال لهم هل تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون من المعاصى.

* * *

يا حبيبى يا محمد ..!!

قل لهؤلاء جميعاً :

{ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }

[الآيات ٩١-٩٣]

يعنى : إنما أمرت من ربى بهذه الأشياء :

أولاً : أن أعبد الله وحده رب هذه البلدة وهى مكة المكرمة .

هو الذى حرمها أى : جعلها أماناً لكل من فيها .

وله سبحانه كل شئ فى الوجود، خلقاً وملكاً وتصرفاً.

ثانياً : وأمرت أن أكون أول المسلمين الموحدين، المخلصين، المنقادين لأمره سبحانه، العاملين بشرعه.

ثالثاً : وأن أتلوا القرآن على الناس، وأبلغهم بما جاء فيه .

فمن اهتدى بهداه، واتبع ما فيه : فإنما يهتدى لنفسه ومنفعته راجعة إليه .

ومن ضل عن هداه وكفر بما فيه، أو أنكره : فقل إنما أنا من المنذرين فقط، وما علىَّ إلا البلاغ.

رابعاً : وقل الحمد لله على ما أعطانى من نعمة النبوة والعلم، وعلى ما وفقنى لطاعته، وتبليغ رسالته.

خامساً : وقل للدنيا كلها سيريكمالله سبحانه آياته الدالة على وحدانيته وقدرته الموجودة فى الأنفس والآفاق، والتى تضمنها القرآن الكريم فتعرفونها لتهتدوا بها، وذلك إلى يوم القيامة.

هذا ..

وما عليك بعد ذلك يا محمد من شيء

وما ربك بغافل عما تعملون يا كل البشر، وسيجازى كل إنسان بما يستحق.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر